الإشراقات عند الصوفية
حقيقتها وأنواعها وأدلتها الشرعية

تأليف الدكتور
مختار محسن محمد
أمين الفتوى بدار الإفتاء المصرية

للإنتاج والنشر والتوزيع
٧ شارع الجمهورية - عابدين - وسط القاهرة
١٠ شارع الإمام الدردير - خلف الجامع الأزهر
جمهورية مصر العربية

ت: ٠١٢٠٨٣٠٣٩٠١ (+٢٠٢)
٠١١٤٧٢٠٨١٧٣ (+٢٠٢)

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٩٩٠٢

الترقيم الدولي I.S.B.N.
٠-٥٢-٦٨٠٢-٩٧٧-٩٧٨

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الإشراقات عند الصوفية حقيقتها وأنواعها وأدلتها الشرعية/تأليف: د. مختار محسن محمد.
ط١-القاهرة: دار الوابل الصيب، ٢٠٢٢م.
تدمك : ٠-٥٢-٦٨٠٢-٩٧٧-٩٧٨
١- التصوف الإسلامي.
٢- الإشراقات والإلهامات والواردات.
٣- الكشف والفتح والمشاهدة والرؤى.

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا .... أمانة في أعناقنا

الإشراقات عند الصوفية

حقيقتها وأنواعها وأدلتها الشرعية

تأليف

د. مختار محسن محمد

أمين الفتوى بدار الإفتاء المصرية

الوابل الصيب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الأستاذ الدكتور علي جمعة

عضو هيئة كبار العلماء وشيخ الطريقة الصديقية الشاذلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحابته أجمعين، ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن الطريق إلى الله غايته هي الوصول إلى الله دون ما سواه، ولذلك أكد العارفون والأولياء ممن سلكوا هذا الطريق وخاضوه على أن الله مقصود الكل؛ وأنَّ ملتفتًا لا يصل؛ فلا يصح أن يلتفت السالك إلى ما يحصل له من إشراقات وأنوار وتجليات وأسرار، لكنه متى حصلت له ينبغي أن يعلم أنها قد تكون نعمة ترشده إلى مزيد السير والمجاهدة، وقد تكون نقمة إذا وقف عندها وطلبها فيعود من حيث بدأ!

ولما كان الوعي قبل السعي كان من المهم بيان هذه الإشراقات بشيء من التفصيل والبيان؛ من باب النصح والإرشاد لأهل الطريقة وطالبي الحقيقة؛ عسى أن يعينهم ذلك على قطع عقبات النفوس، والنجاة من مزالق الطريق؛ وكأن معاني هذا الكتاب وأمثاله تنادي على كل من يسير في الطريق إلى الله وتكرر على مسامعهم قول الله تعالى: (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ) [النجم:٤٢] ليكملوا السير والإقبال ويتركوا الدعة والإهمال .

فاللهم اسلك بنا الطريق إليك وعلمنا الأدب معك ولا تلفتنا عنك، واشرح صدورنا بأنوار معرفتك وفهمنا أسرار عبوديتك وأقمنا في مرضاتك وافتح علينا فتوح العارفين بك.

الأستاذ الدكتور علي جمعة

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

وشيخ الطريقة الصديقية الشاذلية

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار وأتباعه الأبرار إلى يوم الدين.

وبعد، فإن التصوف الإسلامي هو برنامج عملي للاستفادة من مواريث النبوة؛ من أجل الوصول إلى الله؛ أي إلى المعرفة الصحيحة به جل جلاله، المعرفة الصحيحة التي هي ضد الجهل وضد الخرافة؛ وهو ما دعانا له القرآن الكريم في آياته؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ أي: ما عرفوا الله حق معرفته [١]؛ فالآية تنعي على أولئك الذين أعرضوا عن معرفة الله حق معرفته؛ ونفوا عنه مقتضى صفاته من الرحمة واللطف بعباده؛ فأشارت الآية إلى لزوم تحقق الناس بمعرفة ربهم حق المعرفة؛ منعًا لوقوعهم في الجهل على الله ونسبة ما ليس صحيحا له سبحانه، ومن تتبع آيات القرآن الكريم وجد القرآن من أوله لآخرة يقوم على تعريف الناس بربهم؛ بتعريفهم برحمته وعدله، بقدرته وعلمه، بسننه في الخلق، وعظمة مخلوقاته ونظامها البديع، بما يرضيه ويحبه، وما لا يحبه، بما أنزله من كتب وما أرسله من رسل، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، بما أعده للمؤمنين من نعيم، وما توعد به الكافرين المعاندين؛ فالمعرفة هي غايات الغايات.

ولما كانت هذه المعرفة هي المقصد الأهم من السلوك والعبادة- كما سيتأكد من ثنايا هذا البحث- بحيث ينبه على كل سائر في الطريق أن الله هو مقصود الكل، وأن ملتفتًا لا يصل، كان لزامًا على أهل العلم وأرباب الطريق بيان ما يعرض لبعض السائرين والسالكين من أمور أثناء سيرهم مما يطلق عليها "الإشراقات"؛ من خلال دراسة تفصيلية لحقيقة هذه الإشراقات وبيان أنواعها، وما قاله ساداتنا الصوفية فيها، وما نقل عنهم من إرشادات سلوكية، وتجارب

---

(١) انظر:البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٢/ ١٤٣، طبع بإشراف الدكتور حسن عباس زكي،١٤١٩هـ

روحية؛ لينتفع اللاحق بالسابق، ويسير الخلف على خطى السلف؛ وذلك تأكيدًا على ما أرشدنا إليه القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٣]

بين يدي الدراسة:

فكرة هذه الدراسة المبتكرة وما يتعلق بها من مباحث هي لمولانا الإمام العلامة شيخنا وأستاذنا إلى الله الأستاذ الدكتور علي جمعة عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف وشيخ الطريقة الصديقية الشاذلية، وإمام مدرسة الإحياء والتجديد الأزهرية حفظه الله تعالى ونفع به البلاد والعباد، وقد قمت ببركة امتثال أمره بجمع هذه الإشراقات من كتب السادة الصوفية، وعرض كل فصل منها على فضيلته، واستيضاح ما كان خفيًا من كلام القوم، فخرجت بفضل الله بعد تمام العشرين نوعًا من أنواع الإشراقات، لكن والحمد لله تُعدُّ هذه الدراسة كذلك جامعة لألوان من آداب التصوف وقواعده وفوائد الطريق ودرر كلام العارفين والسالكين، وقد قمت بفضل الله أثناء الدراسة ببيان كثير من مصطلحات التصوف والتعريف بالكثير من رجاله وأئمته حتى يستفيد كل ناظر في هذا الكتاب، وينتفع به بإذن الله تعالى وبركة رسوله ﷺ بما يجعل من هذه الدراسة موسوعة صوفية معاصرة ميسرة لعدد من معارف ومصطلحات التصوف وتراجم رجاله.

والله المرجو أن تكون هذه الدراسة نافعة لطلاب الحقيقة، وأن تكون سببًا لنجاتنا يوم الدين، وأن يجزي عنا مولانا وشيخنا الأستاذ الدكتور علي جمعة خير الجزاء.

د.مختار محسن محمد

خادم العلم الشريف

الخامس عشر من شهر رجب الفرد ١٤٤٣ هـ

الموافق ١٦/ ٢/ ٢٠٢٢م

غرض هذه الدراسة ومنهجها:

هذه الدراسة دراسة مبتكرة؛ حيث لم يجمع مثل هذا المجموع المبارك من كلام السادة الصوفية بخصوص ما يسمى بالإشراقات؛ كما أنها تقوم على سبر أغوار[1] هذه الإشراقات والتي هي عبارة عن آثار تحدث للسالك أثناء سيره إلى الله؛ فالطريق إلى الله الذي مبناه الذكر والفكر والمجاهدة قد تحدث للسالك فيه بعض الآثار التي تنتج عن هذا السير يطلق عليها الصوفية "الإشراقات" وهي ليست إلا من نعم الله على بعض عباده، وبالتالي فهي في الأصل ليست دليلًا على مكانة أو قرب العبد، وإنما هي من آثار رحمة الله بعباده السالكين؛ إذ يسوقهم إليه ويثبتهم في الطريق إلى حضرته، فهي إذن محض فضل من الله، تستوجب الشكر لا التعالي على الخلق، ولا الركون إليها والانشغال بها، حتى لا تتحول لفتنة، ولافت عن الطريق، بدلًا من أن تكون معونة عليه.

بين ما جاء به الشرع وما قرره السادة الصوفية في أصولهم ومراجعهم المعتمدة:

وقد نبه الإمام الغزالي على حصول بعض أنواع الإشراقات لأولياء الله، وحذر من إنكارها من غير دليل معتبر؛ فقال:" اعلم أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة، وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كما يكون في المنام؛ وهذا أعلى الدرجات، وهي من درجات النبوة العالية كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة.

فإياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك ففيه هلك المتحذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجا عن الدين

(١) سبرت غوره: أي عرفت حقيقته ؛انظر المعجم الوسيط ٦٦٦/٢ ط.مجمع اللغة العربية

بالكلية"[1]

فظهر من خلال هذا الكلام النفيس للإمام الغزالي أهمية مثل هذا المبحث الذي يتناول ميراثًا من مواريث النبوة، وعِلمًا من العلوم اللدنية التي أنكرها بعضُ الجهال، وادعاها بعض الأدعياء؛ فصار البيان متعينًا؛ منعًا للجهل والادعاء.

ولعل أحد أهم أغراض هذه الدراسة بيان موافقة علوم ومعارف السادة الصوفية لما جاء به الوحي الشريف؛ فلا يقع منهم إلا كل ما وافق الشرع وتأيد به؛ ابتداء أو انتهاء، وإذا أثمرت تجربتهم عن أمر مخالف للشرع كانوا أبعد الناس عنه.

ولذلك فهذه الدراسة تجمع بين أمرين:

أولهما: تتبع ما نقل عن السادة الصوفية من بيان للإشراقات وأنواعها، مما حصل لهم في عباداتهم وتجاربهم الروحية في السير إلى الله.

ثانيا: عرض ما يؤيد ذلك من قواعد الشرع أو نصوصه، بما يثبت الاتساق والتوافق بين علوم القوم وتجاربهم الروحية وبين الشرع الشريف.

أهمية الشيخ والرجوع له في شأن ما يظهر للمريد من آثار السلوك:

من الأسس التي ينبغي الوقوف عندها قبل الشروع في هذه الدراسة التنبيه على أهمية وجود الشيخ في التعرف على ما يعرض للمريد من إشراقات وأحوال، وأن مجرد الاطلاع والتعلم لا يكفي خاصة للمبتدئين في السلوك؛ وأن ما يقرره السادة الصوفية في كتبهم ورسائلهم من علوم وأحوال وإرشادات لا يغني وحدَه؛ بل إن عمدة الطريق السلوك على يد الشيخ العارف الذي أقامه الله في تربية المريدين وهداية الحائرين ممن جمع بين علوم الشريعة والحقيقة وكان دالًا على الله بحاله ومقاله؛ وقد أكد حجة الإسلام الإمام الغزالي على ذلك المعنى فقال في شأن ما يعرض للمريد من أحوال: "فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه؛ بل كل ما يجد في قلبه من

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١/ ٨٢ ط.المعرفة بيروت

الأحوال من فترة أو نشاط، أو التفات إلى علقة أو صدق في إرادة، فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه وأن يستره عن غيره،،فلا يطلع عليه أحدًا، ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته؛ فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته؛ حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته، وإن علم أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله؛ ردَّه إلى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه، وينبغي أن يتأنق الشيخ ويتلطف به فإن هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها"[١]

وعلى ذلك فينبغي استصحاب هذا الأصل في كل ما ستتناوله الدراسة من بيان للإشراقات وأنواعها وآثارها ومقاصدها، فالتصوف السني قائم على الاتباع والإسناد، وهو ما تسبب في حفظ الدين وعلومه جيلا بعد جيل.

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٧/ ٣٧٣ ط.المعرفة

في بيان حقيقة الإشراقات

الإشراقات لغة:

أورد ابن فارس في معجمه أن الشين والراء والقاف أصل واحد وهو معنى الإضاءة والفتح قال:" من ذلك شرقت الشمس، إذا طلعت. وأشرقت، إذا أضاءت. والشروق: طلوعها. ويقولون: لا أفعل ذلك ما ذر شارق، أي طلع، يراد بذلك طلوع الشمس. وأيام التشريق سميت بذلك لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها للشمس. وناس يقولون: سميت بذلك لقولهم: " أشرق ثبير، لكيما نغير ". والمشرقان: مشرقا الصيف والشتاء. والشرق: المشرق. وقال قوم: إن اللحم الأحمر يسمى شرقا. فإن كان صحيحا فلأنه من حمرته كأنه مشرق.

ومن قياس هذا الباب: الشاة الشرقاء: المشقوقة الأذن، وهو من الفتح الذي وصفناه."(١)

وفي تاج العروس ما نصه:" أشرق وجهه، ولونه: أسفر وأضاء وتلألأ حسنا. والمشريق: المشرق، عن السيرافي. ومكان شرق ومشرق، وقد شرق شرقا وأشرق: أشرقت عليه الشمس فأضاء. وأشرقت الأرض: أنارت بإشراق الشمس وضحها عليها"(٢)

إذن حاصل معنى الإشراق في اللغة معنيان:

الأول: الإضاءة والنور. **الثاني: الفتح.**

الإشراقات اصطلاحًا:

السادة الصوفية لهم مصطلحات تعبر عن نسقهم المعرفي الذي يعتمد على الكتاب والسنة وعلى الذوق الذي لا يخالف الكتاب والسنة؛ ومعرفة هذه المصطلحات ضروري لفهم مراد السادة الصوفية في كتبهم، وما نقل عنهم من أخبار وآراء تبين فهمهم للنصوص الشرعية، وكيفية سلوكهم وتطبيقهم لمقتضى هذه النصوص.

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٢٦٤ ط.دار الفكر، ١٩٧٩ م

(٢) تاج العروس شرح جواهر القاموس للمرتضى الزبيدي ٢٥ / ٥٠٤ ط.دار الهداية

وبتتبع نصوص السادة الصوفية من خلال كتبهم، وما نقل عنهم، وبتتبع بعض ما ورد من استخدامهم لفظ الإشراقات يمكن أن نُعَرِّف الإشراقات بأنها: **ما يحدث أثناء سير السالك في الطريق إلى الله من آثار بسبب هذا السير ظاهرًا أو باطنًا.**

فإن بعض هذه الآثار يحدث للسالك في إطار الحس الظاهر؛ كما يحدث في حالة الكرامات التي قد تحدث للسالك فيراها هو أو يشاهدها الناس، وقد تكون غير ظاهرة مثل ما يحدث للمريد في باطنه من إلهام ونور في قلبه ونحو ذلك.

وقد استخدم السادة الصوفية مصطلح الإشراق وعبروا به عما يحدث للمريد من آثار السلوك والمجاهدة، وممن نقل عنهم ذلك الإمام الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى فيقول في كتابه "رياضة النفس" وهو يتكلم عن مسألة إشراق القلب بالنور: "فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوها، بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم، فلم يمكنوها من تلك الشهوات إلا مالا بد منه، كهيئة المضطر، حتى ذبلت النفس، وطفئت حرارة تلك الشهوات، ثم زادوها منعاً حتى ذبلت واسترخت، فكلما منعوها شهوة آتاهم الله على منعها نوراً في القلب، فقوى القلب، وضعفت النفس، وحيي القلب بالله جل ثناؤه، وماتت النفس عن الشهوات، حتى امتلأ القلب من الأنوار، ودخلت النفس من الشهوات، فأشرق الصدر بتلك الأنوار، فجلب على النفس خوفًا وخشية وحياء، واستولى على النفس وقهرها، فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التي أعطيت القلوب، بما فيها من المعرفة؛ فعلى حسب تأديب القلب النفس ينال القلب ولاية وسلطاناً، فإذا أشرقت الأنوار من القلب في الصدر، وخلا الصدر من دخان الشهوات، أبرز القلب سلطانه، فانقادت النفس وسلست، وألقت بيدها سلمًا، وانكمن العدو واختشى"(١)

---

(١) رياضة النفس للحكيم الترمذي صـ٤٣ ط.دار الكتب العلمية، انكمن: من الكمون أي توارى واستخفى في مكمن، واختشى من الخشية؛ كما في القاموس

وقد ورد ذلك أيضًا في كلام الإمام الرازي في التفسير فيقول عن حال الذاكر: " إذا حضر الذكر اللساني بحيث يسمع نفسه حصل أثر من ذلك الذكر اللساني في الخيال، ثم يصعد من ذلك الأثر الخيالي مزيد أنوار وجلايا إلى جوهر الروح، ثم تنعكس من تلك الإشراقات الروحانية آثار زائدة إلى اللسان، ومنه إلى الخيال، ثم مرة أخرى إلى العقل ولا يزال تنعكس هذه الأنوار من هذه المرايا بعضها إلى بعض ويتقوى بعضها بعض ويستكمل بعضها ببعض ولما كان لا نهاية لتزايد أنوار المراتب لا جرم لا نهاية لسفر العارفين في هذه المقامات العالية القدسية وذلك بحر لا ساحل له ومطلوب لا نهاية له"(١)

يقول الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفي في كتابه التصوف الثورة الروحية في الإسلام: " ويظهر الإشراق في قلب الصوفي على أنحاء فقد يظهر فجاءة قويًا شديدًا، وقد يبدو خافتًا أول الأمر ثم يأخذ في القوة واللمعان"(٢)

ومما يلزم أن نؤكد عليه أن معنى الإشراق المقصود عند عموم السادة الصوفية لا علاقة له بما يعرف بالحكمة الإشراقية التي هي أحد أقسام الفلسفة، وقد يطلق عليها اسم التصوف الفلسفي، وليست من قواعد التصوف السني في شيء. (٣).

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٥ /٤٤٥ ط.دار إحياء التراث العربي

(٢) انظر التصوف الثورة الروحية في الإسلام للدكتور أبو العلا عفيفي صـ٢٩٢ ط.الهيئة العامة للكتاب.

(٣) الفلسفة الإشراقية هي أحد أنواع الفلسفة، وأحد مباحثها هو مبحث المعرفة الإشراقية،وهذه المعرفة عند بعضهم تنتج عن العقل "الفعال"، ولهم في ذلك مصطلحات أخذوا بعضها من الفلسفة اليونانية ومن غيرها، وطريقهم يقوم على التجربة الذاتية، وليست التجربة الموثقة المسندة المعتمدة من قبل أهل الله،ولذا اختلطت فلسفتهم بعقائد باطلة وأفكار موغلة في الإيهام ككلامهم عن التناسخ مثلا ؛ ولذلك فالفلسفة الإشراقية عند المحققين ليست من التصوف في شيء؛ إذ التصوف السني قائم على الاتباع وعلى وجود طرق تحمل إلى الناس برامج عملية مأخوذة من نصوص الوحي وليست من الفلسفة في شيء، ولذلك فالفلسفة الإشراقية حتى لو تشابهت بعض مصطلحاتها مع كلام الصوفية إلا أن منهج كل منهما مختلف عن الآخر، فالتصوف أساسه

من أنواع الإشراقات

ونتقل بعد بيان مفهوم الإشراق إلى بيان أنواعه وهي على النحو التالي:

(١) الوارد:

من جملة الإشراقات التي تحصل للسالك ما يطلق عليه الواردات.

وقد تعرض لتعريف الوارد؛ لغة وشرعا العارفُ ابن عجيبة في إيقاظ الهمم شرح الحكم العطائية؛ فقال:" والوارد في اللغة هو: الطارق والقادم؛ يقال: ورد علينا فلان، أي: قدم، وفي الاصطلاح: ما يتحفه الحق تعالى قلوبَ أوليائه من النفحات الألهية، فيكسبه قوة محركة، وربما يدهشه أو يغيبه عن حِسِّه ولا يكون إلا بغتة ولا يدوم على صاحبه "(١)

ثم قال: " المراد من الواردات ثمراتها ونتائجها، وهو ما يعقبها من اليقين والطمأنينة والرضى والتسليم وغير ذلك من المحاسن، فإذا أعطتك نتائجها وجنيت ثمراتها فلك في الله غني عنها، فلا يستحقر الوردَ ويطلب الوارد إلا من كان عبدَ الوارد، وأما من كان عبد الله فلا يلتفت إلى ما سواه، بل يلزم ما هو مكلف به من وظائف العبودية؛ قياماً بحق عظمة الربوبية، فهو الذي يدوم وبه يتوصل إلى رضى الحي القيوم"(٢)

فالواردات التي ترد على قلب السالك من معاني، وفهوم وأسرار هي عبارة عن أسباب موصلة إلى الله، ينبغي أن تكون ثمرتها الاستمرار في العبادة، ودوام التعلق بالله لا التعلق

التسليم والاتباع للشرع الشريف وغايته المعرفة بالله وطريقه الكتاب والسنة وتجارب الشيوخ العارفين، بينما تقوم الفلسفة الإشراقية على أصول مغايرة للتصوف السني مأخوذة من بعض الفلسفات كالأفلاطونية الحديثة وغيرها[للاستزادة حول الفلسفة الإشراقية:انظر أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي للدكتور محمد علي أبو ريان ط.الأنجلو المصرية: الأولى ١٩٥٦ م،وانظر مصطلح الإشراق: المعجم الفلسفي ١/ ٩٤،د. جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب،١٩٩٤ م]

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني ص٢٦٦ ط.الفجر الجديد

(٢) إيقاظ الهمم ص٢١٤

بنفس هذه الواردات، حتى لا يكون ملتفتا عن المقصد الأجل وهو الله جل جلاله.

وممن تكلم بتفصيل كذلك عن معنى الواردات عند السادة الصوفية الشيخ محي الدين بن عربي رضي الله عنه قال في الفتوحات المكية:" الوارد عند القوم: ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة من غير تَعمُّل، والوارد عندنا: ما يرد على القلب من كل اسم إلهي فالكلام عليه بما هو وارد لا بما ورد، فقد يرد بصحو وبسكر وبقبض وببسط وبهيبة وبأنس، وبأمور لا تحصى، وكلها واردات غير أن القوم اصطلحوا على أن يسموا الوارد ما ذكرناه من الخواطر المحمودة".[١]

اختلاف أثر الواردات باختلاف المريدين:

نقل العارف الشعراني رضي الله عنه عن العارف أبي المواهب الشاذلي [٢] قوله:" الواردات مختلفة من حيث الموروِدةُ عليه، لا من حيث نفُسها؛ فإنها واحد، فهي كالمطر على أرض فيها أنواع من البذر، فالمطر واحد، والنبات مختلف ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] فافهم"ا.هـ [٣]

فظهر من ذلك أن الوراد الذي يأتي للسالك قد يُحدث آثارًا مختلفة بحسب أحوال هؤلاء السالكين.

---

(١) الفتوحات المكية ٦٢٩/٢

(٢) هو سيدي أبو عبد الله محمد أبو المواهب الشاذلي كان من كبار العلماء والعارفين وكان مجاورا في الأزهر الشريف وله شرح على الحكم العطائية يكشف عن سعة مواهبه وفتوحه، توفي رضي الله عنه حوالي سنة ٨٥٠ هـ ؛ انظر ترجمته في لواقح الأنوار القدسية في معرفة طبقات الصوفية؛ المسمى بالطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ٦٠ ط.المليجي ١٣١٥هـ

(٣) انظر: الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ٧٠

دقيقة في ظهور آثار الواردات عند بعض السالكين دون بعضهم، وسبب ذلك:

ذكر الإمام الغزالي في الإحياء في شأن السماع وما يتبعه من حصول بعض الوجد نتيجة للواردات التي تحصل لبعض السالكين فقال: " فإن قلتَ: الأفضل هو الذي لا يحركه السماع ولا يؤثر في ظاهره، أو الذي يظهر عليه؟

فاعلم أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان، وتارة يكون مع قوة الوجد في الباطن، لكن لا يظهر لكمال القوة على ضبط الجوارح فهو كمال، وتارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا في الأحوال كلها؛ فلا يتبين للسماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال؛ فإن صاحب الوجد في غالب الأحوال لا يدوم وجده فمن هو في وجد دائم ثم فهو المرابط للحق والملازم لعين الشهود فهذا لا تغيره طوارق الأحوال، ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصِدِّيق رضي الله عنه: (كنا كما كنتم؛ ثم قست قلوبنا [1])

معناه: قويت قلوبنا واشتدت؛ فصارت تطيق ملازمة الوجد في كل الأحوال، فنحن في سماع معاني القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديدا في حقنا طارئا علينا حتى تتأثر به؛ فإذا قوة الوجد تحرك وقوة العقل والتماسك تضبط الظاهر وقد يغلب أحدهما الآخر؛ إما الشدة قوته، وإما لضعف ما يقابله، ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك فلا تظنن أن الذي يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجدا من الساكن باضطرابه بل رب ساكن أتم وجدا من المضطرب"[2]

- وليس في ذلك المعنى أي معارضة لما في قول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾

---

(١) هذا الأثر عن أبي بكر الصديق أورده ابن أبي شيبه في مصنفه(١٩/ ٤٥٢) قال:: لما قدم أهل اليمن في زمان أبي بكر فسمعوا القرآن جعلوا يبكون، فقال أبو بكر: هكذا كنا، ثم قست القلوب" الحديث رقم:٣٦٦٧٣ ط.القبلة بتحقيق الشيخ محمد عوامة

(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٠٣

[الزمر: ٢٣] وقوله جل شأنه: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٨٥] لأن السالك إلى الله تكتنفه أحوال مختلفة، فما يغلب على السالك في أول الطريق قد لا يغلب عليه حال ارتقاءه؛ وقد يحمل كلام الصديق الأكبر على التواضع والاستتار، على أن مثله رضي الله عنه لا يلتفتون لوارد ولا غيره؛ وهو ما بينه الإمام العارف ابن عجيبة بكلام غاية في الدقة؛ فقال: " قد أثنى الله تعالى على هؤلاء السادات المُنعَم عليهم بكونهم إذا سمعوا كلام الحبيب خضعوا ورقَّت قلوبهم، وهو أول درجة المحبة، وفوقه الفرح بكلام الحبيب من مكان قريب، وفوقه الفرح بشهود المتكلم، وهنا ينقطع البكاء لدخول صاحب هذا المقام جنة المعارف، وليس في الجنة بكاء!

وأيضًا: من شأن القلب في أول أمره الرطوبة، يتأثر بالواردات والأحوال، فإذا استمر عليها اشتد وصلُب بحيث لا يؤثر فيه شيء من الواردات الإلهية. وفي هذا المعنى قال أبو بكر رضي الله عنه، حين رأى قوماً يبكون عند سماع القرآن: (كذلك كنا ثم قست القلوب)، فعبَّر عن تمكنه بالقسوة، تواضعًا واستتارًا، وإنما أثنى على هؤلاء السادات بهذه الخصلة لأنها سُلّم لما فوقها. والله تعالى أعلم"(١)

- وقال رضي الله عنه في شرح الحكم: " خواص الخواص استوى عندهم الجلال والجمال؛ فلا تغيرهم واردات الأحوال لأنهم بالله ولله لا لشيء سواه"(٢)

إذن ليس هناك علاقة بين كثرة الواردات أو مدى تأثيرها وبين مقامه مع الله؛ وإنما هي محض فضل من الله، وليست مقصودة في ذاتها على ما حرره أهل الله من الصوفية رضي الله عنهم.

---

(١) البحر المديد ٣/ ٣٤٦

(٢) إيقاظ الهمم صـ٢٠٦

هل يفرح المريد السالك بالواردات ؟

السالك إلى الله يدرب نفسه على العبودية؛ ومن ثم ينبغي ألا يلتفت إلى النعم إلا من حيث إنها سبب للوصول إلى الله، ومن ذلك الواردات التي تأتيه من ربه.

قال الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين أثناء حديثه عن مراتب الشكر: " قال الخواصُّ(١) رحمه الله شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات، وخلا عن لذة القلب؛ فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات، كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرة كما قيل:

ومـــن يـــك ذا فـــمٍ مـــرٍّ مـــريض ... يجـــد مـــرا بـــه المـــاءَ الـــزلالا

فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى فإن لم تكن إبلٌ فمِعزى (٢)؛ فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية أما الأولى فخارجة عن كل حساب فكم من فرق بين من يريد المَلِك للفَرس، ومن يريد الفَرسَ للمَلِك، وكم من فرق بين من يريد اللهَ ليُنعمَ عليه، وبين من يريد نعمَ الله ليصل بها إليه"(٣) ا.هـ

---

(١) إبراهيم الخواص: من أقران الإمام الجنيد والنوري وله في التوكل والرياضات حظ كبير، مات بالري سنة إحدى وتسعين ومائتين؛ من أقواله: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل والتضرع عند السحر،ومجالسة الصالحين. [انظر الرسالة القشيرية ١/ ١٠٤]

(٢) أصله بيت لامرؤ القيس: وتمامه: أَلا إِلّا تَكُن إِبِلٌ فَمِعزى**كَأَنَّ قُرونَ جُلَّتِها العِصِيُّ، ثم جرى مجرى المثل[انظر:مجمع الأمثال للميداني ١/ ١٩٥ ط.دار المعرفة]، واستشهاد الغزالي هنا به يريد: أن الإنسان إذا لم يُحصِّل المرتبة الأعلى في الفرح بالنعمة وهي الفرح لكونها سببا في القرب من المنعم ؛ لم يفته المرتبة التالية وهي الفرح لأجل العناية من قِبَل المنعم؛ وقد فصَّل الإمام الغزالي في هذا المعنى (مراتب الفرح بالنعمة) بما لا مزيد عليه فجزاه الله خير الجزاء [انظر إحياء علوم الدين ٤/ ٨٣ وما بعدها]

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ٨٤

الوارد عقب الذكر:

مما أثر عن مشايخ الصوفية في التعامل مع الوارد والاستعداد له أنهم يوجهون المريدين إلى استحباب انتظار الوارد عقب الانتهاء من الذكر، ويجعلون من آداب الذكر أن يسكت الذاكر بعد الذكر لعله يأتيه وارد من واردات الخير؛ يقول العارف بالله الشيخ أبو البركات أحمد الدردير رضي الله عنه وهو يذكر آداب الذكر البعدية:" وأما الآداب البعدية: فإنه يسكت ويسكن بخشوع، فإن للذكر واردات ترد على قلب الذاكر، ولا يتمكن الواردُ من القلب إلا بذلك؛ فإذا كان الواردُ واردَ زهد، وجب التمهلُ حتى يتم ويتمكن من القلب، فتستوي عنده الدنيا، أقبلت أم أدبرت، وإذا كان واردَ توكل..صار بعد ذلك مفوضا أمرَه إلى ربه في كل شيء، وإذا كان واردَ صبر..صار بعد ذلك لا ينزعج من تفاقم الأهوال، وهكذا من الواردات"[1] ا.هـ

---

(١) شرح الخريدة البهية للعلامة أبي البركات أحمد الدردير صـ ١٨٥ ط.كشيدة بتحقيق أ.د.جمال فاروق، وانظر كذلك الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني صـ٢٥ ط.دار جوامع الكلم ١٩٨٧ م

علامة الوارد الإلهي :

قال العارف ابن عجيبة الحسني: "الوارد الإلهي تعقبه برودة وسكون وزهد وطمأنينة وفترة، والوارد الشيطاني تعقبه حرارة وقساوة وتكبر وصَولة ورؤية نفس"(١)

وقال أيضًا: " سئل الشيخ عبد القادر الجيلاني نفعنا الله بذكره عن صفات الواردات الألهية والطوارق الشيطانية؛ فقال: الوارد الإلهي لا يأتي باستعداد، ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نمط واحد ولا في وقت واحد، والطوارق الشيطانية بخلاف ذلك غالباً"(٢)

(تتمة) في ذكر بعض "الحكم العطائية" التي تكلمت عن الواردات:

لما كان للعارف ابن عطاء الله السكندري اهتمام خاص في حكمه بالواردات، وكيفية التعامل معها؛ فنورد هنا أهم ما ذكره ابن عطاء الله في " الحكم " بخصوص ذلك؛ وهي على نظمها تلخص كل ما ذكرناه هنا عن الواردات وكيفية التعامل معها.

- ففي بيان أن الأعمال الظاهرة أثر لما يرد على قلب السالك قال رضي الله عنه: - **"تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال"** (٣)

- وعن بيان ثمرة الوارد في دفع السالك إلى الإقبال على الله والتحرر من الأغيار قال: **"إنما أورد عليك الواردَ لتكون به عليه واردا، و أورد عليك الواردَ ليتسلمك من يد الأغيار، و ليحررك من رقِّ الآثار"**(٤)

وكذلك قال بعدها: **" أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك"**(٥)

- وفي بيان أن دوام الأوارد علامة من علامات دوام الوِرد؛ قال: **" إذا رأيت عبدا أقامه الله**

(١) إيقاظ الهمم صـ ٤٦٩

(٢) إيقاظ الهمم صـ١٨٤

(٣)الحكمة (٩): انظر شرح الشيخ عبد الله الشرقاوي على الحكم صـ ٣٦ ط.كشيدة، الأولى

(٤)الحكمة (٥٣) انظر شرح الشرقاوي صـ ٧٥

(٥)الحكمة (٥٤)

بوجود الأوراد، و أدامه عليها مع طول الإمداد، فلا تستحقرن ما منحه مولاه، لأنك لم تر عليه سيما العارفين و لا بهجة المحبين، فلولا وارد ما كان ورد"(١)

-وعن معنى ان الوارد محض فضل من الله؛ وليس من شأنها الاكتساب؛ يقول: **" قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة، لئلا يدعيها العُبَّاد بوجود الاستعداد"**(٢)

- وقال في بيان أهمية المحافظة على الأوراد والامتثال للشرع الشريف: **"لا يستحقر الوِرد إلا جهول، الوارد يوجد في الدار الآخرة، و الورد ينطوي بانطواء هذه الدار،**

و أولى ما يعتنى به ما لا يُخلَف وجودُه، و الوردُ هو طالبه منك، و الوارد أنت تطلبه منه، و أين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه "(٣)

- ونبه على أهمية أن يكتم المريد وارداته عن الأغيار(سوى شيخه) حتى يحصل ما يرجى منها في القلب من خوف أو شوق يدفعان إلى العمل؛ فإن عدم الكتمان من علامات الالتفات، فقال:**"لا ينبغي للسالك أن يعبِّر عن وارداته، فإن ذلك يُقل عملها في قلبه، و يمنعه وجود الصدق مع ربه"**(٤)

- وفي بيان آثار الواردات في القلب، وأنها تزيل رعونات النفس وتغير حال المرء قال: **" متى وردت الوارداتُ إليك، هدمت العوائد عليك، ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ "**(٥).

ثم بين علة غلبة الوارد لرعونات النفس؛ أنها تأتي من حضرة القهار، كما أن لجنود الملك الغلبة - فقال: **" الواردُ يأتي من حضرة قهار؛ لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه، ﴿ بَلْ**

---

(١)الحكمة(٦٧): انظر إيقاظ الهمم ١٨٠

(٢)الحكمة (٦٩) انظر إيقاظ الهمم صـ ١٨٤

(٣)الحكمة(١١٢) انظر إيقاظ الهمم ٢٦٦

(٤)الحكمة (١٨٩) انظر إيقاظ الهمم صـ٤١١

(٥)الحكمة(٢١٦): انظر شرح الشيخ الشرقاوي صـ١٩٠

نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زَاهِقٌ﴾ "(١)

- وفي التنبيه على عدم وقوف المريد عند حصول الوارد حتى تحصل له ثمرته المرجوة لئلا يتكل عليه؛ فقال: **" لا تُزكين واردا لا تعلمُ ثمرتَه، فليس المرادُ من السحابة الإمطار، و إنما المراد منها وجودُ الإثمار "**(٢)

وقال في بيان ضرورة أن يعتني المريد بثمرة واراداته من التحقق بمقامات العبودية والتعرف على عظمة الربوبية:- **" لا تطلب بقاءَ الوارداتِ بعد أن بسطت أنوارَها و أودعت أسرارها، فلك في الله غنى عن كل شيء، و ليس يغنيك عنه شيء "**.(٣)

---

(١) الحكمة (٢١٧): انظر شرح الشيخ الشرقاوي صـ١٩٠

(٢) الحكمة (٢٢٠) انظر شرح الشرقاوي صـ ١٩٢

(٣) الحكمة (٢٢١):انظر شرح الشرقاوي صـ ١٩٢

(٢) الخواطر:

ومن الإشراقات الخواطر؛ ونذكر معناها في اللغة ثم في الاصطلاح:

فالخاطر في اللغة: بحسب ما جاء في تاج العروس للمرتضى الزبيدي: " ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر، وقال ابن سيده: الخاطر: (الهاجس، ج الخواطر). قال شيخنا: فهما مترادفان، وفرق بينهما وبين حديث النفس الفقهاء والمحدثون وأهل الأصول، كما فرقوا بين الهم والعزم، وجعلوا المؤاخذة في الأخير دون الأربعة الأول"(١)

أما في الاصطلاح؛ فإن أئمة الصوفية عبروا عنه على النحو التالي، ومنه يتضح معنى الخاطر في اصطلاح الصوفية:

- يقول الإمام العارف ابن عجيبة في تفسيره "اعلم أن الخواطر أربعة: ملكي ورباني ونفساني وشيطاني، فالملكي والرباني لا يأمران إلا بالخير، والنفساني والشيطاني لا يأمران إلا بالشر، وقد يأمران بالخير إذا كان فيه دسيسة إلى الشر، والفرق بين النفساني والشيطاني؛ أن الخاطر النفساني ثابت لا يزول بتعوذ ولا غيره، إلا بسابق العناية، بخلاف الشيطاني: فإنه يزول بذكر الله، ويرجع مع الغفلة عن الله" (٢)

وقال سيدي محي الدين بن عربي في شأن الخواطر: "اعلم أن لله سفراء إلى قلب عبده يسمون الخواطر؛ لا إقامة لهم في قلب العبد إلا زمان مرورهم عليه، فيؤدون ما أرسلوا به إليه من غير إقامة؛ لأن الله خلقهم على صورة رسالة ما أرسلوا به، فكل خاطر عينه عين رسالته فعند ما يقع عليه عين القلب فهمه، فإِما يعمل بمقتضى ما أتاه به، أو لا يعمل" (٣)

وللإمام القشيري كلام مهم حول الخواطر والفرق بينها، وأهمية الاستجابة للخواطر فقال: "تكلم الشيوخ في الخاطر الثاني إذا كان الخاطران من الحق سبحانه هل هو أقوى من الأول

---

(١) تاج العروس ١١/ ١٩٤

(٢) البحر المديد لابن عجيبة ٣١٧/١ ط. د.حسن عباس زكي

(٣) الفتوحات المكية لسيدي محي الدين بن عربي ٢/ ٢٢٦ ط.بولاق

فقال الجنيد: الخاطر الأول أقوى لأنه إذا بقي رجع صاحبه على التأمل وهذا بشرط العلم؛ فترك الأول يضعف الثاني، وقال ابن عطاء [1] الثاني أقوى لأنه ازداد قوة بالأول وقال أبو عبد الله بن خفيف من المتأخرين هما سواء، لأن كليهما من الحق فلا مزية لأحدهما على الآخر والأول لا يبقى في حال وجود الثاني، لأن الآثار لا يجوز عليها البقاء.."[2]

ثم قال في موضع آخر:" وقيل: الجود إجابة الخاطر الأول؛ سمعت بعض أصحاب أبي الحسن البوشنجي رحمه الله يقول: كان أبو الحسن البوشنجي في الخلاء فدعا تلميذا له وقال له: انزع عنى هذا القميص وادفعه إلى فلان فقيل له: هلا صبرت حتى تخرج من الخلاء؟ فقال: لم آمن على نفسي أن يتغير علي ما وقع لي من التخلف منه بذلك القميص "[3]

فالسادة الصوفية راعوا خواطر الخير، وأرشدوا إلى العمل بها إذا وافقت جملة الشريعة؛ لأنها عبارة عن منحة إلهية وتذكرة ربانية.

معيار قبول الخواطر:

وقد جعل الصوفية المعيار الذي يحتكمون إليه عند الحيرة في قبول الخاطر هو الشرع على نحو ما قاله الإمام الجنيد رضي الله عنه : ": إن النكتةَ لتقع في قلبي فلا أقبلها إلا بشهادة عَدْلَين: الكتاب والسنّة"[4]

وممن نص على ذلك الأمر أيضًا الإمام تاج الدين السبكي في مختصره جمع الجوامع فقال: " وإذا خطر لك أمرٌ فزنه بالشرع، فإن كان مأمورا فبادر، فإنه من الرحمن، فإن خشيت وقوعه لا

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم كان الخراز يعظم شأنه وهو من أقران الجنيد وصحب إبراهيم المارستاني، مات سنة تسع وثلاث مائة (انظر الرسالة القشيرية ١/ ١٣٠ ط.دار المعارف)

(٢) الرسالة القشيرية للإمام القشيري ١/ ١٩٨

(٣) الرسالة القشيرية ٢/ ٤٠٥

(٤) انظر: البحر المديد ١/ ٣١٦

إيقاعه على صفة منهية فلا عليك"(١)

قال شارحه الإمام الزركشي: " إذا عرض للسالك إلى الله في الطريق أمر فطريقه أن يزنه بميزان الشرع ويقصد باب العلم إذ لا عمل إلا بعلم، ولا تخرج عن ثلاثة أقسام:

إما أن يكون مأمورا به أو منهيا عنه أو مشكوكا فيه، والمصنف ذكر الثلاثة فإن وجده مأمورا به أعم من الواجب والمندوب فليبادر إلى فعله فإنه من الرحمن، فإن خشيت وقوعه على صفة منهية من عجب أو رياء، فلا عليك ولا تجعل هذا الخاطر مانعا من العمل فإنه شيطاني، نعم إن أوقعته على تلك الصفة المنهية كان ذلك محبطا له."(٢)

---

(١) انظر: تشنيف المسامع شرح الجوامع للإمام الزركشي ٤/ ٩٣٦ ط.قرطبة، الأولى ١٩٩٨م

(٢) انظر: تشنيف المسامع شرح الجوامع للإمام الزركشي ٤/ ٩٣٦

تتمة في أهمية التخلص من الخواطر الردية، وكيفية ذلك:

كما أن هناك خواطر ربانية، فهناك خواطر شيطانية؛ وهي الوساوس كما نبه على ذلك الإمام القشيري [١]، ويطلقون عليها أيضًا الخواطر الردية (أي الرديئة) وقد حث السادة الصوفية على أهمية التخلص من هذه الخواطر الردية، حتى لا تشوش على العبد سلوكه إلى الله؛كما نبهوا على طريق ذلك وكيفيته ومن ذلك:

١- ترك فضول النظر:

قال الإمام القشيري: " وأرباب المجاهدات إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المستحسنات [٢] وهذا أصل كبير لهم فى المجاهدة فى أحوال الرياضة" [٣]

والمراد من ذلك من النظر هنا هو فضول النظر يعني ما لا حاجة فيه، فضلا عن اجتناب النظر المحرم؛ فهذا تركه واجب قطعا، ولذلك صرحوا بأن من فوائد العزلة أنها تبعد المريد عن آفات النظر المؤدي إلى الخواطر الردية؛ قال العارف بالله ابن عجيبة الحسني: " من كان معتزلاً عن الناس سلم من النظر إليهم وإلى ما هم منكبون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] فتمنع بذلك النفس من التطلع إليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها وقال محمد بن سيرين رضي الله عنه: إياك وفضول النظر؛ فإنها تؤدي إلى فضول الشهوة، وقال بعض الأدباء: من كثرت لحظاته دامت حسراته، وقالوا: إن العين سبب الحِين؛ أي الهلاك، ومن أرسل طرْفَه اقتنص حتفَه، وأن النظر بالبصر إلى الأشياء يوجب تفرقةَ القلب"[٤]

فترك فضول النظر هو من أسباب حفظ القلب من الخواطر الردية؛ كما نبه عليه أهل الله الذين جربوا ذلك في خلواتهم وجلواتهم.

---

(١) انظر لطائف الإشارات للإمام القشيري ٢/ ٤٩٥ ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب (الثالثة)

(٢) قال العارف بالله ابن عجيبة الحسني: غض النظر عن المستحسنات أي: عن الدنيا

(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٦٠٧

(٤) إيقاظ الهمم صـ٥٩

٢- المجاهدة في نفي الخواطر:

ينبغي للسالك أن يعمل جاهدا على نفي الخواطر الردية عن قلبه؛ لا سيما التي تعرض له أثناء الذكر الذي هو أساس من أسس الطريق إلى الله، فإن لم يمكنه ذلك وشوشت هذه الخواطر عليه فعليه أن يراجع شيخه فهو كفيل بذلك بإذن الله:

قال الإمام الغزالي رحمه الله: " فإذا اشتغل بذكر الله تعالى -وهو المقصود - خلا لا محالة عن غيره، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قدر مضى من أحواله وأحوال غيره؛ فإنه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبُه عن الذكر في تلك اللحظة، وكان أيضًا نقصانا فليجتهد في دفع ذلك، ومهما دفع الوساوس كلها وردَّ النفسَ إلى هذه الكلمة جاءته الوساوسُ من هذه الكلمة وأنها ما هي؟ وما معنى قولنا الله؟ ولأي معنى كان إلها؟ وكان معبودا؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة، ومهما كان كارها لذلك، ومتشمرا لإماطته عن القلب لم يضره ذلك.

وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعا أن الله تعالى منزه عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره فشرطه أن يبالي به ويفزع إلى ذكر الله تعالى ويبتهل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ وقال تعالى ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفات إلى علقة أو صدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحدا ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته وإن علم أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد القاطع بما

يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه " (١)

إذن فمن الإشراقات التي تعامل معها السادة الصوفية "الخواطر" فنبهوا على أنواعها، وبينوا أثرها، ثم فرقوا بعد ذلك بين الخواطر على أساس ما ترشد له من خير أوشر، وجعلوا المعيار في ذلك هو الشرع الشريف.

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٧٧

(٣) الإشارات:

يقول الإمام السراج الطوسي في اللمع: " الإشارة ما يخفى على المتكلم كشفه بالعبارة؛ لِلطافة معناه" (١)

قال ابن عجيبة في شرح الحكم: " الإشارة أرق وأدق من العبارة والرمز أدق من الإشارة فالأمور ثلاثة: عبارات، وإشارات، ورموز، وكل واحدة أدق مما قبلها؛ فالعبارة توضح، والإشارة تُلَوِّح، والرمز يُفَرِّح؛ أي يفرح القلوب بإقبال المحبوب، وقالوا علمنا كله إشارة، فإذا صار عبارة خفي، أي خفي سره، أي فإذا صار عبارة بإفصاح اللسان لم يظهر سره على الجنان، فإشارة الصوفية هي تغزلاتهم وتلويحاتهم بالمحبوب؛ كذكر سلمي وليلي، وذكر الخمرة والكيسان والنديم، وغير ذلك مما هو مذكور في أشعارهم وتغزلاتهم، وكذكر الأقمار والنجوم والشموس والبدور واللوائح والطوالع وكذكر البحار والإغراق وغير ذلك مما هو مذكور في اصطلاحًاتهم، وأما الرموز فهي إيماء وأسرار بين المحبوب وحبيبه لا يفهمها غيرهم" (٢)

إذن الإشارة بهذا المعنى: ما خفي ورق من المعاني التي ترد على قلب السالك؛ ولدقة المعنى ورقته لم يستطع التعبير عنه إلا بهذه الإشارة.

ورود الإشارات في القرآن الكريم:

وأصل هذه الإشارات هو مما جاء به الوحي الشريف؛ وقد نبه الشيخ الأكبر إلى أن الإشارات قد ورد بها القرآن الكريم في صورة ضرب المثال؛ فالمثال يشير إلى المعاني المعتبرة المقصودة، دون أن يكون مقصودا في ذاته؛ قال رضي الله عنه في الفتوحات: " اعلم أيها الولي الحميم - أيدك الله بروح القدس وفهمك- أن الرموز والألغاز ليست مرادة لأنفسها؛ وإنما هي مرادة لما رمزت له، ولما ألغز فيها، ومواضعها من القرآن آيات الاعتبار كلها، والتنبيه على

---

(١) اللمع للسراج الطوسي صـ ٤١٤ ط.دار الكتب الحديثة بمصر

(٢) إيقاظ الهمم شرح الحكم صـ١٩٨

ذلك قوله تعالى ﴿وتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ﴾[العنكبوت: ٤٣]

فالأمثال ما جاءت مطلوبة لأنفسها، وإنما جاءت ليعلم منها ما ضربت له، وما نصبت من أجله مَثَلا؛ مثلُ قوله تعالى ﴿أَنْزَلَ من السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً ومِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ الله الْحَقَّ والْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً﴾ [الرعد:١٧] فجعله كالباطل كما قال ﴿وزَهَقَ الْباطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] ثم قال ﴿وأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧] ضربه مثلا للحق ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ الله الْأَمْثالَ﴾ [الرعد:١٧]

وقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ﴾ [الحشر: ٢] أي تعجبوا وجوزوا واعبروا إلى ما أردته بهذا التعريف و﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ﴾ [النور:٤٤] من عبرتُ الوادي إذا جزته، وكذلك الإشارة والإيماء؛ قال تعالى لنبيه زكريا:﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً﴾ [آل عمران: ٤١] أي: بالإشارة، وكذلك ﴿فَأَشارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩] في قصة مريم؛ لما نذرت للرحمن أن تمسك عن الكلام، ولهذا العلم رجال كبيرٌ قدرهم، من أسرارهم: سر الأزل والأبد، والحال والخيال، والرؤيا والبرازخ، وأمثال هذه من النسب الإلهية، ومن علومهم خواص العلم بالحروف والأسماء، والخواص المركبة والمفردة من كل شي ء من العالم الطبيعي؛ وهي الطبيعة المجهولة [١]" ا.هـ

فأهل التفسير درجات منهم من وقف عند ظاهر النصوص، ومنهم من تعدى إلى معانيها الشرعية وسياقاتها المرعية، ومنهم من جمع بين كل ذلك وبين مقاصدها ومراميها المرضية؛ فاتساع المعنى على قدر اتساع الرؤية؛ وفوق كل ذي علم عليم !

وعلى هذا ظهر علم من العلوم التي لها اتصال وثيق بعلوم السادة الصوفية مع مطابقته لقواعد علم التفسير وهو ما يسمى بالتفسير الإشاري الذي كان من رواده أئمة الصوفية أمثال الإمام القشيري صاحب كتاب "لطائف الإشارات" الذي يقوم على ذلك المنهج الإشاري؛

---

(١) الفتوحات المكية ١ / ١٨٩

وقد عرف العلماء ذلك النوع من التفسير بأنه: "تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضًا"[١]

فشرط صحة هذا النوع من التفسير ألا يخالف اللغة العربية وقواعدها، ولا يكر على المعنى الأصلي بالإبطال؛ وإلا صار نوعا من التحريف [٢].

---

(١) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ٢/٧٨ ط.عيسى الحلبي.

(٢)انظر: التفسير الإشاري للقرآن الكريم لمحي الدين حسين يوسف الإسنوي ط.العشيرة المحمدية

تتمة في معنى آخر للإشارة عند بعض الصوفية:

من المعاني التي تستخدم لمعنى الإشارة عند بعض الصوفية؛ ما يحصل لهم عند زيارتهم لأحد أولياء الله المنتقلين فيجدون في أنفسهم توجيها لفعل شيء أو بيانا لحقيقة من الحقائق؛ فيطلقون على مثل ذلك إشارة؛ ومن ذلك ما جاء في كتاب رشحات عين الحياة في تراجم السادة النقشبندية للشيخ علي بن حسين الهروي قال:" قال الشيخ عبد الله الخجندي الذي هو من أصحاب حضرة خواجه [1] بهاء الدين قدس سره، أنه حصلت لي جذبة قوية قبل تشرفي بشرف صحبة حضرة الخواجه قدس سره بسنين، فوصلت إلى مَرقد الخواجة محمد بن علي الحكيم الترمذي [2] قدس سره؛ فوجدت منه إشارةً مشتملةً على بشارة؛ بأن ارجع إلى وطنك، فإن مقصودك يحصل ببخارى، بعد اثنتي عشرة سنة، وهو موقوف على ظهور خواجه بهاء الدين النقشبند قدس سره؛ فحصل لي من تلك الإشارة جمعية في الجملة...إلخ"[3]

وهذا الأمر كثير عند أهل الله؛ فإن مبنى طريقهم حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحب آل البيت الكرام والعلماء والأولياء؛ فلذلك يحصل لهم من جراء هذه المحبة تعلق وشوق بتلك المراقد والمقامات المطهرة، فكثرت زيارتهم وانتفاعهم بسبب ذلك.

وهذا الإمام العارف الشيخ أحمد بن زروق رحمه الله يروي بعض تلامذته أن سبب اختياره ألفاظ وظيفته المباركة هو أنه لما قدم لزيارته صلى الله عليه وآله وسلم، قال لصاحبيه سيدي يحيى البخاري وسيدي الزواوي؛ إذا طالت إقامتي بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) كلمة فارسية معناها الأستاذ أو العالم أو السيد وتقرأ: (خاجه)، انظر(قاموس: فارسي-عربي) صـ٢١٣،شاكر كسرائي ط.الدار العربية للموسوعات بيروت، الأولى ٢٠١٤م

(٢) الإمام الحكيم الترمذي: هو أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشر المحدث الزاهد الصوفي صاحب المصنفات المباركة ومنها: نوادر الأصول، الفروق، الأكياس المغترين، غور الأمور وغيرها توفي رحمه الله سنة ٣٢٤ هـ، انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ٢/ ٢٤٥ ط.هجر، الثانية ١٤١٣ هـ

(٣) الباقيات الصالحات في تعريب الرشحات صـ٢٢ ط.دار صادر(نسخة مصورة عن طبعة المطبعة الأميرية بمكة المكرمة ١٣٠٧هـ) ؛ نقله من الفارسية للعربية: الشيخ محمد مراد بن عبد الله القزاني

وألبسني حالا فتنحيا عني، فلما وصل الشيخ الضريح الكريم على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وسلم عليه فقال وعليك السلام يا أحمد، أدن مني واقرأ علي وظيفتك التي أولها وإلهكم إله واحد...... فقرأها عليه، فحذف منها ما شاء الله، وأثبت فيها ما نحن وأنتم عليه.. [1]"

---

(١) انظر: اللواقح القدسية شرح الوظيفة الزروقية للإمام العارف ابن عجيبة الحسني؛ ضمن مجموع: الجواهر العجيبة من تآليف سيدي أحمد بن عجيبة صـ١٦ ط.دار الكتب العلمية

- وقد فسر الإمام المتكلم المفسر فخر الدين الرازي في ذلك المعنى وفصَّل بما يشرح الصدور وينير العقول؛ فقال في كتابه المطالب العالية [١]: " إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان، قوي النفس، كامل الجوهر شديد التأثير، ووقف هناك ساعة، وتأثرت نفسه من تلك التربة. حصل لنفس هذا الزائر تعلق بتلك التربة، وقد عرفت: أن لنفس ذلك الميت، تعلق بتلك التربة [٢]، أيضًا، فحينئذ يحصل لنفس هذا الزائر، الحي، ولنفس ذلك الإنسان الميت: ملاقاة، بسبب اجتماعهما على تلك التربة. فصارت هاتان النفسان شبيهتان بمرآتين، صقيلتين، وضعتا بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى.

فكل ما حصل في نفس هذا الزائر الحي من المعارف البرهانية، والعلوم الكسبية، والأخلاق الفاضلة من الخضوع لله تعالى، والرضا بقضاء الله تعالى، ينعكس منه نور إلى روح ذلك الإنسان الميت، وكل ما حصل في نفس ذلك الإنسان من العلوم المشرفة والآثار القوية الكاملة فإنه ينعكس منها نور إلى روح هذا الزائر الحي.

وبهذا الطريق تصير تلك الزيارة سببا لحصول المنفعة الكبرى، والبهجة العظمى لروح الزائر، ولروح المزور.

فهذا هو السبب الأصلي في شرعية الزيارة، ولا يبعد أن يحصل فيها أسرار أخرى أدق وأغمض مما ذكرناه، وتمام العلم بحقائق الأشياء ليس إلا عند الله سبحانه وتعالى"ا.هـ[٣]

فظهر من كل ما سبق أن معاني"الإشارات" تدور ما بين المعنى الخفي أو الدقيق، وهي أيضًا يراد بها المعاني التي هي مقصودة لغيرها، وأخيرا تستخدم الإشارات على تلك المعاني الروحية التي تحصل في نفس الزائر حال زيارته مرقدا من المراقد الطاهرة المستحب زيارتها لتذكر الآخرة ولتجديد معاني المحبة والتبرك بآثار من سبقنا إلى الله زمانًا ومكانة.

---

(١) قال الشيخ محمد زاهد الكوثري وكيل المشيخة الإسلامية عن كتاب المطالب العالية إنه: من أمتع كتبه في علم أصول الدين" انظر مقالات الكوثري صـ٣٤٢ ط.التوفيقية

(٢) ذكر ذلك قبل هذا الكلام مباشرة، وسيأتي توثيق النقل بعد تمامه.

(٣) المطالب الإلهية من العلم الإلهي للإمام الفخر الرازي ٧/ ٢٧٤ وما بعدها، الأولى ١٩٨٧ م

(٤) الكشف:

من أشهر المصطلحات التي يستخدمها الصوفية مصطلح الكشف؛ وهو من الألفاظ التي ورد بها التنزيل قال تعالى: ﴿ فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق:٢٢] فتكلم المفسرون عن معاني الكشف في هذه الآية وأنها تكون لما كان خفيا محجوبا عنا من حقائق الغيب وأمور الآخرة. (١)

وفيما يلي بيان معناه لغة واصطلاحًا:

قال الإمام الجرجاني في التعريفات: " الكشف: في اللغة: رفع الحجاب.

وفي الاصطلاح: هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية وجودًا وشهودًا". (٢)

فشمل هذا التعريف نوعين من أنواع الكشف: أولهما انكشاف الأمور الحسية، والنوع الثاني: هو انكشاف الحقائق المعنوية.

فحصول الكشف يكون إما بالاطلاع على ما وراء حجاب الحس؛ كأن يرى أو يسمع وهو في مكان ما يحصل في مكان آخر، أو يكشف له ما يفكر فيه شخص ونحو ذلك من الأمور الممكنة عقلا، وتحدث لبعض الناس على سبيل خرق العادة.

وإما أن يكون بانكشاف الحقائق الغيبية، والاطلاع على المعارف اللدنية؛ كمعرفة بعض حِكم الخلق، ومعرفة حقيقة الدنيا، وبعض أحوال الآخرة.

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ /٣٠٩ ط.الدار التونسية للنشر: ١٩٨٤ م، وانظر أيضًا تفسير روح البيان لإسماعيل حقي ٤٢/١ ط.دار الفكر -بيروت

(٢) التعريفات للجرجاني صـ ١٨٤ ط.دار الكتب العلمية

هل الكشف شرط لصحة الطريق؟

يرى بعض الصوفية ذلك؛ ومن هؤلاء ممن نقل عنهم ذلك سيدي علي الخواص [١] يقول الشعراني نقلا عنه: " لا يبلغ أحد مقام الإخلاص في الأعمال حتى يصير يعرف ما وراء الجدار وينظر ما يفعله الناس في قعور بيوتهم في بلاد أَخَر فهناك يعرف يقينا بنور هذا الكشف أن عمله ليس هو له، إنما هو محل لبروزه من جوارحه؛ حيث كانت الأعراض لا تظهر إلا في جسم والأعمال أعراض فافهم "[٢]

لكن المنقول عن أكثرهم أن المعول عليه في الطريق هو ما يؤدي إلى اليقين والمعرفة بالله بإدراك الحقائق والمعارف التي توصل إلى الله دون فغيرها كما سيتضح في نهاية دراسة "الكشف" وقد ذكر الشيخ الأكبر بيانا لمعنى الكشف؛ وأنه ما يكون به اليقين في الوصول إلى العلم بالله؛ فقال كما في الفتوحات: " والطريق الموصلة إلى العلم بالله طريقان لا ثالث لهما ومن وحد الله من غير هذين الطريقين فهو مقلد في توحيده (الطريق الواحدة) طريق الكشف؛ وهو علم ضروري يحصل عند الكشف يجده الإنسان في نفسه، لا يقبل معه شبهة ولا يقدر على دفعه، ولا يعرف لذلك دليلا يستند إليه، سوى ما يجده في نفسه، إلا أن بعضهم قال يعطي الدليل والمدلول في كشفه؛ فإنه ما لا يعرف إلا بالدليل فلا بد أن يكشف له عن الدليل، وكان يقول بهذه المقالة صاحبنا أبو عبد الله بن الكتاني بمدينة فاس؛ سمعت ذلك منه، وأخبر عن حاله وصدق، وأخطأ في أن الأمر لا يكون إلا كذلك، فإن غيره يجد ذلك في نفسه ذوقا من غير أن يكشف له عن الدليل، وأما أن يحصل له عن تجل إلهي يحصل له وهم الرسل والأنبياء

---

(١) هو سيدي علي الخواص البرلسي من كبار الأولياء الذين التقاهم وأخذ عنهم العارف الشعراني،كان أميا ورغم ذلك فتح الله عليه من العلوم والمواهب ما نقله منه الشعراني الكثير، وقد كان رضي الله عنه يكنس المساجد وينظف أماكن قضاء الحاجة حسبة لله تعالى انظر ترجمته في الطبقات الكبرى ٢/ ١٣٠

(٢) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني صـ٩٧

وبعض الأولياء" [1]

هل يخطئ الكشف، وما معيار معرفة صحته ؟

نص بعضُ العلماء على ذلك؛ كالعلامة الأمير المالكي في حاشيته على شرح الجوهرة فقال:" نصوا على أن الكشف يقبل الغلط كالرجل الذي التبست عليه البصيرة بالبصر، فقال: رأيت ربي، وكفاك ما في الصحيح في حديث ((يوم يكشف عن ساق)) من تغليطهم في الكشف الأول حتى يقولوا: لست ربنا، وقد تعرض له الشيخ أوائل الفتوحات على أن الشعراني نقل عنه أوائل المبحث السادس أن لكل أحد غطاء ينكشف عند لقاء الله فيمكن أن هذه المسألة من باب المتكلم يدخل في عموم كلامه فما رددنا نحن عليه بل كلامه بكلامه نفعنا الله بتراب أقدامه"[2]

ونصوا كذلك على معيار صحة الكشف كما نقل عن سيدي أبي الحسن الشاذلي قال: " إذا عارض كشفُك الصحيح الكتابَ والسنةَ؛ فاعمل بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك أن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف" [3]

---

(١) الفتوحات ١/ ٣١٩

(٢) إتحاف المريد على شرح جوهرة التوحيد للأمير صـ١٤٦

(٣) إيقاظ الهمم شرح الحكم لابن عجيبة

عوائق الكشف:

ذكر بعض العلماء أن هناك عوائق تمنع من الكشف الحقيقي ومن ذلك:

قال في الإتحاف "واذا كان تقيد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات) التى تقرب الى الله (مانعا عن انكشاف جلية الحق فما ظنك في صرف الهم إلى شهوات الدنيا ولذاتها وعلائقها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقى) والحاصل أن تعلق القلب بغير الله ولو كان في الطاعات الموصلة اليه مانع عن حصول انكشاف الحقائق كما هي لعدم التفاته اليه" (١)

إذن الكشف الذي يحدث لبعض الأولياء هو من الإشراقات التي يتجلى الله بها عليهم؛ لما علمه من أحوالهم وصدقهم؛ وأما الانشغال بغير الله والاهتمام بما سواه فإنه من العوائق عن انكشاف الحقائق.

حصول الكشف لكبار الصحابة رضي الله عنهم، ودلالة ذلك:

ورد حصول الكشف بمعنى الاطلاع على ما وراء حجاب الحس؛ وانكشاف بعض المغيبات، عن عدد من كبار الصحابة رضي الله عنهم؛ ومن ذلك ما ذكره الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين؛ فقال رحمه الله:" وجعل ذلك من جملة العلم اللدني الذي جاء في قول الله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] بل اللدني الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج؛ فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر، وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضًا خارج عن الحصر، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته: إنما هما أخواك وأختاك(٢)، وكانت زوجته حاملا فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت، وقال عمر رضي الله عنه في أثناء خطبته يا سارية الجبل الجبل؛ إذ

---

(١) إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٣٠ ط.مؤسسة التاريخ العربي بيروت -١٤١٤هـ

(٢) رواه مالك في الموطأ كتاب الأقضية، باب ما لا يجوز من النحل حديث ٤٠ ط.دار إحياء التراث العربي ت:محمد فؤاد عبد الباقي

انكشف له أن العدو قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة[١]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريقي فنظرت إليها شزرا وتأملت محاسنها؛ فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت: يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين النظر [٢] لتتوبن أو لأعزرنك؛ فقلت: أوحيٌ بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: لا، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة "[٣] ا.هـ

إذن الإمام الغزالي يرى أن مستند حصول الكشف هو أنه يندرج تحت مفهوم العلم اللدني؛ الذي أخبر ربنا أنه يقع لبعض عباده؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] غير أن ذلك العلم اللدني يتجلى في صور مختلفة كما نقل الإمام الغزالي عما حدث وثبت حصوله لبعض الصحابة الكرام رضي الله عنهم

وحتى يتضح معنى الكشف وأن حصوله لبعض الصالحين الأولياء لم يكن محل منازعة من العلماء -كما نرى من بعض الجهال- فنذكر تفصيل ومستند ما مر نقله عن الإمام الغزالي وغيره من العلماء وذلك على النحو التالي:

١ – اطلاع أبي بكر الصديق رضي الله عنه على حمل زوجته:

فأما ما حدث لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه فهو ما رواه الإمام مالك في الموطأ بسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وكذلك رواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى بسنده عن عائشة رضي الله عنها؛ وكلاهما بلفظ " إنما هي أسماء فمن الأخرى؟ قال: ذو بطن بنت

---

(١) دلائل النبوة للإمام البيهقي ٦/ ٣٧٠ ط.دار الكتب العلمية.

(٢) قوله:زنا العينين النظر هذا جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٥

خارجة، أراها جارية " [١]

– وقد جاء من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن ا لسيدة عائشة كما في الطبقات الكبرى بلفظ "قد ألقي في روعي أنها جارية"[٢]

فهذه الرواية تفسر ما حصل للصديق أنه من باب الكشف الذي يحصل لبعض عباد الله؛ وهو ما ذكره الإمام ابن رجب الحنبلي وهو يفسر معنى الغيب، وإمكان الاطلاع على بعضه فقال: "وأما العلم بما في الأرحام، فينفرد الله تعالى بعلمه، قبل أن يأمر ملك الأرحام بتخليقه وكتابته، ثم بعد ذلك قد يُطلع الله عليه من يشاء من خلقه،كما أطلع عليه ملك الأرحام؛ فإن كان من الرسل فإنه يطلع عليه علما يقينا، وإن كان من غيرهم من الصديقين والصالحين، فقد يطلعه الله تعالى عليه ظاهرا؛ كما روى الزهري، عن عروة،عن عائشة، أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال لها – في كلام ذكره –: إنما هما أخواك وأختاك. قالت: فقلت هذا أخواي، فمن أختاي ؟ قال: ذو بطن ابنة خارجة، فإني أظنها جارية، ورواه هشام، عن أبيه، عن عائشة، أنها قالت له عند ذلك: إنما هي أسماء ؟ فقال: وذات بطن بنت خارجة، أظنها جارية.

ورواه هشام، عن أبيه: قد ألقي في روعي، أنها جارية، فاستوصي بها خيرا. فولدت أم كلثوم "[٣]

ولذلك فما حصل للصديق رضي الله عنه من كشف لا يتعارض بحسب ما ذكره ابن رجب الحنبلي مع ما تقرر من حجب الغيب عن عموم الخلق.

٢ – انكشاف حال الجيش لعمر رضي الله عنه:

أما الحادثة الثانية فهي ما حصل مع سيدنا عمر رضي الله عنه وقد أورد ذلك الخبر الإمام ابن

---

(١) سبق تخريجه في الموطأ، وأما رواية البيهقي فهي في السنن الكبرى كتاب الهبات، باب شرط القبض في الهبة، الحديث رقم ١١٩٨٤ ط.دار الكتب العلمية

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٩٥/٣ ط.دار صادر

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب الحنبلي ٩ /٢٧١ ط.دار الحرمين

كثير في البداية والنهاية بسنده عن نافع عن ابن عمر: " أن عمر وجه جيشا ورأس عليهم رجلا يقال له سارية، قال: فبينما عمر يخطب فجعل ينادي: يا ساري الجبل يا ساري الجبل ثلاثا، ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر: فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا! فبينما نحن كذلك؛ إذ سمعنا مناديا: يا سارية الجبل ثلاثا، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك"(١)

قال الإمام البيهقي في كتاب الاعتقاد بعد ذكره هذه الحكاية: وهذا الحديث أصل في جواز كرامات الأولياء(٢)، وهو مما يدخل كذلك في مفهوم حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم مُحدَّثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب"(٣)

قال الشيخ ابن علان في تفسيره لهذا الحديث: " واختلف في تأويله فقال الأكثرون: هو الملهم. وقالوا: المحدث الرجل الصادق الظن، وهو من ألقي في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدثه غيره، وبهذا جزم أبو أحمد العسكري. وقيل: من يجري الصواب على لسانه من غير قصد. وقيل: مكلم بكلمة الملائكة بغير نبوة، وهذا ورد في حديث أبي سعيد مرفوعاً ولفظه "قيل: يا رسول الله كيف يحدث؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه"(٤)

إذن ماحصل مع سيدنا عمر رضي الله عنه هو من باب انكشاف الغيب وهو ما يوافق ما صرَّحت به الأحاديث من وجود مُحدَّثين في الأمة الإسلامية؛ وقد عارض بعض المتشددين حصول ذلك الكشف للغيب لسيدنا عمر قائلا: " كل الروايات ليس فيها تصريح بالكشف لسيدنا عمر،وقال: فاستدلال بعض المتصوفة بذلك على ما يزعمونه من الكشف للأولياء

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٣١ ط.دار الفكر،وقال معقبا عليه: وهذا إسناد جيد حسن.

(٢) الاعتقاد للإمام البيهقي ١/ ٣١٤ ط.دار الآفاق الجديدة

(٣) صحيح البخاري كتاب حديث الأنبياء،باب حديث الغار، الحديث رقم ٣٤٦٩.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٧/ ٣١٦ ط.دار المعرفة

وعلى إمكان اطلاعهم على ما في القلوب من أبطل الباطل "(١)

ولكن هذا الزعم لا تؤيده جميع الروايات الواردة حيث جاء عند الإمام أبي نعيم الأصفهاني في دلائل النبوة: ما هو أكثر تفصيلا وبيانا لحصول ذلك الكشف من غير حاجة لتأويل ولا غيره فقد جاء في رواية أبي نعيم ما نصه: " بينا عمر بن الخطاب على المنبر يخطب يوم الجمعة إذ ترك الخطبة فقال: يا سارية الجبل مرتين أو ثلاثا ثم أقبل على خطبته فقال أولئك النظراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد جن إنه لمجنون هو في خطبته إذ قال: يا سارية الجبل فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن إليه فقال: أشد ما ألومهم عليك أنك تجعل على نفسك لهم مقالًا بينا أنت تخطب إذ أنت تصيح: يا سارية الجبل أي شيء هذا؟ قال: إني والله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل، فلبثوا إلى أن جاء الرسول بكتابه أن القوم لحقونا يوم الجمعة فقتلناهم من حين صلينا الصبح إلى حين حضرت الجمعة ودار حاجب الشمس فسمعنا مناديًا ينادي: يا سارية الجبل مرتين فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله وقتلهم فقال أولئك الذين طعنوا عليه: دعوا هذا الرجل؛ فإنه مصنوع له"(٢)

فقول سيدنا عمر:" فوالله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون إلخ.". هذا تصريح بالانكشاف وأن الأمر لم يكن مجرد مصادفة أو توهمًا؛ فلا مجال للتشكيك بعد كل هذه الأدلة.

---

(١) وهو ناصر الدين الألباني في كتابه المسمى السلسلة الصحيحة ٣/ ١٠١ ط.مكتبة المعارف الرياض

(٢) دلائل النبوة للحافظ أبي نعيم ١/ ٥٨٠ ط.دار النفائس.

٣- كشف سيدنا عثمان رضي الله عنه حال أحد الصحابة:

وأما ما حصل مع سيدنا عثمان ذي النورين، فهو أيضًا يدخل تحت باب الكشف من جهة أن سيدنا عثمان اطلع على ما فعله ذلك الصحابي ولم يكن معه في ذلك الوقت؛ وقد أشار كلام سيدنا عثمان أثناء جوابه إلى حديث ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو: " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله (١)"،وقد فسر الإمام ابن الأثير ذلك الحديث فقال:" اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله " يقال بمعنيين أحدهما ما دل ظاهر هذا الحديث عليه، وهو ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات(٢)"

وقد ذكر الإمام تاج الدين السبكي كذلك قصة سيدنا عثمان؛ وفسرها على وفق قواعد العلماء فقال: " قلت إنما أظهر عثمان هذا تأديبًا لهذا الرجل وزجرًا له عن سوء صنيعه؛ واعلم أن المرء إذا صفا قلبه صار ينظر بنور الله؛ فلا يقع بصره على كدر أوصاف إلا عرفه، ثم تختلف المقامات، فمنهم من يعرف أن هناك كدرا ولا يدرى ما أصله، ومنهم من يكون أعلى من هذا المقام؛ فيدرى أصله كما اتفق لعثمان رضى الله عنه؛ فإن تأمل الرجل للمرأة أورثه كدرا، فأبصره عثمان وفهم سببه، وهنا دقيقة وهو أن كل معصية لها كدر وتورث نكتة سوداء في القلب بقدرها فتكون رينا على ما قال تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] إلى أن يستحكم والعياذ بالله فيظلم القلب وتغلق أبواب النور فيطبع عليه فلا يبقى سبيل إلى توبته على ما قال تعالى ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨٧] وقد أوضحنا هذا في كتاب:" رفع الحوبة بوضع التوبة" فى باب أن المطبوع لا توبة له.

إذا عرفت هذا؛ فالصغيرة من المعاصي تورث كدرًا صغيرًا بقدرها قريب المحو بالاستغفار

(١) رواه الترمذي في سننه عن أبي سعيد، كتاب التفسير،باب ومن سورة الحجر، ورواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة وقال الهيثمي في مجمع الزوائد إسناده حسن، وللسيد أحمد بن الصديق الغماري بحث مطول في تخريج هذا الحديث في كتابه المداوي لعلل المناوي،ورد على كل من توهم كونه من الموضوعات انظر المداوي ١/ ١٧٦ للشيخ أحمد بن الصديق الغماري ط.دار الكتبي

(٢) انظر النهاية في غريب الحديث و الأثر ٣/ ٤٢٨ ط.المكتبة العلية، بيروت

وغيره من المكفرات ولا يدركه إلا ذو بصر حاد كعثمان رضى الله عنه، حيث أدرك هذا الكدر اليسير فإن تأمل المرأة من أيسر الذنوب، وأدركه عثمان وعرف أصله، وهذا مقام عال يخضع له كثير من المقامات، وإذا انضم إلى الصغيرة صغيرةٌ أخرى ازداد الكدر وإذا تكاثرت الذنوب بحيث وصلت والعياذ بالله إلى ما وصفناه من ظلام القلوب؛ صار بحيث يشاهده كلُ ذى بصر، فمن رأى متضمخا بالمعاصى قد أظلم قلبه، ولم يتفرس فيه ذلك؛ فليعلم أنه إنما لم يبصره لما عنده أيضًا من العمى المانع للإبصار، وإلا فلو كان بصيرا لأبصر هذا الظلام الداجى فبقدر بصره يبصر، فافهم ما نتحفك به [١]"

فهذا الكلام النفيس من الإمام تاج الدين السبكي يكشف لنا عن مقام سيدنا عثمان رضي الله عنه، ومن ناحية أخرى يتكلم عن حقيقة الكشف ومراتبه!

ولما كان كلام الإمام الغزالي في الإحياء قد تناول ثلاثة فقط من الخلفاء الراشدين؛ لذا فقد أضاف الإمام محمد مرتضى الزبيدي ما يعد إكمالا لهذا النسق المبارك؛ بذكر ما حصل كذلك مع رابع الخلفاء الراشدين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه من كرامة الكشف فقال:"روى الحافظ ابو الفتح اليعمري بسنده الي زيد بن وهب قال جاء وفد من البصرة فيهم رأس من الخوارج يقال له جعدة بن بعجة فخطب وحمد الله ثم قال: يا علي اتق الله فإنك ميتٌ، فقال علي: بل مقتول قتلًا؛ تصاب هذه فتخضب هذه؛ عهد معهود، و قضاء مقضي، و قد خاب من افترى[٢]، و كان كما ذكر! " [١]

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ٢/ ٣٢٨ ط. هجر

(٢) رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة؛ أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، حديث رقم ٩٠٨،ط.مؤسسة الرسالة بيروت.، ووقد جاء في بعض الروايات الأخرى أن ذلك كان من إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى؛ كما في فضائل الصحابة للإمام أحمد (٥٦٦/٢ ط.مؤسسة الرسالة) بسنده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا علي، تدري من أشقى الأولين؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «عاقر الناقة»، قال: " تدري من شر، وقال مرة: من أشقى الآخرين؟ " قلت:

وقد نقل عن سيدنا علي بن ابي طالب كذلك عدد من الأخبار التي تفيد إخباره عن بعض الأمور التي لا يطلع عليها إلا بكشف؛ ومن ذلك:

١ - ما نقله ابن الأثير وغيره عن أحداث قتال سيدنا علي وأصحابه للخوارج؛ فقال في الكامل: " ثم إن الخوارج قصدوا جسر النهر، وكانوا غربَه، فقال لعلي أصحابه: إنهم قد عبروا النهر. فقال: لن يعبروا! فأرسلوا طليعة، فعاد وأخبرهم أنهم عبروا النهر، وكان بينهم وبينه عطفة من النهر، فلخوف الطليعة منهم لم يقربهم، فعاد فقال: إنهم قد عبروا النهر. فقال علي: والله ما عبروه، وإن مصارعهم لدون الجسر، ووالله لا يقتل منكم عشرة، ولا يسلم منهم عشرة! وتقدم علي إليهم فرآهم عند الجسر لم يعبروه، وكان الناس قد شكُّوا في قوله، وارتاب به بعضهم، فلما رأوا الخوارج لم يعبروا كبروا وأخبروا عليا بحالهم، فقال: والله ما كذبت ولا كذبت!"(٢)

٢ - وجاء أيضًا في كتاب الإصابة للحافظ ابن حجر العسقلاني في ترجمة (كميل بن زياد) أنه عندما أتى به الحجاج ليقتله قال له كميل: ": إنه ما بقي من عمري إلا القليل، فاقض ما أنت قاض، فإن الموعد اللهَّ، وقد أخبرني أمير المؤمنين عليّ أنك قاتلي".(٣)

فهذا الأخبار عن سيدنا علي تدخل في باب الكشف أيضًا؛ وهي من قبيل الاطلاع على بعض المغيبات.

والغرض من تتبع هذه الأخبار عن الصحابة -رضي الله عنهم -إثبات أن هذا النوع من الكشف ثابت لمثل هؤلاء الأكابر، وليس الأمر -كما يدعي بعض المنكرين لحصول الكشف- أن ذلك من قبيل الاتصال بالجان ونحو ذلك.

الله ورسوله أعلم، قال: «قاتلك»

(١) إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٥٩

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ط.دار الكتاب العربي بيروت الأولى:١٩٩٧ م، وانظر أيضًا السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ١٨٥ ط.دار الفكر

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ٥/ ٤٨٦ ط.دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٥هـ

وذلك لا ينفي حصولَ الكشف والإخبار عن بعض المغيبات لغير عباد الله الصالحين، بل لبعض الكفار، وهو ما يقتضي التذكير بالقاعدة التي نستصحبها في كل هذه الإشراقات؛ أن حصول مثل هذه الأمور ليس دليلًا في ذاته على رضا الله عزوجل أو على مكانة معينة لمن ظهرت على يديه، بل إن المعول عليه في كل ذلك موافقة حاله للشرع الشريف ظاهرًا وباطنًا.

ولذلك نبه السادة الصوفية على ذلك، وميزوا في خصوص مسألة الكشف بين ما هو مختص بالأولياء من أنواع المكاشفات والمعارف وبين ما لا يختص بهم.

وهنا كلام مهم قاله الإمام السرهندي في المكتوبات بخصوص هذا المعنى؛ يلخص كل ما سبق في مسألة الكشف؛ قال رضي الله عنه:" خوارق العادات على نوعين: النّوع الأوّل: العلوم والمعارف الإلهيّة الّتي تتعلّق بذات الواجب جلّ وعلا وصفاته وأفعاله وراء طور نظر العقل وخلاف المتعارف المعتاد وجعل الحقّ سبحانه عباده الخاصّة ممتازين بها.

والنّوع الثّاني: كشف صور المخلوقات والإخبار عن المغيّبات الّتي تتعلّق بالعالم. والنّوع الأوّل مخصوص بأهل الحقّ وأرباب المعرفة والنّوع الثّاني شامل للمحقّ والمبطل فإنّه حاصل لأهل الاستدراج أيضًا والنّوع الأوّل له شرافة واعتبار عند الحقّ جلّ وعلا لكونه مخصوصا بأوليائه وعدم مشاركة أعدائه فيه.

والنّوع الثّاني معتبر عند عوامّ الخلائق ومعزّز ومكرّم عند أنظارهم حتّى لو ظهر ذلك من أهل الاستدراج يكادون يعبدونه من جهلهم ويطيعونه وينقادون له فيما يأمرهم به من رطب ويابس وينهاهم بل المحجوبون لا يعدّون النّوع الأوّل من الخوارق. والكرامات والخوارق منحصرة عندهم في النّوع الثّاني والكرامات مخصوصة عندهم بكشف صور المخلوقات والأخبار عن المغيّبات ما أبعدهم عن العقل أيّ شرافة وأيّ كرامة في علم يتعلّق بأحوال المخلوقات حاضرة كانت أو غائبة بل الأليق والأنسب أن يبدّل مثل هذا العلم جهلا ليحصل نسيان المخلوقات وأحوالها؛ واللّائق بالشّرافة والكرامة هو معرفة الحقّ تعالى وتقدّس وهي

المستحقّة للإعزاز والاحترام." [١]

إذن يفيد هذا الكلام النفيس أن المدار في الطريق وما له الصدارة بالاهتمام هو انكشاف المعارف الإلهية التي هي غاية الطريق؛ إذ المعرفة بالله هي غاية الطريق على نحو ما قال تعالى في كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] قال المفسرون إن المقصود من العبادة هنا المعرفة [٢]؛ ومن ثم قال العارف ابن عجيبة:" فالله تعالى إنما أراد من عباده معرفته؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] قال ابن عباس أي: ليعرفون، ومعرفته إنما تكون بتخالف الآثار، وتنقلات الأطوار، وذكر غيرُه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] أن إحدى الجنتين معرفة الله؛ وهي جنة المعارف، والأخرى جنة الزخارف، ومن دخل المعارف، لم يشتق إلى شيء سواها، وقال مالك ابن دينار خرج الناس من الدنيا لم يذوقوا أطيب شيء فيها قيل وما ذاك قال معرفة الله تعالى"[٣]

والمعول عليه في الطريق هو المعرفة؛ فالمعرفة هي ثمرة الطريق الكبرى؛ وللتأكيد على ذلك المعنى نورد هنا كلاما للإمام القشيري رضي الله عنه أحد أكابر الصوفية في رسالته؛ إذ يقول: " اليقين هو المكاشفة، والمكاشفة عَلَى ثلاثة أوجه: مكاشفة بالإخبار ومكاشفة بإظهار القدرة، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان.

واعلم أَن المكاشفة فِي كلامهم عبارة عن ظهور الشيء للقلب باستيلاء ذكره من غَيْر بقاء للريب، وربما أرادوا بالمكاشفة ما يقرب مِمَّا يراه الرائي بين اليقظة والنوم، وكثيرا مَا يعبر هَؤُلاءِ عَن هذه الحالة بالثبات، سمعت الإمام أبا بَكْر بْن فورك يقول سألت أبا عُثْمَان المغربي، فَقُلْتُ مَا هَذَا الَّذِي تقول؟ قَالَ الأشخاص أراهم كَذَا وكذا، فَقُلْتُ تراهم معاينة أَوْ مكاشفة؟ قال: مكاشفة، وقال عامر بْن عَبْد قَيْس: لو كشف الغطاء مَا ازددت يقينا، وقيل: اليقين رؤية العيان

(١) المكتوبات الربانية للإمام أحمد الفاروقي السرهندي ١/٤٤٥ بتعريب محمد مراد القزاني ط.مكتبة النيل.

(٢) انظر تفسير البغوي ٤/٢٨٨ ط.إحياء التراث العربي،الأولى ١٤٢٠ هـ

(٣) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة ص٤٨٨ ط.الفجر الجديد، ٢٠١٨ م

بقوة الإيمان، وقيل: اليقين زوال المعارضات، وقال الجنيد: اليقين ارتفاع الرَّيب في مشهد الغيب"[1]

تتمة في مقاصد "الكشف" في الطريق إلى الله

بان لنا كيف أن السادة الصوفية قد قرروا أن حصول الكشف كأحد أنواع الإشراقات التي تحصل لبعض السالكين في الطريق هي من المنح الإلهية التي لا تثبت فضيلة بذاتها؛ وبالتالي فقد رأى الصوفية أن هذا الكشف ليس مقصودا في ذاته، وعندما يحصل لبعض السالكين أو بعض العارفين فإنما ينبغي أن يعتقد فيه أنه من قبيل النعم التي يجب أن تُصَرَّف فيما يرضي الله لا في معصيته؛ كما قال سيدي ابن عطاء الله السكندري في حكمه: " ما أرادت همةُ سالكٍ أن تقفَ عند ما كشف لها إلا ونادته هواتفُ الحقيقةِ الذي تطلبُ أمامَك، ولا تَبَرَّجَتْ ظواهرُ المُكَوِّنات إلا ونادته حقائقُها: ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾"[2].

فالمريد لا ينبغي له أن يلتفت عن غايته ومقصده في سيره إلى الله؛ فمهما ظهرت له بعض الإشراقات ومنها الكشف والاطلاع على المغيبات فعليه أن يعقد عزمه على الاستمرار في سيره حتى يلقى ربه.

وقال كذلك: " ربما أطلعَك على غيبِ ملكوتِه، وحجبَ عنك الاستشرافَ على أسرارِ العباد"؛ قال العارف ابن عجيبة في شرحه على الحكم:" ربما كشف الله عنك الحجاب وترقيت إلى الدخول مع الأحباب، فأخرجك من سجن رؤية الأكوان إلى شهود المُكَوِّن، ومن علم الأشباح إلى عالم الأرواح؛ فأطلعك على غيب ملكوته فأبصرت الكون كله نوراً فائضاً من بحر الجَبروت [3]، فألحقته بأصله وفنيت عن شهود الملك الذي هو عالم الفَرق [1] بشهود

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٩

(٢) انظر: إيقاظ الهمم بشرح الحكم لابن عجيبة صـ٦٩

(٣) الجبروت: ما يدرك بالبصيرة والمعرفة، وهو يقابل كلا من عالم الملك الذي يدرك بالحس، وعالم الملكوت الذي يدرك بالعلم والفهم:انظر إيقاظ الهمم صـ٢٨٩

الملكوت [٢]، الذي هو عالم الجمع؛ الذي قال فيه ابن البَنَّاء [٣]:

مهـــما تعـــديتَ عـــن الأجســـام أبصـــرتَ نـــورَ الحـــقِّ ذا ابتســـام

وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد رحمة بك؛ لأنك قد تحجب بذلك عن شهود الملكوت فلا عبرة عند المحققين بمكاشفة أسرار العباد، فقد تكون عقوبة في حق صاحبها؛ كما يأتي وقد يكون ذلك لمن لا استقامة له أصلا؛ كالكهان والسحرة وغيرهم، والغالب أن أهل شهود الملكوت يحجبون عن مكاشفة أسرار العباد؛ لاشتغالهم بما هو أعظم وأحظى عند الله، وإنما تكون هذه المكاشفات عند العُبَّاد والزهاد وأهل الرياضيات والمجاهدات، ولا تنكر أن تكون عند العارفين فقد تجتمع لهم المكاشفة، والكشف: أي مكاشفة أسرار العباد، وكشف الحجاب عن الفؤاد، إلا أن الغالب هو استغراق الروح في شهود نور الملكوت، دون الاستشراف إلى أسرار العباد التي هي من عالم الملك"[٤]

ثم أشار بعد ذلك إلى أن حصول المكاشفات مع عدم التخلق بالرحمة هو باب فتنة وشر على صاحبه فقال: "(من اطَّلع على أسرارِ العبادِ ولم يتخلق بالرحمةِ الإلهيةِ كان اطلاعه فتنةً عليه، وسبباً لجر الوبال إليه) قلت: الاطلاع على أسرار العباد قبل التمكن في الشهود والتخلق بأخلاق الملك المعبود فتنة عظيمة وبلية ومصيبة؛ وذلك لأنه قبل التمكين في المعرفة قد يشتغل بذلك قلبُه ويتشوش خاطُره ولبُه فيفتره عن الشهود ويفتنه عن الرسوخ في معرفة الملك الودود، وأيضًا ما دامت النفس حية ولم يقع الفناء عنها قد يعتقد بذلك المزية على الناس

---

(١) قال القشيري في رسالته ١/ ١٦٦: " الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك، ومعناه أن ما يكون كسبا للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق"

(٢) الملكوت هو ما يدرك بالعلم والفهم ومنه عوالم الملائكة والجن والجنة والنار وغيرها

(٣) هو ابن البنا السرقُسطي صاحب المباحث للأصلية عن جملة الطريقة الصوفية؛ التي شرحها الشيخ زروق ؛ المتوفى بفاس في الربع الأول من القرن التاسع الهجري.

(٤) إيقاظ الهمم صـ٢٩٠

فيدخله الكبر والعجب وهما أصل المعاصي فكان اطلاعه حينئذ على أسرار العباد سبباً في جر هذا الوبال أي العقوبة إليه وهو التكبر على الناس واعتقاد المزية عليهم وهو سبب البعد عن الله بخلاف ما إذا تمكن في معرفة الحق وتخلق بأخلاقه وتحقق بمعاني صفاته وأسمائه فإنه يكون على خلق الرحمن فإذا اطلع على معاصي العباد ومساويهم رحمهم وسترهم وحلم عليهم"(١)

فبان من كل ما استعرضناه من كلام القوم معنى الكشف، وعلامة صحته، وأنواعه، ومقاصده في الطريق إلى الله.

---

(١) إيقاظ الهمم صـ٢٩١

(٥) الإلهام:

من أنواع الإشراقات التي اعتنى بها السادة الصوفية أيما اعتناء الإلهام؛ فبينوا حقيقته وأثره، وكيف يُعرف صحيحه من فاسده، والإلهام كذلك من الألفاظ التي ورد بها التنزيل؛ كما في قوله تعالى:﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]؛ قال المفسرون: الإلهام هنا إما يراد منه التعريف؛ لأنه الله عرفنا طريق الخير والشر [١] وإما أن يكون المراد توفيق الله عبده لطاعته، أو عدم توفيقه بخذلانه [٢].

وأما معناه لغة واصطلاحًا:

فالإلهام لغة:

قال ابن فارس: " اللام والهاء والميم أصل صحيح يدل على ابتلاع شيء، ثم يقاس عليه. تقول العرب: التهم الشيء: التقمه، ومن هذا الباب الإلهام، كأنه شيء ألقي في الروع فالتهمه"[٣]

وفي الاصطلاح:

"ما يُلقَى في الرَّوع بطريق الفيض، وقيل: الإلهام: ما وقع في القلب من علم، وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة"[٤]

– ويرى الإمام القشيري أن الإلهام هو نوع من الخواطر يكون مصدره الملَك، وكأن الإلقاء الذي يكون في القلب من قِبل المَلَك هو الإلهام، وهو يقابل الوسواس الذي يكون من قِبل الشيطان، والفرق بينهما أن الأول يدعو إلى ما دعا له الشرع وشهد له، والثاني يدعو إلى

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٧٥/٢٠

(٢) انظر تفسير الرازي ١٧ /٤٧

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٢١٧،ط.دار الفكر

(٤) التعريفات للجرجاني ص٣٤

ارتكاب المعاصي[1]

-وقد جاءت السنة بما يفيد وقوع الإلقاء من الملك في مقابلة إلقاء الشيطان؛ ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن للشيطان لَمّة بابن آدم وللملَك لَمّة، فأما لمة الشيطان؛ فإيعاد بالشر،وتكذيب بالحق، وأما لمة الملَك؛ فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله؛ فليحمد الله، ومن وجد الأخرى؛ فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] "[2]

وقد شرح معاني هذا الحديث شرحا نفيسا؛ وأطال في بيانه الإمام أبو طالب المكي صاحب قوت القلوب؛ ومما قاله في بيان الإلهام الواقع بواسطة الملك:" أصول معاني الخير وأواسطها إلهامُ الملَك والإلقاء في الروح، وقوادح الأنوار في كتب الإيمان وفروعها الآخرة، والعلم مما أمر به أو ندب إليه والمباح.

وأصول معاني الشر أضدادها أواسطها النفس والعدو وأسبابها الشهوة والهوى يظهرن عن الجهل ويوقعن الحجاب ويصدرن إلى عقاب.

فإذا أراد الله تعالى إظهار خير من خزانة الروح حركها فسطعت نورا في القلب فأثرت فينظر الملك إلى القلب فيرى ما أحدث الله تعالى فيه فيظهر مكانه فيتمكن على مثال فعل العدو في خزانة الشر، وهي النفس، والملك مجبول على الهداية مطبوع على حب الطاعة كما أن العدو مجبول على الغواية مطبوع على حب المعصية فيلقي الملك الإلهام وهو خُطوره على القلب بقدح خواطره يأمر بتقييد ذلك ويحسنه له ويحثه عليه، وهذا هو إلهام التقوى والرشد......ثم قال:

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ١/١٩٧

(٢) رواه الترمذي في سننه،كتاب التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة البقرة، الحديث رقم:٣٢٥٦، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ورواه كذلك النسائي في الكبرى؛كتاب التفسير باب سورة البقرة، الحديث رقم: ١٠٩٨٥،وابن حبان في صحيحه باب الأدعية؛ الحديث رقم:٩٩٧

" فأما خاطر الملك فلا يرد إلا بخير صريح، وبر محض على كل حال إذا ورد؛ لأن الخداع والحيلة ليس من وصف الملائكة، ولكن قد تنقطع خواطر الملك من القلب إذا اشتدت قسوته ودامت معصيته من المتعبدين، فيخلى بين القلب وبين نوازع العدو اللعين، ويتخلى العدو بهوى النفس؛ فيستحوذ ويقترن بالعبد، نعوذ بالله من إيعاده وعدم خيره وإرشاده، ولايزال العبد مع إلهام الملك في مقام الإيمان، فإذا رفع إلى مقام اليقين تولاه الله تعالى بواسطة أنوار الروح، فكان الروح مكان إلقاء الحق حتى يرد عليه من الله تعالى بواسطة أنوار الروح، من السرائر ما لا يطلع عليه الملك ولا يكون ذلك حتى تفنى خواطر النفس بالهوى ولا تبقى منها باقية."(١)

فما قرره أبو طالب المكي هنا يوضح أهمية الاستفادة من الإلهام في الإسراع لعمل الخير وتثبيت المريد في الطريق إلى الله؛ مما يقتضي من المريد حرصا على تطهير باطنه، وصقله بالذكر والفكر إبعادا لخواطر النفس ووساوس الشيطان.

هل يطلق على الإلهام لفظ الوحي ؟

مما يحسن التنبيه عليه أن لفظ "الوحي" يطلق ويراد به "الإلهام" ويكون حينئذ لغير الأنبياء؛ كما في قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص: ٧] فأم موسى عليه السلام لم تكن نبية اتفاقا (٢)؛ فكان ما حصل معها نوعا من الإلهام.

قال ابن عجيبة: " اعلم أن الوحي على أربعة أقسام: وحي منام، ووحي إلهام، ووحي

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي ١/ ٢١٥ وما بعدها ط.دار الكتب العلمية، الثانية ٢٠٠٥م

(٢) للإجماع على عدم نبوة النساء؛ قال تعالى { وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ} [يوسف:١٠٩] قال صاحب بدء الأمالي: وما كانت نبيا قط أنثى... ولا عبد وشخص ذو فعال [انظر:حاشية الأمير على شرح جوهرة التوحيد صـ٢٣،ط.العلمية، ٢٠٠١م]

أحكام، ووحي إعلام، وشاركت الأولياءُ الأنبياءَ في ثلاثة: الإلهام والمنام والإعلام، إن كان بغير الملَك، ومعنى وحي إعلام: هو إطلاع الله النبيّ على أمور مغيبة، فإن كان بواسطة الملك، فهو مختص بالأنبياء، كما اختصت بوحي الأحكام، وأما إن كان بالإلهام أو بالمنام أو بالفهم عن الله، فيكون أيضًا للأولياء؛ إذ الروح إذا تصفت وتطهرت من دنس الحس أطلعها الله على غيبه في الجملة، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا علاّم الغيوب. والله أعلم"(١)

فالإلهام يكون للمريد معونة له على سلوكه، وحثا له على الإسراع إلى مرضات ربه.

(١) البحر المديد ١/ ٣٥٣

(٦) الفتح:

من المصطلحات التي يستعملها -كثيرا- أسيادنا الصوفية مصطلح "الفتح" فلا يكاد كتاب من كتب السادة الصوفية يخلو من هذا المصطلح أو التعبير، ولقد استشف السادة الصوفية ذلك المصطلح من كتاب الله عز وجل؛ ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١] فالفتح في هذه الآية الكريمة له دلالات كلها تدل عليها اللغة والسياق القرآني؛ ومن ذلك ما قال الإمام القشيري رحمه الله في تفسيره لهذه الآية؛ حيث قال: " أكرمناك بفتح ما انغلق على قلب من هو غيرك- من قبلك- بتفصيل شرائع الإسلام، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه"[١]

وقريب من ذلك أيضًا ما قاله بعضهم في تفسير قول الله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١] قال صاحب روح البيان: " الفتح هو: الفتح المطلق الذي لا فتح وراءه وهو فتح باب الحضرة الالهية الاحدية والكشف الذاتي..."[٢]

ومنهم من بسط الكلام عن أنواع الفتح التي جاءت في آيات القرآن الكريم، فعن الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخانوي النقشبندي أنه قال: "(الفتح القريب): هو ما انفتح على العبد من مقام القلب و ظهور صفاته و كمالاته عند قطع منازل النفس، و هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نصر من الله و فتحٌ قريب﴾ [الصف: ١٣].

(الفتح المبين): هو ما انفتح على العبد من مقام الولاية وتجليات أنوار الأسماء الإلهية المعينة لصفات القلب و كمالاته و هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] يعني من الصفات النفسية و القالبية"[٣]

---

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٣١٧

(٢) روح البيان ١٠ / ٥٢٩ للشيخ إسماعيل الحقي الخلوتي ط.دار الفكر -بيروت

(٣) جامع الأصول في الأولياء صـ٦٥ للشيخ الكمشخانوي النقشبندي ط.مكتبة الكليات الأزهرية

وحتى يتضح مفهوم الفتح كما يستخدمه السادة الصوفية فنذهب لتعريفاتهم وبيان أقسامه وفق نسقهم المعرفي على النحو التالي:

- يقول الإمام الشعراني:"ومعنى الفتح في كلام هؤلاء القوم؛ حيث أطلقوه: كشف حجاب النفس، أو القلب، أو الروح، أو السر لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب العزيز، والأحاديث الشريفة؛ إذ الولي قط لا يأتي بشرع جديد، وإنما يأتي بالفهم الجديد في الكتاب، والسنة الذي لم يكن يعرف لأحد قبله، ولذلك يستغربه كل الاستغراب من لا إيمان له بأهل الطريق، ويقول: هذا لم يقله أحد، على وجه الذم، وكان الأولى أخذه منه على وجه الاعتقاد واستفادته من قائله، ومن كان شأنه الإنكار لا ينتفع بأحد من أولياء عصره، وكفى بذلك خسراناً مبيناً، وربما يفهم المعترض من اللفظ ضد ما قصده لافظه؛ كما وقع لشخص من علماء بغداد أنه خرج يوماً إلى الجامع فسمع شخصاً من شربة الخمر ينشد:

إذا العشـــرون مـــن شـــعبان ولـــت   فواصـــل شرب ليلـــك بالنهـــار

ولا تشـــــرب بأقـــــداح صـــــغار   فـإن الوقــت ضــاق عــن الصــغار

فخرج هائماً على وجهه للبراري إلى مكة، فلم يزل على ذلك الحال إلى أن مات، فما منع من سماع الأشعار، والتغزلات، إلا المحجوب الذي لم يفتح الله تعالى على عين فهم قلبه، إذ لو فتح الله تعالى على عين فهم قلبه، لنظر بصفاء الهمة، وسمع بثاقب الفهم، ونور المعرفة وأخذ الإشارة من معاني الغيب واتبع أحسن القول بحسب ما سبق إلى سره قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨] " (١)

ومعنى ما ذكره الشعراني أن الفتح هو نوع من الفهم يفتح الله به على من يشاء من عباده؛ فيفهم ما نزل من مرادات الله جل وعلا في نصوص الوحي الشريف، ثم ينتقل من ذلك الفهم إلى العمل والامتثال بحسب الطاقة.

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٦

ويؤيد ذلك أيضًا ما ذكره ابن عجيبة في هذا السياق؛ قال رحمه الله: " أول ما يظهر الفتح على قلب العبد في فَهْم كتاب الله، والتمتُّع بحلاوة تلاوته، ثم ينتقل إلى الاستغراق في ذكره باللسان، ثم بالقلب، ثم إلى الفكرة، ثم العكوف في الحضرة، إن وجد مَن يربيه وينقله عن هذه المقامات، وإلا بقي في مقامه الأول" (١)

إذن فالفتح أول ما يطلق عند السادة الصوفية يطلق على الفهم المتصل بالعمل والامتثال، وهو يبين أهمية اهتمام التصوف السني الذي عليه جماهير الأمة بالجانب العملي، وأنهم لا يكتفون بجانب الإشراقات فقط بل إنهم يجعلون العمل أساسا، سواء حصلت الإشراقات أو لم تحصل.

(١) البحر المديد ٥/ ٧١

من شروط حصول الفتح:

ينبغي أولا أن نقرر بخصوص الفتح، وبخصوص سائر الإشراقات الأخرى أن إطلاق مفهوم الشرط بإزاءهم لا يقصد منه حقيقة الشرط الشرعي الذي يترتب على عدمه العدم، ولا يترتب على وجوده وجودٌ ولا عدم لذاته [1] كما هو مقرر في علم الأصول؛ مثل شأن الطهارة مع الصلاة، وإنما هي باعتبار الغالب، فما قرره أهل الله أن حصول مثل هذه الإشراقات قد يكون مع وجود الاستعداد وقد لا يكون؛ فإن أساس الطريق وعمدته هو الاعتقاد بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا فتح ولا إشراقات ولا مجاهدات إلا بإذن الله جل في علاه.

إذا تقرر ذلك واتضح؛ فإن بعض أئمة التصوف قد ذكروا بعض الشروط لحصول الفتح ومن ذلك :

١- المجاهدات أصل الفتوحات:

يقول الإمام حجة الإسلام الغزالي: " المجاهدة تفضي إلى المشاهدة ودقائق علوم القلب تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب، وأما الكتب والتعليم فلا تفي بذلك، بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تتفتح بالمجاهدة، والمراقبة، ومباشرة الأعمال الظاهرة، والباطنة، والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة، والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه، فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة، وكم من مقتصر على المهم في التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوي الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم"[2] "اهـ[1]

---

(١) انظر تشنيف المسامع شرح جمع الجوامع ٢/ ٧٦٠ للإمام الزركشي

(٢)حديث: " من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" رواه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥ (ط.دار الكتاب العربي) بلفظ: " من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم" قال العراقي في تخريج الإحياء: " أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه."قلت: وقد استدل بهذا الحديث كثيرا السادة الصوفية في كتبهم، رغم ضعف

فالإمام الغزالي ينبه إلى أهمية حصول المجاهدات وأنها أصل تحقق المكاشفات والفتوحات؛ فطريق القوم يمتزج فيه العلم والعمل، من غير اعتماد على أحدهما بل التسليم والرضا والاستعانة تكون بالله وحده.

٢- عدم استعجال الفتح:

من الأمور المهمة التي يؤكد عليها أئمة التصوف عدم استعجال الفتح؛ فإن ذلك من حظ النفس، ومقصد الطريق التخلص من حظوظها، وأن تكون العبادة لله وحده لا لشي دونه، ولهم في ذلك نصوص كثيرة، ومن ذلك:

- ما ورد عن الإمام القطب [٢] سيدي أبي الحسن الشاذلي قال: " كنت أنا وصاحب لي نعبد الله في مغارة ونقول في هذا الشهر يفتح الله علينا، في هذه الجمعة يفتح الله علينا، فوقف علي باب المغارة رجل عليه سمات الخير؛ فقال: السلام عليكم، فرددنا عليه السلام وقلنا له كيف أنت؟ فنهض علينا وقال: كيف يكون حال من يقول: في هذا الشهر يفتح الله، في هذه الجمعة يفتح الله لا فتح ولا فلاح؛ هلا عبدنا الله كما أمرنا، ثم غاب عنا ففهمنا من أين أُخذنا فرجعنا على أنفسنا باللوم ففتح الله علينا" [٣]

فتجربة الشيخ أبي الحسن الشاذلي التي نقلها لنا تؤكد أن المريد لا يتعجل الفتح، بل لا يطلبه، وإنما يقصد بسلوكه عبادة الله، وعند ذلك أو معه يكون الفتح بإذن الله تعالى.

- وقال الشيخ ابن عجيبة الحسني: " فكم من مريد استعجل الفتح قبل إبانه فعوقب

إسناده؛ لكن لعل ذلك لأن معناه صحيح وهو ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾[البقرة: ٢٨٢]

(١)إحياء علوم الدين ١/ ٧٣

(٢) مصطلح القطب من المصطلحات الجارية على لسان السادة الصوفية ويعنون به إجمالا أتقى أهل زمانه، وسيأتي في مبحث التصريف تعريفه تفصيلا

(٣) إيقاظ الهمم صـ١٠٤

بحرمانه، وكم من مريد اطلع على أسرار الحقيقة قبل كمال خدمته فطُرد أو قتل" (١)

وهذا النقل كذلك يفيد أهمية ألا يستعجل المريد الفتح؛ كما يظهر فائدة أخرى لأهمية ذلك، وهو أن ما يحصل للمريد بسبب الفتح ربما يكون سببا في فتنته والعياذ بالله؛ فإن الاطلاع على بعض المعارف قبل أوانها قد يضر بالمريد حيث يدفعه إما لإفشاء ما رآه أو أنه يظن أن ذلك بسبب تحصيله مرتبة معينة فيغتر بنفسه؛ إلى غير ذلك من الآفات التي ينبغي على المريد أن يجنب نفسه إياها.

٣ – فراغ القلب من الأغيار:

من أسس الطريق التي تعد مقصدا من مقاصد السلوك إلى الله تعالى هو فراغ القلب من الأغيار؛ وهو أيضًا من شرائط الفتح؛ قال الشيخ ابن عجيبة الحسني: "اعلم أن المدد الذي هو الفتح الرباني إنما يقع في القلوب الفارغة من العوائق والشواغل"(٢)

فالقلب الذي هو محل نظر الرب، ينبغي على المريد السالك أن يعمل على تطهيره من التعلق بغير الله من الشهوات والرغبات الزائلة بزوال الدنيا، وأن يعلق قلبه بالباقي جل جلاله.

٤ – محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

لا شك أن محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي علامة من علامات الإيمان، لكن كما أن للإيمان درجات ومراتب؛ فإن المحبة كذلك تتفاوت مراتبها ودرجاتها؛ ومن ثم في آثارها، فما فضل الصحابة على من بعدهم إلا بمقدار محبتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعلقهم بحضرته المنيفة؛ وهاهو الصديق رضي الله عنه جعله الحب والتعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يفهم على الفور مراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير تصريح وهو نوع من الفتح كما مر في كلام الإمام الشعراني في مرادهم بالفتح، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال: «إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من

---

(١) البحر المديد ١/ ٤٦٥

(٢) إيقاظ الهمم صـ٣٩١

زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده» فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر"(١)

ولذلك نصوا على كون محبة النبي صلى الله عليه وآله سلم سببا في الفتح؛ قال سيدي عبد العزيز الدباغ (٢):" وأهل الفتح أجمعون إنما نالوا ما نالوا بمحبته صلى الله عليه وسلم، فسقوا بمقدار شعرة من نوره صلى الله عليه وسلم" (٣)

فأهل المحبة والقرب منه صلى الله عليه وآله وسلم هم أهل الفتح؛ إذ إنه صلى الله عليه وآله وسلم هو مصدر كل خير وأصل كل نفع يصل إلينا.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار - باب هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه إلى المدينة- حديث رقم ٣٩٥٢

(٢) هو العارف بالله سيدي عبد العزيز الدباغ، ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن بن علي عليه السلام،وكان من أولياء المغرب العربي الصالحين ومن أئمة الصوفية المعدودين، كان من أهل الفتح حيث فتح الله عليه بعلوم لدنية عجيبة لم يتلقها عن أحد؛ حيث كان رضي الله عنه أميا لا يقرأ ولا يكتب، وقد لزمه واحد من كبار علماء المغرب وهو الشيخ أحمد بن المبارك(ستأتي ترجمته) وكتب عنه كتابا ماتعا سماه الإبريز في تلخيص كلام سيدي عبد العزيز؛ وقد حوى هذا الكتاب العديد من معارفه وما فتح الله عليه من العلوم والأسرار في تفسير آيات القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، عاش رضي الله عنه بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري، وانتقل سنة ١١٣١ هـ دون الأربعين سنة ! فرضي الله عنه وأرضاه. انظر ترجمته في طبقات الشاذلية الكبرى لأبي علي الحسن بن محمد الفاسي المغربي صـ١٣٩ ط.المكتبة العلمية

(٣) الإبريز في تلخيص كلام سيدي عبد العزيز لأحمد بن المبارك صـ١٣٧ ط.الميمنية ١٣٠٠هـ

أنواع الفتح:

ذكر بعض الصوفية أنواعًا للفتح؛ ومن هؤلاء سيدي محي الدين بن عربي، فقد قسم الفتوح إلى ثلاثة أقسام؛ وهي أقرب إلى المراتب كما سيظهر من كلامه؛ قال رضي الله عنه: " اعلم أيدنا الله وإياك بما أيد به الخاصة من عباده أن الفتوح عند الطائفة على ثلاثة أنواع:

- النوع الواحد: (فتوح العبارة في الظاهر) قالوا وذلك سببه إخلاص القصد وهو صحيح عندي وقد ذقته؛ وهوقوله -عليه السلام- "أوتيت جوامع الكلام [(١)]"

ومنه إعجاز القرآن: وقد سألت في الواقعة عن هذه المسألة فقيل لي لا تخبر إلا عن صدق وأمر واقع محقق من غير زيادة حرف أو تزوير في نفسك؛ فإذا كان كلامك بهذه الصفة كان معجزا[(٢)]

- وأما النوع الثاني من الفتوح فهو: (فتوح الحلاوة في الباطن) قالت الطائفة: هو سبب

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة واللفظ لمسلم انظر (الجمع بين الصحيحين ٣/ ٣٥) للحميدي،حديث رقم: ٢٢١٥، ط.دار ابن حزم لبنان الثانية، قال البخاري: بلغني أن جوامع الكلم: أن الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد أو الاثنين

(٢) الإعجاز القرآني له وجوه متعددة؛ فمنها إعجاز البيان الذي تكلم عنه أمثال الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه: إعجاز القرآن، ويعنون به تفرد القرآن بنظم يحوي المعاني المتعددة الدالة على المراد الإلهي بأوجز الألفاظ وأبلغها؛ بحيث لا يستطيع الخلق أجمعون أن يعبروا عن معانيه بمثل هذا النظم المحكم، ومثل هذا الوجه لا يعنيه ولا يتفق مع مراد الشيخ الأكبر هنا إذ لا سبيل للبشر الإتيان به؛ بل هو أراد وجها آخر وهو صدق القرآن وإخباره عن الحقائق المتنوعة على نحو لا يمكن أن يتطرق له نقض وإبطال من أحد؛ فهو من هذا الوجه معجز أي للمبطلين الذين يريدون الطعن فيه ويحاولون نقض ما فيه وهو مفهوم قوله تعالى { لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:٤٢]، وعلى ذلك فيمكن أن يوصف كلام أحد الأنبياء أو الأولياء بأنه معجز؛ أي: لخصومه من جهة كونه صادقا قاطعا لا طعن فيه ولا قدرة على إبطاله؛ وقد بين سيدي ابن عربي وفصل في مراده من هذا الوجه من وجوه الإعجاز في عدة مواضع، ومنها الباب السابع والثلاثون ١/ ٢٥٤؛ فليراجع

جذب الحق بإعطافه (١)

- وأما النوع الثالث:فهو: (فتوح المكاشفة بالحق) قالت الطائفة هو سبب المعرفة بالحق والجامع لذلك كله أن كل أمر جاءك من غير تعمل ولا استشراف ولا طلب فهو فتوح ظاهرا كان أو باطنا وله علامة في الذائق الفتوح وهي عدم الأخذ من فتوح الغير أو نتائج الفكر.

ومن شرط الفتوح: أن لا يصحبه فكر ولا يكون نتيجة فكر، وكان شيخنا أبو مدين (٢) يقول في الفتوح: أطعمونا لَحْماً طَرِيًّا كما قال الله تعالى (٣)، لا تطعمونا القديد؛ أي لا تنقلوا إلينا من الفتوح إلا ما يفتح به عليكم في قلوبكم لا تنقلوا إلينا فتوح غيركم يرفع بهذا همة أصحابه لطلب الأخذ من الله تعالى.

فاعلموا يا إخواننا أن مقام الفتوح محتاج إلى ميزان حقيقي، وهو مقام فيه مكر خفي واستدراج؛ فإن الله قد ذكر الفتح بالبركات من السَّماءِ والْأَرْضِ (٤)، وذكر الفتح بالعذاب (٥)، هذا حتى لا يفرح العاقل بالفتح عند فتح الباب حتى يرى ما يفتح له؛ قال بعضهم عند الموت: هذا باب كنت أقرعه منذ كذا وكذا سنة هو ذا يفتح لي ولا أدري بماذا ؟

قالت عاد: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا؛ حجبتهم العادة قيل لهم: بَلْ هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ به رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (٦)؛ فلا تغتر بالفتح إذا لم تدر ما ثمة وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً"(١)

---

(١) إعطافه: أي من العطف الإلهي

(٢) أبومدين شعيب بن الحسين التلمساني ويلقب بشيخ الشيوخ (ولد ٥٠٩ هـ -، وتوفي ٥٩٤ هـ)وهو فقيه ومتصوف وشاعر أندلسي، ومن اشهر قصائده قصيدته التي أولها: ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا"، انظر ترجمته الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية للغبريني صـ٢٢ ط.دار الآفاق

(٣) يشير إلى قول الله تعالى { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا} [النحل:١٤]

(٤) يشير إلى قوله تعالى: { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف:٩٦]

(٥) يشير لقوله تعالى: { حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}[المؤمنون: ٧٧]

(٦) يريد قول الله تعالى: { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ

فبان من كلام الشيخ الأكبر أن للفتح مراتب أو أنواع ثلاثة، وكل منها له ثمرته على المريد، وينبغي عليه أن يحرر قصده في جميع ذلك؛ بأن يُقبل على الله وحدَه دون ما سواه.

رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأحقاف: ٢٤]

(١) الفتوحات المكية ٥٥٩/٢، وهذه الفقرة من كلام الشيخ الأكبر تشير إلى ضرورة ألا يفرح المريد السالك بالفتح من غير أن يعرف ثمرة ذلك الفتح، ولذلك فالمريد ينبغي أن يكون تعلقه بالله وحده ولا يتعلق بغيره من فتوح أو غيرها.

تتمة في جملة من عباراتهم الجامعة في معاني الفتح وما يكون معه من آثار وأسرار:

أورد العارف الشعراني خلال كتابه الطبقات جملة متفرقة من كلام أهل الله في أهم ما ينبغي على السالك أن يهتم به في أمر الفتح؛ من سلوك وأحوال قبل الفتح ومعه وبعده؛ ليكون المريد على بينة من أمره، ومن ذلك:

١- "من أعظم أبواب الفتح يقظة العبد من غفلته"(١) [سيدي داود بن ماخلا (٢)]

فاليقظة لما كانت أول مراتب الطريق كانت أول الأبواب إلى الفتح وأعظمها؛ فالعبرة في السلوك إلى الله تكون بإحكام البدايات.

٢- "علامة الفتح أن ترى الناس كلهم نيامًا"(٣) [سيدي داود بن ماخلا]

فالمريد الذي يكون منشغلا بالناس لا يفلح، بخلاف ما لو عامل الله وحده وتعامل معه وكأن الخلق من حوله نائمون فهو لا يلتفت لهم قطعًا.

٣- "آفة الفتح الالتفات"(٤) [سيدي علي الخواص]

هذا تنبيه على المريد ألا يلتفت عن طريقه حتى لو فتح عليه؛ فإن ذلك يفوت عليه مقصوده الأعظم من الفتح وهو الوصول إلى الله.

٤- " الفتح على المريد بالأمور قد يكون امتحانًا، وقد يكون تأنيسًا، وقد يكون تثبتًا"(٥) [سيدي أبو المواهب الشاذلي]

هذا بيان لسبب ورود الفتح على المريد؛ ومن ثم لا ينبغي أن يكون فرحه إلا بالله ولا اعتماده

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٦١

(٢) هو سيدي داود الكبير بن عمر بن ماخلا (الباخلي) كان إماما للطريقة الشاذلية بعد شيخه العارف ابن عطاء الله السكندري، عاش في الإسكندرية ودفن فيها سنة ٧٣٣هـ،ونقل الشعراني عنه جملة صالحة من دقائق السلوك ونفائس الإرشادات، انظر ترجمته:الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٦٠

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٧٠

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١٣٥

(٥) الطبقات الكبرى للشعراني: ٢/ ٦٣

إلا على الله.

٥- " ليس للشيخ أن يبين للمريد صورة الفتح الذي علم من طريق الكشف أنه يئول إليه أمر المريد بعد مجاهداته، وكمال سلوكه لأن المريد إذا حصل معنى صورة ذلك في نفسه، وتكرر شهوده له ربما ادعى الفتح، وباطنه معرى عن ذلك إذ النفس معرضة للخيالة، وعدم الصدق، وكثرة الدعوى، وربما فارق هذا شيخه، وادعى الكمال لعلمه بصورة النتج علماً لا حذقاً، ولا ذوقاً كما يُظهر المنافق صورة المؤمن في العمل الظاهر، وباطنه معرى عن الموجب لذلك العمل (١)" [سيدي علي نور الدين المرصفي (٢)]

هذه تنبيه للشيوخ ألا يفصحوا للمريد عن أحواله التي يكاشفون بها؛ إلا بعد أن يعلموا عدم تأثر المريد بذلك، وهو من خلق الشفقة والرحمة بالمريدين؛ فإن السالك ربما ظهر له في أول الطريق ما ينشغل به عن الترقي أو يتوهم من نفسه ما ليس حاصلا بالفعل.

٦ – إذا استمر توجه القلب إلى الحق في كل حركة وسكون من غير علة فباب الفتح موجود، ولا بد ما دام العبد متوجهاً فالمدد فياض، ويوشك أن يوصل صاحبه لمراتب الكمال (٣) [سيدي علي الخواص]

هذا بيان أيضًا لما ينبغي أن يكون عليه قلبه مما يسرع بالفتح وهو استمرار التوجه إلى الحق جل في علاه

---

(١)الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١١٢

(٢) هو الشيخ نور الدين علي المرصفي كان من الأئمة الراسخين في العلم، وله المؤلفات النافعة في الطريق، واختصر رسالة القشيري توفي حوالي سنة ٩٣٣ هـ انظر ترجمته: الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١١١

(٣) الطبقات الكبرى ٢/ ١٣٨

فائدة شريفة في معنى الفتح في حق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتعلق كل فتوح الأولياء بذاته الشريفة:

جاء في كتاب: الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز (الدباغ) هذه الفائدة التي نختتم بها الكلام عن الفتح:

قال الشيخ أحمد بن المبارك [١] :"وسألته رضي الله عنه عن قوله تعالى:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ١]

فقال رضي الله عنه: المراد بالفتح المشاهدة، أي مشاهدته تعالى، وذلك أنه سبق في سابق علمه تعالى أن الخلق لا يعرفونه جميعا، إذ لو عرفوه جميعا لم تكن إلا دار واحدة، وقد قضى تعالى أنه له دارين، فحجب الخلق عنه تعالى إلا من رحمه الله فمنعهم من مشاهدة الفعل منه تعالى ومن مشاهدة ذاته تعالى، فإنه لو كشف الغطاء عنهم لشاهدوه تعالى كما قال:﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾،﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾،﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾،﴿وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾، وشاهدوا أفعالهم كلها مخلوقة له تعالى، وأنه هو الفاعل لها لا هم، وإنما هم ظروف وأجرام موضوعة وهو تعالى يحركها كيف يشاء كما قال تعالى:﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾، وعند ذلك لا يعصيه أحد قط؛ لأن المعصية لا تكون إلا من المحجوب الغافل الساهي عن ربه وقت معصيته، قال: والمؤمنون وإن كانوا يعتقدون أن الله هو الفاعل فيهم المريد لأفعالهم، لكن هذا الاعتقاد يحضر ويغيب، وسببه الحجاب، فاعتقادهم مجرد إيمان بالغيب لا عن مشاهدة وعيان، ومن رحمه الله تعالى زال عنه

---

(١) هو الشيخ أبو العباس أحمد بن مبارك؛ به عرف، ابن محمَّد بن علي السجلماسي البكري الصديقي الفقيه المحدّث المفسر العلامة النحرير القدوة الفهّامة الشهير خاتمة المحققين والعلماء العاملين والفضلاء البارعين صاحب العارف بالله الولي الكامل الشيخ عبد العزيز الدباغ، توفي ١١٥٥ هـ، انظر ترجمته في شجرة النور الزكية ١/ ٥٠٦ ط.دار الكتب العلمية لبنان، الأولى

الحجاب وأكرمه بمشاهدته تعالى، فلا يرى إلا ما هو حق من الحق وإلى الحق، فهذا هو المشار إليه بالفتح المبين.

فقلت: ومتى وقع؟ فقال: من صغره، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يحجب عنه تعالى.

فقلت: وهذا الفتح ثابت لكل نبي بل ولكل عارف، فأي خصوصية فيه لنبينا صلى الله عليه وسلم؟

فقال رضي الله عنه: الفتح يختلف بالقوة والضعف، فكل على ما يطيق، والقوة التي في النبي صلى الله عليه وسلم عقلا وروحا ونفسا وذاتا وسرا وحفظة لم تثبت لغيره، حتى لو جمع أهل الفتح كلهم من الأنبياء وغيرهم وجعلت القوة المشار إليها عليهم لذابوا جميعا وتهافتت ذواتهم، والمراد بقوله بالذنب في قوله تعالى﴿ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ سببه وهو الغفلة وظلام الحجاب الذي في أصل نشأة الذات الترابية، قال: وهذه الغفلة والحجاب للذنوب بمثابة الثوب العفن والوسخ لنزول الذباب عليه، فمتى كان ذلك الثوب على أحد نزل عليه الذباب، ومتى زال عنه ذلك الثوب زال عنه الذباب، فالثوب مثال الحجاب، والذباب مثال للذنوب، فمن سمى ذلك الثوب ذبابا فهي تسمية سائغة، فكذلك المراد هنا بالذنب هو الحجاب، والمراد بما تقدم وما تأخر الكناية عن زواله بالكناية، فكأنه يقول: إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليزول عنك الحجاب بالكلية، ولتتم النعمة منا عليك، ولتهتدي وتنصر، فإنه لا نعمة فوق نعمة زوال الحجاب، ولا هداية فوق هداية المعارف، ولا نصرة أبلغ من نصرة من كانت هذه حالته.

فقلت: وهل هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال: نعم. فقلت: ولم؟ فقال: لأنه عين كل شيء.

فقلت: ولذلك تقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في المحشر، ائتوا محمدا عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قلت: وهذا الذي قاله الشيخ رضي الله عنه من أنفس المعارف، وألطف اللطائف، وأليق

بالجناب النبوي، وأبلغ في التنزيه والتعظيم، وأوفق للعصمة المجمع عليها، وأوفى بحق النبي صلى الله عليه وسلم، وأنسب بترتيب الآية وحسن سياقها، فجزاه الله عنا أفضل الجزاء [1]"

وبخصوص تعلق فتح الأولياء بحضرته صلى الله عليه وآله وسلم؛ يقول:" ثم اجتماعه [2] مع الذات الشريفة سبب إلى معرفته بالحق سبحانه ومشاهدة ذاته الأزلية لأنه يجد الذات الشريفة غائبة في الحق هائمة في مشاهدته سبحانه فلا يزال الولي ببركة الذات الشريفة يتعلق بالحق سبحانه ويترقى في معرفته شيئا فشيئا إلى أن تقع له المشاهدة وأسرار المعرفة وأنوار المحبة فهذا الفتح الثاني، هو الفاصل بين أهل الحق وأهل الباطل وأما الفتح الأول: فإنه كما يقع لهم يقع لأهل الظلام فيقع لهم الفتح في مشاهدة الأمور الفانية ويتمكنون من التصرف فيها، فنرى المبطل يمشي على البحر ويطير في الهواء ويرزق من الغيب وهو من الكافرين بالله عز وجل، وذلك أن الله تعالى خلق النور وخلق منه

الملائكة وجعلهم أعوانا لأهل النور بالتوفيق والتسديد وخرق العوائد، وكذلك خلق الظلام وخلق منه الشياطين وجعلهم أعوانا لأهل الباطل بالاستدراج والمزيد في الخسران والتمكن من الخوارق [3]"

فظهر من كل ما ذكر معاني الفتح وأنواعها ومراتبها في اصطلاح القوم والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الإبريز ص١٣٩

(٢) أي الولي من أولياء الله تعالى

(٣) الإبريز ص٢٥٧

(٧) الرؤى:

من الإشراقات التي تكلم عنها القوم في كتبهم الرؤى، ولعلها من أكثر وأشهر ما يحصل للمريد في أول سلوكه؛ ويختلف التعامل مع الرؤى والاعتماد عليها بحسب البرامج التربوية لكل طريق، وفيما يلي دراسة لهذا النوع المهم من إشراقات الطريق،وبيان ما نقل عن السادة الصوفية فيه:

الرؤيا لغة:

الرؤيا (بالألف) تستعمل فيما يدركه النائم، وتجمع على (رؤى) بضم الراء والتنوين، وقد تستعمل قليلا فيما يدرك بحاسة البصر.

وقال ابن الأثير: "الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقبيح(١)"

الرؤيا اصطلاحًا:

أما الرؤيا عند السادة الصوفية وفي اصطلاحًاتهم فقد نقل عن العارف سيدي عبد العزيز الدباغ في تعريفها أنها: " اعتقادات وإدراكات يخلقها الله تعالى في قلب النائم كما يخلقها في عين اليقظان وقلبه، وإذا خلقها جعلها علامة على الأمور والأشياء يخلقها في ثاني حال، وهذه الاعتقادات تارة يحضرها ملك عند خلقها فتكون الرؤيا مبشرة، وتارة يحضرها شيطان فتكون محزنة(٢)"

الرؤيا من المبشرات:

ومعتمد الصوفية كما هو معتمد جماهير العلماء في الاستفادة من الرؤى و جعلها بابًا من أبواب المبشرات قولُ الله تعالى: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[يونس: ٦٤]

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٤٣٤

(٢) الإبريز صـ٧٨

فقد جاء في التفسير أنها الرؤيا الصالحة [1]

وحديثُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم"لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة [2] ".

- وقد ورد أيضًا؛ كما في الصحيحين قوله صلى الله عليه وآله وسلم" الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة [3]"

وأما كون الرؤيا -كما في الحديث السابق- تعتبر جزءا من ستة وأربعين جزءا من النبوة، فأظهر الأقوال هو:

- أن أول ما بدئ به النبي صلى الله عليه وآله من الوحي الرؤيا الصادقة؛ فلم يكن يرى رؤيا إلا وقعت مثل فلق الصبح؛ أي تحققت في اليوم التالي، وكان هذا مدة ستة أشهر، ومدة نبوته صلى الله عليه وآله وسلم من تمام الأربعين حتى انتقاله للرفيق الأعلى هي ثلاثة وعشرون عاما [4]

وقبل بيان تفاصيل هذا النوع من الإشراقات عند السادة الصوفية، فإنه من المهم بيان ما للرؤيا من حجية من الناحية الشرعية؛ وأهمية ذلك تظهر في أن بعض المريدين ربما يتعلقون ببعض ما يرونه في رؤاهم؛ ويعملون بمقتضى ما رأوه من الرؤى، وقد يوافق ذلك الشرع وقد لا يوافق، وربما أدى ذلك لخروجهم على قواعد الطريق، بل قواعد الشرع بالكلية؛ وعلى ذلك فيلزم بيان أقوال العلماء في حجية الرؤيا على وجه الاختصار.

---

(١) انظر تفسير روح المعاني (تفسير الآلوسي) ٤/ ٦١ ط.دار الكتب العلمية ١٤١٥ هـ

(٢) صحيح البخاري،كتاب التعبير، باب المبشرات، حديث: ٧٠٧٦

(٣) انظر الجمع بين الصحيحين ٢٧/٣، الحديث رقم ٢٢٠٠

(٤) انظر روح المعاني (تفسير الآلوسي) ٥/ ٢١٠، وللعلماء تفاسير أخرى لهذا الحديث انظر:شرح الإمام النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٢٠ ط.دار إحياء التراث -بيروت، الثانية ١٣٩٢ هـ

حجية الرؤيا عند العلماء:

ينبغي قبل أن نذكر ما ذهب له العلماء بخصوص حجية الرؤيا أن نبين تحرير محل النزاع في هذه المسألة والمراد منه بيان محل الاتفاق والاختلاف في آراء العلماء:

أولًا محل الاتفاق:

اتفق المسلمون على أن الرؤى الصالحة مبشرات، لتثبيت قلوب المؤمنين وتقوية عزائمهم، واتفقوا على أن رؤيا الأنبياء وحي، يجب على الأنبياء العمل بما فيها، كقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

واتفقوا على أن مطلق الحلم ليس بحجة في الشرع الشريف.

واتفقوا على أن الرؤيا الصالحة تصلح للاستئناس بها إذا وافقت حجة شرعية صحيحة، كما ثبت عن ابن عباس –رضي الله عنهما – أنه كان يقول بمتعة الحج لثبوتها عنده بالدليل السمعي من الكتاب والسنة، فلما رأى بعض الناس رؤيا توافق ذلك، استبشر بها ابن عباس، وأن هذا لا يضر [1].

ثانيًا محل النزاع:

أما بخصوص الرؤيا الصالحة التي تشتمل على الدلالة على حكم شرعي من غير أن يكون له مستند، سواء كان المرئي هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أم غيره، وسواء أشاعت فرآها غير واحد، أم رآها شخص بعينه، وسواء أكان المقصود أن تكون دليلا لمن رأى أم للأمة فهذا هو محل النزاع.

فالجمهور على أن هذه الرؤيا ليست حجة شرعية، ولا تعد دليلا من الأدلة، ولا يحتج بها على جواز فعل أو تركه ولا على منع أو استحباب [2].

(١) انظر: مدى حجية الرؤيا عند الأصوليين أ.د علي جمعة ص٦٦،ط.دار الرسالة – القاهرة

(٢) انظر في بيان الخلاف وما ذهب له جمهور الأصوليين كتابَ البحر المحيط للإمام الزركشي ١/ ٨٩ ط.الكتبي

ومن هنا فإن هذه الرؤيا التي تكون من باب المبشرات ليس من شأنها أن تثبت حكما جديدا فضلا عن أن تخالف حكما شرعيا ثابتا، لكن كما مر في محل الاتفاق؛ فلا مانع من الأخذ بها في رؤيا معينة بشيء حث عليه الشرع؛ كذكر معين، أو زيارة أخ في الله، أو ولي من الأولياء، أو صدقة، أو معروف، فهذا كله لا مانع منه؛ إذ الرؤيا هنا لم تزد شيئا على ما جاء به الشرع الشريف.

رؤيا سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، وحكم ما يسمع من حضرته:

ولا يتغير الأمر كذلك بخصوص رؤيا سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي جاء النص بأنها رؤيا صادقة؛ كما في حديث: "من رآني في المنام فقد رآني؛ فإن الشيطان لا يتمثل بي"(١)، فقد ذكروا أن الرائي لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينبغي أن يفرق بين أن يؤمر في منامه بما يوافق الشرع أو أن يؤمر بما يخالف الشرع؛ ومن ذلك ما قاله الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى؛ قال: "إن كان أمره بأمر ثبت عنه في اليقظة خلافه كالأمر بترك واجب أو مندوب لم يجز العمل به، وإن أمره بشيء لم يثبت عنه في اليقظة خلافه استحب العمل به"(٢)

وبناء على ذلك؛ فإن ما يحدث لبعض المريدين من رؤيا لسيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم في منامهم وقد يسمعون أشياء ليست من حقيقة الشرع في شيء كأمر بمحرم أو نهي عن واجب؛ فينبغي على المريد حينئذ أمران:

الأول: ألا يفعل ما علم أنه يخالف الشرع الشريف؛ لأن الرؤيا لا تنسخ الأحكام الشرعية ولا تغيرها، وقد أرجع بعض العلماء ذلك إلى خطأ الرائي في السمع؛ كما نبه على ذلك الإمام المحدث العارف ابن أبي جمرة (٣) رضي الله عنه في شرحه على مختصر البخاري فقال في مثل

---

(١) متفق عليه من حديث أي هريرة انظر الجمع بين الصحيحين ٣/ ١٦٤، الحديث رقم ٢٣٨٦

(٢) البحر المحيط ٨٩/١

(٣)الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة المغربي، نزيل مصر، كان عالما عابدا، خيرا شهير الذكر، شرح منتخبا له من البخاري، نفع الله ببركته، وهو من بيت كبير بالمغرب، شهير الذكر، قال الزبيدي في شرح القاموس

هذه الحالة: "فيكون رؤيا الذات المباركة حقًا، ويكون الخلل وقع في سمع الرائي، وهو الحق الذي لا شك فيه.."[1]

ويمكن الاستدلال على ذلك بمفهوم خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم المار ذكره:" من رآني في المنام فقد رآني"[2]

فإنه لم يقل من سمعني، بل قال من رآني فينبغي التمسك بذلك خاصة عند عدم القدرة على تأويل الرؤيا على وجهٍ مقبولٍ شرعًا.

الثاني: أن يراجع شيخه كما هو الشأن في كل ما يعرض للمريد من أمر يحيره؛ فلا يدري ماذا يفعل أو بماذا يؤمر؛ فإن من فوائد الشيخ إزالة الحيرة عن المريد، ولعل لهذه الرؤيا تأويلا معينا، أو إرشادا لشيء خفي على المريد فهمُه؛ وهذا لا يخص مثل هذه الرؤيا؛ بل يستحب في كل ما يظهر للمريد أن فيه فائدة ويحتاج بيانها من شيخه؛ قال صاحب روح البيان: " على المريد أن يعرض واقعته على شيخه سوآء عبر الشيخ أو لم يعبر؛ فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾وهى من جملة الأمانة عند المريد لا بد ان يؤديها الى الشيخ؛ لما فيها من فائدة جليلة له، وقوة لسلوكه، وفي التعبير أثر قوى على ما قال عليه السلام (الرؤيا على ما أُولت).[3]"

- وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يعرضون رؤاهم على سيدنا النبي صلى الله عليه وآله

٤٦٣/١٠: "وقبره بقرافة مصر مشهور، يستجاب عنده الدعاء، وقد زرته مرارا" وقبره بجوار مقام مسجد سيدي ابن عطاء السكندري والسادة الوفائية رضي الله عنهم

(١) بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما له وما عليها للإمام أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي ٢٤٢/٤ ط مصورة.المكتبة العلمية (الأولى ١٤٢٥هـ)

(٢) سبق تخريجه

(٣) روح البيان ٤٠٥/٩، والحديث الذي ذكره بمعناه لفظه كما في المستدرك " إن الرؤيا تقع على ما تعبر، ومثل ذلك مثل رجل رفع رجله فهو ينتظر متى يضعها، فإذا رأى أحدكم رؤيا فلا يحدث بها إلا ناصحا أو عالما " رواه الحاكم كتاب تعبير الرؤيا حديث رقم ٨١٧٧، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي

وسلم، وأحيانا كان هو صلى الله عليه وآله وسلم يطلب ذلك منهم؛ ففي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «من رأى منكم الليلة رؤيا؟» قال: فإن رأى أحد قصها، فيقول: «ما شاء الله» فسألنا يوما فقال: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟» قلنا: لا"[1]

وينبغي أن يراعي المريد حالَ شيخه؛ فلا يلح عليه لمعرفة تعبير رؤياه، وإذا صرفه شيخه عن الانشغال برؤيا معينة أو بالرؤى عموما فينبغي عليه أن يمتثل كلام شيخه؛ فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحيانا كان يتوقف عن تعبير رؤيا معينة كما في الحديث:" أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أرى الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها بأيديهم، فالمستكثر والمستقل، وأرى سببا واصلا، من السماء إلى الأرض، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل من بعدك فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع به، ثم وصل له فعلا. قال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت، والله لتدعني فلأعبرنها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اعبرها» قال أبو بكر: أما الظلة فظلة الإسلام، وأما الذي ينطف من السمن والعسل فالقرآن حلاوته ولينه، وأما ما يتكفف الناس من ذلك فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيعليك الله به، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت، أصبت أم أخطأت؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أصبت بعضا وأخطأت بعضا» قال: فوالله يا رسول الله لتحدثني ما الذي أخطأت؟ قال: لا تقسم[2]"

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز، حديث رقم: ١٤٠٢

(٢) متفق عليه، انظر الجمع بين الصحيحين ٢/ ١٣، الحديث رقم ٩٨٧

- ففي هذا الحديث إمكان ترك تعبير الرؤيا أو بعضها إذا كان لمصلحة [1].

إذن تحصل من كل ذلك أن الرؤيا الصالحة لا تتعدى كونها بشرى، وقد تشتمل على حث على عمل صالح كما وقع لسيدنا عبد الله بن عمر قال كان الرجل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبي صلى الله عليه وسلم. فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي صلى الله عليه وسلم، وكنت غلاما شابا عزبا، أنام في المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيت في المنام كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار. ثلاث مرات، فلقيهما ملك آخر فقال لي: لن تراع.

فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل؛ قال سالم (الراوي عن عبدالله بن عمر): فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلا"[2]

ففي هذا الحديث رأى عبد الله بن عمر ما فسره له المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بأنه حث له على قيام الليل؛ فهذا من فوائد الرؤيا الصالحة، وسيأتي تفصيل حول المقصود بالرؤيا الصالحة وأثرها من كلام السادة الصوفية.

---

(١) انظر شرح ابن بطال على صحيح البخاري ٩/٥٥٩ ط.الرشد

(٢) متفق عليه،انظر الجمع بين الصحيحين ٤/ ٢٤٢

تفسيرات السادة الصوفية للرؤيا وأنواعها:

إذا كانت الرؤيا من جملة الإشراقات التي تحدث للسالك إلى الله، وهي من عاجل بشرى المؤمن على مر؛ فإن للسادة الصوفية تفسيرا وتفصيلا لحقيقتها، وأسباب بعضها، وكيفية التعامل مع ذلك نورده فيما يلي:

١- حقيقة الرؤيا عند محي الدين بن عربي:

يرى الشيخ الأكبر أن أمر الرؤيا موكل بملَك من الملائكة؛ وهذا الملَك لا يقتصر شأنه على الرؤيا المنامية؛ بل يمتد كذلك لبعض ما يراه من معاني مصورة، ولو في حال اليقظة؛ فقال:"اعلم أن لله ملكا موكلا بالرؤيا يسمى الروح، وهو دون السماء الدنيا وبيده صورُ الأجساد التي يدرك النائم فيها نفسه وغيره، وصور ما يحدث من تلك الصور من الأكوان؛ فإذا نام الإنسان أو كان صاحب غَيبة، أو فَناء، أو قوة إدراك لا يحجبه المحسوسات في يقظته عن إدراك ما بيد هذا الملك من الصور؛ فيدرك هذا الشخص بقوته في يقظته ما يدركه النائم في نومه وذلك أن اللطيفة [١] الإنسانية تنتقل بقواها من حضرة المحسوسات إلى حضرة الخيال المتصل بها الذي محله مقدم الدماغ فيفيض عليها ذلك الروح الموكل بالصور من الخيال المنفصل عن الإذن الإلهي ما يشاء الحق أن يريه هذا النائم أو الغائب أو الفاني أو القوي من المعاني متجسدة في الصور التي بيد هذا الملك فمنها ما يتعلق بالله وما يوصف به من الأسماء فيدرك الحق في صورة أو القرآن أو العلم أو الرسول الذي هو على شرعه"[٢]

مراتب الرؤيا عند الشيخ الأكبر:

ثم ذكر الشيخ رضي الله عنه مراتب الرؤيا، وبيان كيفية التعامل معها، فقال:

---

(١) المراد من اللطيفة هنا النفس الإنسانية لأن النفس من باب اللطيف وليس الكثيف كالجسد؛ فالجسد كثيف يدرك بالحس المعتاد، أما النفس والروح إلخ فهي لا تدرك بالحس المعتاد لذا فهي لطيفة. وسيأتي بيان وتفصيل لكل من هذه اللطائف في مبحث الأنوار.

(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٤١٨

"هنا يحدث للرائي ثلاث مراتب أو إحداهن:

المرتبة الواحدة أن تكون الصورةُ المدركة راجعةً للمرئي بالنظر إلى منزلة ما من منازله وصفاته التي ترجع إليه فتلك رؤيا الأمر على ما هو عليه بما رجع إليه.

والمرتبة الثانية أن تكون الصورة المرئية راجعة إلى حال الرائي في نفسه.

والمرتبة الثالثة أن تكون الصورة المرئية راجعة إلى الحق المشروع، والناموس الموضوع، أيُّ ناموس كان في تلك البقعة التي ترى تلك الصورة فيها؛ في ولاة أمر ذلك الإقليم القائمين بناموسه، وما ثمَّ مرتبة رابعة سوى ما ذكرناه.

فالأولى: وهي رجوع الصورة إلى عين المرئي فهي حسنة كاملة ولا بد لا تتصف بشيء من القبح والنقص.

والمرتبتان الباقيتان قد تظهر الصورة فيهما بحسب الأحوال من الحسن والقبح والنقص والكمال فلينظر إن كان من تلك الصورة خطاب فبحسب ما يكون الخطاب يكون حاله وبقدر ما يفهم منه في رؤياه.

ولا يعول على التعبير في ذلك بعد الرجوع إلى عالم الحس إلا إن كان عالما بالتعبير أو يسأل عالما بذلك ولينظر أيضًا حركته أعني حركة الرائي مع تلك الصورة من الأدب والاحترام أو غير ذلك فإن حاله بحسب ما يصدر منه في معاملته لتلك الصورة فإنها صورة حق بكل وجه وقد يشاهد الروح الذي بيده هذه الحضرة وقد لا يشاهده.

وما عدا هذه الصورة فليست إلا من الشيطان إن كان فيه تحزين، أو مما يُحدث المرءُ به نفسَه في حال يقظته، فلا يعول على ما يرى من ذلك"(١)

فالشيخ الأكبر وضح مراتب الرؤيا الصالحة وأن منها ما يرجع لمقام المرئي ومنها ما يكون راجعا لحال الرائي ومنها ما يتعلق بمكان الرائي والثالثة ترجع إلى حال مكان الرائي، ثم ذكر

---

(١) الفتوحات ٢/ ٤١٨، ويراجع هذا الباب من بدايته ففي تفاصيل أكثر من ذلك وهو الباب الثامن والثمانون مائة بعنوان "معرفة مقام الرؤيا وهي المبشرات" ٢/ ٤١٦

أن خلاف هذه المراتب يكون إما من الشيطان أو من حديث النفس.

٢- تفسير الإمام حجة الإسلام الغزالي للرؤيا، وتعلقها بعالم الملكوت:

تعرض الإمام الغزالي رحمه الله للكلام عن حقيقة الرؤيا الصالحة في مواطن من كتابه إحياء علوم الدين؛ مبينا أن للرؤيا تعلق بعالم الملكوت، وأنه نوع كشف عن الغيب وأن المؤمن مهما طهر باطنه فإن رؤياه تكون أقرب إلى الصدق وانكشاف الغيب. قال رحمه الله تعالى: " لما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام، فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه والموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد ابن معاذ وفي حق زينب ابنته (١)، وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر (٢)، ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم، إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضًا مشاهدة نبوية وأعني بها المشاهدة في المنام وهي من أنوار النبوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة"(٣) وهو أيضًا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل

---

(١) روى الإمام أحمد في مسنده (مسند عائشة – حديث رقم: ٢٥٣٠٢) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن للقبر ضغطة، لو كان أحد ناج منها لنجا منها سعد بن معاذ"، وفي المعجم الكبير للطبراني (١/ ٢٥٧) عن أنس وفيه " يا رسول الله رأيناك مهتما حزينا فلم نستطع أن نكلمك ثم رأيناك سري عنك فلم ذلك ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: " كنت أذكر ضيق القبر وغمه وضعف زينب فكان ذلك يشق علي فدعوت الله عز و جل أن يخفف عنها ففعل"

(٢) روى الإمام الترمذي في سننه (كتاب التفسير باب ومن سورة آل عمران، حديث: ٣٢٨١)عن جابر بن عبد الله أنه قال: " لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: «يا جابر ما لي أراك منكسرا»؟ قلت: يا رسول الله استشهد أبي، وترك عيالا ودينا، قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك»؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: " ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحا" قال الترمذي:حسن غريب

(٣)تقدم تخريجه

الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام؛ ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا [١]، وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضًا، فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها، ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] وقلما يخلوا الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة.

والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى، وبدائع فطرة الآدمي، وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم، والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة [٢]"

٣- تفسير الحكيم الترمذي للرؤيا الصادقة وأثرها في المريد السالك:

يقول الإمام الحكيم الترمذي مبينًا معنى الرؤيا الصادقة، ثم ذكر أهمية الرؤيا الصادقة بالنسبة للمريد فقال: " الرؤيا الصادقة أصلها حق؛ تخبر عن الحق، وهو بشرى وإنذار ومعاتبة؛ لتكون عونا لما ندب إليه، قال: وقد كان غالب أمور الأولين الرؤيا إلا أنها قلت في هذه الأمة لعظم ما جاء به نبيها من الوحي ولكثرة من في أمته من الصديقين من المحدثين بفتح الدال وأهل اليقين فاكتفوا بكثرة الإلهام والملهمين عن كثرة الرؤيا التي كانت في المتقدمين"[٣]

فالحكيم الترمذي يرشد إلى ثمرة وفائدة الرؤيا الصادقة وأنها من باب المعونة، وهو أمر مهم كي لا يغتر المريد، بما يراه ويتكل عليه، كما أنه يبين أن شأن هذه الأمة كثرة الإلهام وقلة الرؤيا

---

(١) روى البخاري في صحيحه(كتاب الوضوء- باب فضل من بات على وضوء، الحديث رقم ٢٤٨) عن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:" إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة"

(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٥٠٤،وقد فصل الإمام الغزالي في شرح كون الرؤى من سبل التعرف على الغيب والملكوت

(٣) نقلا عن: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٢ / ٣٧٢

عكس الأمم السابقة.

٤ - تفسير للإمام الشعراني بشأن ضابط الرؤيا الصالحة:

عندما تذكر الرؤيا الصالحة فإن الذهن ينصرف ابتداء إلى ما فيه بشرى أو ما يدخل السرور على نفس الرائي؛ لكن الإمام الشعراني نقل أنه ربما كان من قبيل الرؤيا الصالحة ما قد يدخل على قلب الرائي الخوف؛ وأن هذا يكون لكبار الأولياء لتخلصهم من حظ نفوسهم، كما أنه ذكر فوائد أخرى متعلقة بأهمية النوم على طهارة وذكر لله.

قال رضي الله عنه: " أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه و سلم) أن نتحفظ من الشيطان كلما نريد النوم، وذلك بالنوم على طهارة باطنة وظاهرة وبقراءة الأذكار الواردة في ذلك؛ فإن من نام على حدث وعدم قراءة أذكار فمن لازمه عدم مفارقة الشيطان له فلا يزال يوسوس له بكثرة النوم ويريه المنامات الرديئة ليحزنه حتى يستيقظ؛فاعمل يا أخي بالأذكار الواردة عند النوم ونم على طهارة إن أردت الحفظ من الشيطان.

وقد سمعت أخي أفضل الدين [١] رحمه الله يقول: إنما كان أكابر الأولياء يرون المنامات الرديئة مع حفظهم من الشيطان تنشيطا لهم؛ لأن المنام وحي المؤمن وإنما كانوا لا يرون المنامات التي تسرهم، كالمريدين لقوتهم فإنهم فرغوا من الأمور التي تؤلفهم على الطريق، وعرفوا سعة فضل الله على العباد، فصاروا لا ينظرون إلا إلى الذي عليهم من الحقوق لا إلى الذي لهم، بخلاف المريد لو رأى المنامات الرديئة أول دخوله الطريق لانقطع عنها وفترت همته.ا.هـ

فقلت له إن في الحديث: [[الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان [٢]]]
وكل رؤيا أحزنت العبد فهي غير صالحة فكيف سميتموها صالحة ؟

---

(١) هو الشيخ أبو الفضل أفضل الدين الأحمدي، كان أخا للإمام الشعراني في الطريق وسبقه عن الأخذ عن شيخه سيدي علي الخواص، وقد أكثر الشعراني في النقل عنه في كتبه؛ لكثرة فوائده وكان لا يذكره إلا وهو يقول أخي وسيدي أفضل الدين،وقد ترجم له في الطبقات الكبرى ٢/ ١٤٩

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق- باب صفة إبليس وجنوده الحديث رقم ٣٣٢٨

فقال: لولا أنها صالحة ما نشطت ذلك الولي ولا نبهته على نقائصه إذ كل شيء أورث خير فهو خير ا.هـ

قلت: وقد وقع لي مرة أنني تمنيت أن أرى حالي في القبر فنمت فرأيت تلك الليلة أني نائم في القبر على طراحة خيش محشوة بشوك أم غيلان، وأنا أتقلب عليها فتنبهت لأمر كنت عنه غافلا، وهذا الحال لم يزل الحق ينبهني عليه في النوم؛ فربما أترك وردي ليلة، فأرى نفسي في لهو ولعب، أو حاملا حطبا، أو مارا في شجر التين؛ فأعرف بذلك أنني ملت إلى شهوة، أو عندي نفاقا، ونحو ذلك مما حُجبت عن شهوده في اليقظة؛ فإن اللهو يدل على الغفلة عن الله، وحمل الحطب إشارة للنفاق! فإن كان النفاق الذي عندي قليلا رأيت أنني حامل حطبَ الطرفاء، وإن كان فوق ذلك رأيت أنني حامل حطب الزند، وإن كان خشبا علمت أن عندي نفاقا عظيما.

وأما شجر التين فهو علامة على القرب من الوقوع في معصية؛ لأن شجرة التين هي التي أكل منها آدم عليه السلام، وهذا كله من جملة فضل الله علي؛ لأتوب من ذلك وأستغفر؛ فالحمد لله رب العالمين"(١)

فينبغي على المريد أن يحسن ظنه بربه، وأنه ربما تكون بعض الرؤى الرديئة فيها تنبيه له على تقصيره أو قربه من الوقوع في معصية من المعاصي.

٥- بيان حال المغتر بالرؤى الصالحة للشيخ إسماعيل حقي:

من جملة الأمور التي تتكرر معنا بشأن ما يحدث للسالك من إشراقات أنه لا ينبغي للمريد أن يغتر بحصول أي منها له؛ إذ هي من جملة النعم ومحض الفضل الإلهي؛ الذي لا يثبت تحقق المريد بمقام معين، ولذلك يذكر لنا الشيخ إسماعيل حقي الخلوتي في تفسيره روح البيان هذه الحال من بعض المريدين فقال: " بعض أرباب الطلب ممن يركن الى شهوات الدنيا في أثناء

---

(١) لواقح الأنوار القدسية في العهود المحمدية للعارف عبد الوهاب الشعراني صـ١٩٠ ط.دار اقرأ، الأولى ٢٠٠٤م

الطلب فيتظفر عليه الشيطان ويغره بزهده فيوقعه في ورطة العجب فينظر الى نفسه بنظر التعظيم والى الخلق بنظر التحقير فيهلك او يغتر بما ظهر في أثناء السلوك من بعض الوقائع الصادقة والرؤيا الصالحة وشيء من المشاهدات والمكاشفات الروحانية لا الرحمانية فيظن المغرور ان ليس وراء عبادته قربة وانه بلغ مبلغ الرجال فيسكت عن الطلب وتعتريه الآفات حتى أحاطت به خطيئته فرجع القهقرى الى أسفل الطبيعة"(١)

فينبغي على المريد ألا يغتر بما يحصل له من رؤى؛ فإن غايتها أنها من باب البشرى والحث على الاستمرار في طاعة الله عزوجل

٦ – تفسير الشيخ الدباغ للرؤيا الصالحة وأنها من قبيل البصيرة ونزع حظ الشيطان:

من أوسع من تكلم عن الرؤيا بشكل عام وأنواعها وأسباب كل منها علة نحو فريد الشيخ عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه؛ ومن جملة ما ذكره أن الرؤيا الصالحة تعد من قبيل نزع حظ الشيطان مما يهيء للبصيرة أن ترى الرؤى الصالحة؛ فقال رضي الله عنه:" الرؤيا الصالحة تستمد من جزء من الأجزاء الآدمية الذي هو نزع حظ الشيطان، ومن جزء من أجزاء الروح الذي هو البصيرة. فالبصيرة إذا نزلت على نزع حظ الشيطان من الذات تولد من مجموعها المرائي الحسان.

فقلت: فهذا يقتضي أن يقول في الحديث إنها جزآن بالتثنية من أجزاء النبوة، لأن نزع حظ الشيطان والبصيرة جزآن لا جزء واحد فتكون الرؤيا على هذا جزءين لا جزء واحد.

فقال رضي الله عنه: مدار الرؤيا في الحقيقة على نزع حظ الشيطان، وأما جزء الروح فيها فهو تابع ومساعف، فمن نزع الله منه حظ الشيطان كانت أفكاره كلها في الخير، فإذا نام رأى الخير الذي كان فكره يخوض فيه فكانت رؤياه صالحة، ومن لم ينزع منه حظ الشيطان كانت أفكاره بخلاف ذلك، فكانت مرائيه غير صالحة" (٢)

---

(١) روح البيان لإسماعيل حقي ١/ ١٧١

(٢) الإبريز ص٦٨

فالرؤيا وفق كلام الدباغ تكون وفق ما يغلب على حال المريد من صلاح وخير أو خلافهما.

تتمة منيفة في رؤية سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة:

من الأمور التي قد تحدث لبعض السالكين إلى الله، ممن تعلقت أرواحهم ونفوسهم بمحبة سيد الكونين وصاحب الوحيين صلى الله عليه ألآله وسلم، أنهم يرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم حال اليقظة على صورته الشريفة، وقد تعرض لهذه المسألة كبار العلماء وصفوة الأولياء الذين اتبعتهم الأمة وأخذت عنهم أمور دينها، وقد قرر هؤلاء العلماء أن رؤية النبي صلي الله عليه وسلم في اليقظة ليست من المسائل التشريعية التي يترتب عليها زيادة في الدين، أو نقص فيه، وإنما هي مسألة واقعية يتحمل مسئوليتها من ادعى ذلك، وهي من قبيل المبشرات، ومن قبيل الكرامة، وهذه الرؤية لا تتنافى مع كونه صلي الله عليه وسلم انتقل من حياتنا هذه، ولا يلزم منها دعوى الصحبة، فإن الصحبة تثبت لمن رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مؤمنا في حياته الدنيوية، وليس بعد انتقاله صلى الله عليه وآله وسلم

ورغم ذلك أنكر جماعة من ضعاف العقول ذلك على السادة الصوفية؛ وجعلوا ذلك من الخرافات، وراحوا يشنعون بها على التصوف، وإنكارُهم في الحقيقة دليل جهلهم، وبعدهم عن مناهج العلماء الربانيين، الذين يجمعون بين النصوص ملتزمين بقواعد اللغة والشرع والعقل.

ومن أعجب العجب أن هؤلاء المنكرين يدعون دائما اتباعهم للسنة وأنهم يلتزمون بما ورد، ثم إذا ما احتج عليهم أحد بما صح في السنة أولوه بلا دليل من عقل أو نقل اتباعًا للهوى وتمسكا بالإنكار على عباد الله الصالحين.

ومن أجل ذلك نورد هنا بعض أدلة القوم على صحة ما نقلوه من إمكانية رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم يقظة؛ ثم نستعرض بعض ما ذكره القوم حول حصول الرؤية لعدد من كبار الأولياء وشروط ذلك عندهم:

أولًا أدلة إمكانية حصول رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم حال اليقظة:

١- حديث الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " من رآني في المنام فسيراني في اليقظة "[١]

فهذا الحديث ظاهره يدل على جواز الرؤية في اليقظة وأن كل من أكرمه الله برؤيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فإن الله يكرمه بحصول ذلك في اليقظة أيضًا؛ قال الإمام العارف ابن أبي جمرة في شرح هذ الحديث:" ظاهر هذا الحديث يدل على حكمين أحدهما أنه من رآه صلى الله عليه وسلم في النوم فسيراه في اليقظة.."ثم قال بعد ذلك: " هل ذلك على عمومه لكل من رآه عليه السلام أو خاص؟ فاعلم أن الخير كله المقطوع به والمنصوص عليه والمشار إليه بأدلة الشرع وقواعده إنما هو لأهل التوفيق، ويبقى في غيرهمعلى طريق الرجاء للجهل بعاقبتهم، فلعلهم ممن قد سبقت لهم سعادة في الأزل، فلا يقطع عليهم باليأس من الخير"[٢]

٢- رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم للأنبياء واجتماعه بهم في ليلة الإسراء؛ ولا شك أن ذلك كان له على سبيل المعجزة، ومن ثم فإن ذلك يؤذن بإمكان حصوله على سبيل الكرامة؛ فإن ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، بشرط عدم التحدي [٣].

٣- إمكان الرؤية عقلًا؛ وعدم ترتب المحال عليها كما زعم المنكرون؛ إذ الرؤية لا تتعدى أن تكون رؤية مثال النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ والمثال قد يتعدد، ولا إشكال في ذلك، فكما يتعدد المثال في حالة النوم فيرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة واحدة من أكثر من شخص، فيجوز حصول ذلك في اليقظة أيضًا.

قال الإمام الغزالي: " ليس معنى قوله: «فقد رآني» أنه رأى جسمي وبدنى وإنما المراد أنه رأى مثالا صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذى في نفسى إليه، وكذلك قوله: «فسيراني في

---

(١) انظر الجمع بين الصحيحين ٣ / ٧٤، الحديث: ٢٢٥٤

(٢) بهجة النفوس ٢٣٧/٤ وما بعدها

(٣) هذا ما عليه جماهير أهل السنة والجماعة من جواز وقوع الكرامات بكل أنواع خوارق العادات؛ لشمول قدرة الله للاثنين وانظر في تفصيل هذه المسألة: شرح المقاصد للسعد التفتازاني ٢/ ٢٠٣ ط.دار المعارف النعمانية، تشنيف المسامع شرح جمع الجوامع للزركشي ٧٩٦/٤،

اليقظة» ليس المراد أنه يرى جسمي وبدني.

قال: والآلة تارة تكون حقيقية وتارة تكون خيالية، والنفس غير المثال المتخيل، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى- صلى الله عليه وسلم- ولا شخصه بل هو مثال له على التحقيق"[١]

إذن فما مر هو بعض أدلة السادة الصوفية على إمكانية رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة، وقد صنف كثير من العلماء في خصوص هذه المسألة، ولمن أراد التوسع يمكنه مراجعة كتاب: "تنوير الحلك في رؤية النبي والملك" للإمام السيوطي، وكتاب "الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء يقظة بسيد الدنيا والآخرة" للشيخ عبد القادر بن الحسين بن مغيزل الشاذلي

ثانيا: بعض ما نقل عن السادة الصوفية من حصول ذلك لبعض الأكابر وشروطه لديهم:

نقلت هذه الكرامة عن بعض أكابر الصوفية، ورغم ذلك لم يزدد إلا تواضعا ومحبة وإقبالا على الله جل في علاه،:

- وممن اشتهر عنهم حصول ذلك الإمام أبو العباس المرسي تلميذ الإمام الشاذلي ووارث حاله؛ حتى نقل عنه قوله: " لو غاب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ما عددت نفسي من المسلمين"[٢]

- ومن مشايخ الشاذلية أيضًا سيدي علي الجمل العُمراني المتوفى ١١٩٤هـ نقل عنه قوله: " مما منَّ الله به عليَّ أني ما ذكرتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خطر على قلبي إلا وجدتني بين يديه"[٣]

وقد ورد ذلك عن كثير من أهل الله والأولياء؛ منهم من ظهر أمره، ولاح نوره، ومنهم من ظل من الأخفياء الأتقياء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) ذكر هذا النقل الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٢/ ٣٨٨ ط.دار المعرفة

(٢) البحر المديد لابن عجيبة الحسني ٣/ ٥٤

(٣) البحر المديد لابن عجيبة الحسني ٣/ ٥٤

و هذه الرؤية الشريفة قد تكلم السادة الصوفية عن بعض شرائطها أو مقدماتها التي يرجى معها حصول هذه الرؤية، ومن جملة هؤلاء:

١- الإمام الغزالي:

ذكر الإمام الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال وهو يثني على طريق الصوفية ويبين أن طريقهم كله خير وبركة والتزام بالشرع الشريف فقال: "

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟!

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه، ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها النطق"[١]

٢- الشيخ عبد العزيز الدباغ:

للشيخ عبد العزيز الدباغ تفصيل مهم في خصائص وشرائط حصول رؤية اليقظة، وأن هذه دونها مراتب ومقامات ولكل مقام منها حقوق لا بد من تأديتها، ولا يصح ادعاء المشاهدة والرؤية عند السادة الصوفية دون المرو على هذه المراتب أو تحصيل هذه الحقوق والآداب؛ فقال رضي الله عنه:

"وعلى العبد في كل مشاهدة من هذه المشاهدات حق من حقوق الربوبية، وأدب من آداب العبودية، ويعرض له في ذلك قواطع، وتعتريه عوائق، ويشاهد أمورا هائلة قتالة، فلولا توفيق الله تعالى وفضله على العبد الضعيف ورحمته به لكان أقل درجاتها يرجع بسببها من جملة الحمقى، ثم قطعه لمقامات المشاهدة وأهوالها أصعب عليه من قطعه مقامات خواص النفوس،

---

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالي صـ١٧٨ ط.دار الكتب الحديثة

لأن قطعه لمقامات الخواص باطني لا يشعر به إلا بعد الفتح، وقطعه لمقامات المشاهدة ظاهري يعاينه ويراه، لأنه أمر يخوضه بعد الفتح؛ فإذا صفا نظره وتم نور بصيرته ورحمه الله الرحمة التي لا شقاء بعدها، رزقه الله سبحانه رؤية سيد الأولين والآخرين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فيراه عيانا ويشاهده يقظة، ويمده الله تعالى بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فحينئذ يحصل على مقام الهناء والسرور، فهنيئا له السعادة"[١]

٣- الإمام عبد الوهاب الشعراني:

نقل الإمام الشعراني في كتبه عن مشايخه بعض ما ذكره السادة الصوفية في بيان معنى رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقظة، ومنها أن ذلك لا يكون إلا بيقظة القلب؛ وقد نقل ذلك عن الشيخ محمد المغربي الشاذلي [٢] قال:" وكان رضي الله عنه يقول في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة المراد برؤيته كذلك يقظة القلب، لا يقظة الحواس الجسمانية؛ لأن من بالغ في كمال الاستعداد، والتقرب صار محبوبا للحق، وإذا أحبه كان نومه من كثرة اليقظة القلبية كحال اليقظة التي لغيره، وحينئذ لا يُرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بروحه المتشكلة بتشكل الأشباح من غير انتقال بانتقال ذاته الشريفة، ومجيئها من البرزخ إلى مكان هذا الرائي لكرامتها وتنزيهها عن كلفة المجيء،

والرواح هذا هو الحق الصراح"[٣]

فبان من كلام هؤلاء الأكابر جميعًا أن طريق الصوفية ليس طريق دعوى ولا افتراء، وإنما هو طريق تحقق واجتباء، وأن من سلكه يطلب به وجوه الناس والمكانة عندهم، رجع كما دخله، فلا يفلح شأنه، ولا يرتفع حاله، نسأل الله السلامة في الدين والدنيا والآخرة.

---

(١) الإبريز صـ ١٧٦

(٢) انظر ترجمته في الطبقات الكبرى ٢/ ١٠١

(٣) الطبقات الكبرى ٢/ ١٠٣

(٨) الأنوار:

من أنواع الإشراقات التي تعرض لدراستها السادة الصوفية " الأنوار"، فتكلموا عن حقيقة النور ومعانيه وأنواعه ووظائفه وغير ذلك مما سبقوا فيه غيرهم.

وقد وردت مادة الـ"نور" في القرآن الكريم في نحو ثلاثين موضعًا؛ مما يشير إلى اهتمام القرآن بمعنى النور وأنه مما ما ينبغي الالتفات إليه؛ ومن هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

- وقوله تعالى:﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُور﴾ [النور:٤٠]

- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد:١٢]

وقد تتبع الراغب الأصفهاني معاني النور الواردة في آيات القرآن الكريم فذكر أنها على قسمين فقال: " وذلك ضربان دنيوي، وأخروي، فالدنيوي ضربان:

ضرب معقول بعين البصيرة؛ وهو ما انتشر من الأمور الإلهية؛ كنور العقل، ونور القرآن.

- ومحسوس بعين البصر؛ وهو ما انتشر من الأجسام النيرة؛ كالقمرين [(١)] والنجوم والنيرات.

فمن النور الإلهي قوله تعالى:﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة:١٥]، وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقال: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النور: ٣٥]، ومن المحسوس الذي بعين البصر نحو قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

---

(١) المراد هنا الشمس والقمر؛ وهذا من باب التغليب فالعرب تقول على الشمس والقمر: القمران، وتقول على التمر والماء الأسودان، انظر حاشية الصبان على شرح الأشموني ١/ ١١٣ ط.العلمية

[يونس: ٥] وتخصيص الشمس بالضوء، والقمر بالنور من حيث إن الضوء أخص من النور، قال: ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] أي: ذا نور.

ومما هو عام فيهما قوله: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله: ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩].

- ومن النور الأخروي قوله: ﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ [الحديد: ١٢]، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، ﴿ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [الحديد: ١٣]، ويقال: أنار الله كذا، ونوَّره، وسمى الله تعالى نفسه نورا من حيث إنه هو المُنوِّر، قال: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور/ ٣٥] وتسميته تعالى بذلك لمبالغة فعله"(١)

وقد ورد ذكر "النور" كذلك في الحديث الشريف ومنه قوله ﷺ " " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله (٢)"

وسيأتي من خلال النقول عن السادة الصوفية شرح هذه المعاني الواردة في الكتاب والسنة.

الأنوار لغة واصطلاحًا:

الأنوار جمع نور، والنور لغة: هو الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار (٣)

أما في الاصطلاح: فللسادة الصوفية عدد من الاستعمالات للفظ "النور" و"الأنوار" وكل معنى يفهم من خلال سياقه، لكن يمكن رد ذلك إلى ستة أنواع من الأنوار، وذلك على النحو التالي:

١- النور: بمعنى التجلي وانكشاف الغيوب:

---

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني صـ٧٢٧ -٧٢٨

(٢) رواه الترمذي في سننه عن أبي سعيد، كتاب التفسير،باب ومن سورة الحجر، ورواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة وقال الهيثمي في مجمع الزوائد إسناده حسن، وقد مر تمام تخريجه قبل.

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ٧٢٧، ط.دار القلم دمشق، الأولى

فالسالك إلى الله قد تنكشف له أثناء سيره بعض الغيوب إما على سبيل الابتلاء والاختبار أو على سبيل التثبيت والإقرار.

وقد فصل السادة الصوفية في ذلك أيما تفصيل حتى ذكروا أنواعا عديدة لهذه الأنوار الغيبية التي تظهر لبعض السالكين سواء ما كان من عالم الملكوت الذي يدرك بالعِلم أو الجبروت الذي يدرك بالبصيرة [1].

- ومن جملة هؤلاء الصوفية الذين تكلموا عن هذه الأنوار والإشراقات الغيبية الإمام الغزالي حيث يقول في الإحياء: " وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغِرة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة"[2]

فالإمام الغزالي بين حقيقة ظهور هذه الأنوار وأنها تصاحب انكشاف بعض أسرار الملكوت الغيبية، كما ذكر في آخر هذا النص شرائط ذلك أو أسبابه المؤدية إليه.

- ومن ذلك أيضًا ما ذكره الشيخ الأكبر سيدي محي الدين في الفتوحات فقال: " اعلم أن التجلي عند القوم ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، وهو على مقامات مختلفة؛ فمنها ما يتعلق بأنوار المعاني المجردة عن المواد من المعارف والأسرار، ومنها ما يتعلق بأنوار الأنوار، ومنها ما يتعلق بأنوار الأرواح وهم الملائكة، ومنها ما يتعلق بأنوار الرياح ومنها ما يتعلق بأنوار الطبيعة، ومنها ما يتعلق بأنوار الأسماء، ومنها ما يتعلق بأنوار المولدات والأمهات والعلل والأسباب على مراتبها، فكل نور من هذه الأنوار إذا طلع من أفق ووافق عين البصيرة سالما من العمي والغشي والصدع والرمد وآفات الأعين كشف بكل نور ما انبسط عليه؛

(١)انظر إيقاظ الهمم صـ٢٨٩، وانظر في معناهما كذلك شرح الصلاة المشيشية لابن عجيبة صـ٢٤، جمع العمراني الخالدي ط.دار الرشاد الحديثة الدرا البيضاء المغرب ١٩٩٤ م.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٩

فعاين ذوات المعاني على ما هي عليه في أنفسها، وعاين ارتباطها بصور الألفاظ والكلمات الدالة عليها وأعطته بمشاهدته إياها ما هي عليه من الحقائق في نفس الأمر، من غير تخيل ولا تلبيس، فمنها أنوار نسعى بها، ومنها أنوار نسعى إليها، ومنها أنوار نسعى منها، ومنها أنوار تسعى بين أيدينا، ومنها أنوار تكون خلفنا يسعى بها من يقتدي بنا، ومنها أنوار تكون عن إيماننا تؤيدنا، ومنها أنوار تكون عن شمائلنا تقينا، ومنها أنوار تكون فوقنا، تنزل علينا لتفيدنا، ومنها أنوار تكون تحتنا نملكها بالتصرف فيها، ومنها أنوار نكونها هي أبشارنا، وفي أبشارنا وأشعارنا وفي أشعارنا وهي غاية الأمر [١]".

وقد فصل الشيخ بعد ذلك في بيان كل نوع من هذه الأنواع على نحو فريد؛ بحيث يربط بين تلك المعاني وبين ما جاء في الوحي من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم [٢].

وقريب من ذلك ما نقل عن الشيخ العارف سيدي عبد العزيز الدباغ كما في الإبريز فقال: " فاعلم أن العبد إذا فتح الله تعالى عليه أمده بنور من أنوار الحق يدخل على ذاته من جميع الجهات، ويخرقها حتى يخرق اللحم والعظم، ويعاني من برودته ومشقة دخوله على الذات ما يقارب سكرات الموت، ثم إن ذلك النور من شأنه أن يمده بأسرار المخلوقات التي أراد الله أن يفتح على ذلك العبد في مشاهدتها، فيدخل النور على ذاته متلونا بألوان المخلوقات المذكورة"[٣]

وفي موضع آخر يرشدنا العارف الدباغ إلى نوع آخر من الأنوار قد يسبق الفتح فقال: "إن الفتح إذا أنزل على الذات قبل نور القوة حصل في الذات خلل وضعف يفضي إلى ما سبق من موت أو زوال عقل، وإذا نزل على الذات نور القوة أولا ثم نزل بعده نور الفتح لم تتضرر الذات بالفتح.

---

(١) الفتوحات المكية ٢/ ٥٣٧ وما بعدها

(٢) انظر الفتوحات المكية الباب السادس ومائتان ٢/ ٥٣٧-٥٤٢

(٣) الإبريز صـ١٧٧

فقلت: وما هذه القوة؟ فقال رضي الله عنه وقد نظر إلى عشبة ضعيفة: لو أمد الله هذه العشبة الضعيفة بالقوة التي نتكلم عليها لأطاقت حمل ذلك الجبل، يشير إلى جبل كان أمامنا، فالموفق يطلب من الله تعالى أن ينزل عليه نور القوة قبل نزول نور الفتح عليه، والله أعلم" (١)

فهذه الأنوار الغيبية التي تنكشف للسالك تحصل له مصاحبة لحال الفتح الذي قد سبق أن تعرضنا له من قبل، وكأنه نوع من التهيأة لما يلي ذلك من التحقق في مقامات العبودية؛فإن زيادة العلم تقتضي من العبد زيادة الخشية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]

٢ – الأنوار التي تكون بسبب الإيمان:

ذكر السادة الصوفية ضمن ما فصلوه من أنواع الأنوار؛ الأنوار المتعلقة بالإيمان، فإن للإيمان نورا، كما أن للطاعات نورا؛ونور الإيمان يكون لعموم المؤمنين قال الإمام العارف ابن عجيبة في تعليقه على قول ابن عطاء الله السكندري في الحكم " أنوار أذن لها في الوصول وأنوار أذن لها في الدخول" قال: " اعلم أن الأنوار التي أذن لها في الوصول عامة لجميع المؤمنين، وقد تقدم قول أبي الحسن لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، وأما الأنوار التي أذن لها في الدخول فهي خاصة بالخواص أهل التفرغ من الأغيار ولوث الأنوار فأما من كان قلبه محشوا بصور أثارها فلا يطمع في نيل أسرارها" (٢)

فالسادة الصوفية يعظمون شأن الإيمان وشأن المؤمنين؛ لما شاهدوه من أنوار الإيمان ولو من عصاة المؤمنين؛ كما في النقل عن سيدي أبي الحسن الشاذلي، على عكس المرجفين والمتطرفين الذين يسعون في الأرض فسادا؛ فسفكوا دماء المؤمنين، بعد أن استقلوا إيمانهم واحتقروا شأنهم.

ويكشف لنا ولي آخر عن حقيقة أنوار الإيمان؛ وأنه ربما يكون عند بعض العوام أقوى من

---

(١) الإبريز صـ٢٦٧

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة صـ ٤٤٠

بعض العباد! فيقول سيدي عبد العزيز الدباغ:" إني أنظر أحيانا إلى أنوار الإيمان الخارجة من الذوات حتى تتصل بالبرزخ (١)، وهي أنوار مختلفة بالرقة والغلظ، والرقة تدل على ضعف الإيمان، والغلظ على قوته، ثم ننظر إلى العباد الذين في الكهوف والفلوات فنرى الرقة غالبة على أنوراهم إلا من قلَّ منهم، وننظر إلى العامة فنرى أنوارهم أحسن من أولئك المنقطعين، لاعتماد العوام على فضل الله سبحانه واعتماد العباد غالبا على عبادتهم"(٢)

فلذلك كان توجيه السادة الصوفية إلى عدم الاعتماد على الأعمال، وأن الرجاء يكون في رحمة الله دون ما سواه.

٣ -الأنوار بمعنى الفرقان بين الحق والباطل:

من استخدامات مصطلح النور عند السادة الصوفية أن يكون بمعنى الفرقان؛ أي ما يفرق بين الحق والباطل، بل بين مراتب السير في الطريق؛ للوقاية من الشبهات والآفات.

- قال العارف ابن عجيبة في تفسير البحر المديد: " يقول الحق جل جلاله: يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله، كما أمركم، يجعل لكم فرقانا نورا في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل، والحسن والقبيح، قال ابن جزي: وذلك دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة"(٣)

- ثم يزيد الأمر اتساعًا بعد ذلك ليقول: " الفرقان الذي يلقيه الله في قلوب المتقين من المتوجهين هو نور الواردات الإلهية، التي ترد على القلوب من حضرة الغيوب، وهي ثلاثة

---

(١)يقصد بالبرزخ في كلام السادة الصوفية معاني منها: "العالم المشهور بين عالم المعاني المجردة والأجسام المادية والعبادات تتجسد بما يناسبها إذا وصل إليه وهو الخيال المنفصل وهو الحائل بين الشيئين ويعبر به عن عالم المثال أعني الحاجز من الأجسام الكثيفة وعالم الأرواح المجردة أعني الدنيا والآخرة" التعريفات للجرجاني صـ٤٤:"، ويطلق أيضًا على مكان تجمع الأرواح بعد خروجها من الأجساد وهو ظاهر عبارة الشيخ الدباغ هنا.

(٢) الإبريز ١٦٢

(٣) البحر المديد ٢/ ٣٢٤

أقسام: وارد الانتباه: وهو نور يفرق به بين الغفلة واليقظة، وبين البطالة والنهوض إلى الطاعة، فيترك غفلته وهواه، وينهض إلى مولاه، ووارد الإقبال: وهو نور يفرق به بين الوقوف مع ظلمة الحجاب وبين السير إلى شهود الأحباب، ووارد الوصال: وهو نور يفرق به بين ظلمة الأكوان، ونور الشهود، أو بين ظلمة سحاب الأثر وشهود شمس العرفان"(١)

- ويوافق ذلك أيضًا ما نقله الحكيم الترمذي في نوادر الأصول حيث قال عن تفسير قوله تعالى: {فرقانا}: "قال أهل التفسير: إخراجًا؛ أي من الشبهات والظلمات، فأما محض التفسير؛ فالمخرج أن يجعل له نورا في قلبه، يفرق بين الحق والباطل؛ حتى يكون له مخرجا من ظلمة الجهل وشبهات الدنيا، فإن الجهل يظلم والدنيا تزين على الآدمي شهوته التي في جوفه فتشبه عليه حتى تخدعه فبتقواه من هذه الأشياء يجعل له فرقانا، وهو النور يفرق بين الحق والباطل، هذا ثواب التقوى في عاجل دنياه، وثوابه في الآخرة قربته وكرامته ورفعة درجته"(٢)

٤- النور بمعنى آثار العبادات والطاعات القلبية:

يطلق السادة الصوفية أيضًا لفظ "الأنوار " على آثار العبادات والطاعات في القلب؛ حيث تسبب أنوارا في القلوب، كما تحدث المعاصي ظلمة في القلوب.

وهو المعنى المنقول عن أئمة السلف رضي الله عنهم؛ كما في حلية الأولياء للإمام أبي نعيم قال: " سمعت الحسن بن صالح (٣)، يقول: «العمل بالحسنة قوة في البدن، ونور في القلب،وضوء في البصر، والعمل بالسيئة وهن في البدن، وظلمة في القلب، وعمي في

(١) المرجع السابق ٢/ ٣٢٤.

(٢) نوادر الأصول ١/ ٢٣٨ ط.دار الجيل بيروت،ت:عبد الرحمن عميرة

(٣)الحسن بن صالح بن مسلم بن حي الهمداني الثوري أبو عبد الله الكوفي العابد ثقة في الحديث والورع ولد سنة مائة ومات سنة تسع وستين ومائة، وانظر ترجمته في حلية الأولياء ٧/ ٣٢٧، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٧٢ ط.الرسالة، الثالثة.

البصر "[١]

- وقال العارف الشعراني:" (أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه و سلم) أن لا نتهاون بارتكاب شيء من صغائر الذنوب فضلا عن كبائرها ولا بارتكاب شيء من مكروهاتها حتى خلاف الأولى منها، ولا نصر على ذنب بل نتوب منه على الفور وذلك لأن ارتكاب المعاصي وما قاربها مع الإصرار يظلم به القلب حتى يصير لا يحن إلى فعل شيء فيه خير وتتفاوت الناس في مقدار ظلمة القلب بحسب مقاماتهم فربما أن بعض الناس لا يحس بظلمة القلب عند ارتكاب الكبائر دون الصغائر وربما إن بعضهم لا يحس بظلمة القلب إلا عند ارتكاب الصغائر دون المكروهات وربما إن بعضهم لا يحس بظلمة القلب إلا عند ارتكاب الكبائر دون الصغائر وربما أن بعضهم لا يحس بظلمة القلب إلا عند ارتكاب الصغائر دون المكروهات وربما أن بعضهم لا يحس بظلمة القلب إلا عند ارتكاب المكروهات دون خلاف الأولى ولكل مقام رجال فكلما صفا القلب كلما ظهر فيه الظلمة وأدركها بصر صاحبها كالحبر على الورق وكلما تكدر القلب خفي فيه الظلمة ولم يدركها بصر صاحبها كالحبر على الفحم فيحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ناصح يسد عليه جميع المخارس [٢] التي يدخل منها الشيطان، ويشغله بالطاعات المتوالية حتى تتراكم عليه الأنوار، ويخلص من سائر الذنوب، ويدخل حضرة الإحسان، فهناك لا يتهاون بذنب ولو خلاف الأولى، فضلا عن المكروهات، فضلا عن الصغائر، فضلا عن الكبائر؛ فإن أهل كل حضرة يساعدون بعضهم بعضا بمشاهدة بعضهم أحوال بعض، ومن هنا شرطوا في إتمام

---

(١) حلية الأولياء ٧/ ٣٣٠

(٢) كذا هي في المطبوعة بالخاء المعجمة، ولعله تصحيف مصدره المخطوطة المنقول عنها؛ لأن هذه الكلمة لا معنى لها في هذا السياق، فهي على الأرجح محارس بالمهملة، وهي كلمة تطلق على المكان الذي يأوي ويرابط فيه الجند ومفردها محرس أي مكان الحراسة؛ وهي مستخدمة كثيرا في كتب البلدان والتواريخ بهذا المعنى انظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ١/ ٧٢ ط.العلمية، فيكون المعنى بناء على ذلك أن للقلب منافذ ينفذ منه الشيطان لولا وجود جنود الأنوار الناتجة من توالي الطاعات والأوراد.

التوبة هجر إخوان السوء لئلا يزلزلوا توبته بمشاهدتهم لمعاصيهم وأمروا التائب أن يخالط أهل الطاعات ليشاهد طاعاتهم وينقل نفسه من المعاصي والطباع تسرق من الجليس الأفعال التي يشاهدها منه من خير وشر ولو على طول فينتقل جميع ما في ذلك الجليس لك يا أخي فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها"(١)

فهذا البيان من الشيخ الشعراني يوضح أهمية آثار العبادات في تنوير القلب، ومقدار ما ينبغي أن يحرص عليه المريد من التزام شيخ يساعده بتوالي الأوراد على إخراج ظلمة المعاصي من قلبه، حتى يكون على أول طريق الاستقامة.

وفي سياق قريب ينقل كذلك العارف الشعراني عن شيخه الخواص ضرورة إخراج شهوة المعصية من القلب كي تحصل أنوار الطاعة أثرها فقال: " وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول: ما دامت شهوة الذنوب في القلب فلا فائدة في الطاعات؛ لأن ظلمة شهوة المعصية تمنع دخول نور الطاعات إلى القلب والمدار على حصول النور في القلب حتى يصلح لمجالسة الرب. { والله غفور رحيم }"(٢)

فلابد للمريد أن يجاهد نفسه بغية الوصول إلى صلاحية دخول الحضرة الربانية والتأهل للتنزلات النورانية.

٥- أنوار الترقي في مراتب النفس المختلفة:

يرى بعض السادة الصوفية ومنهم القطب سيدي عبد القادر الجيلاني أن هناك نوعا من الأنوار قد تظهر لبعض السالكين على ألوان مختلفة، يمثل كل لون منها درجة من درجات الترقي والسلوك بحسب الأنفس السبعة؛ فيقول سيدي عبد القادر في رسالته (الأسماء السبعة) وهو يتكلم عن تفصيل كل اسم فيقول (٣):

---

(١) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية صـ ٥٧١

(٢) المرجع السابق صـ٣٦٦

(٣) من المهم التنبيه عليه أن لطريق سيدي عبد القادر اختيارا وترتيبا للاسماء الأصول ثم للفروع قد يختلف

- عن الذكر بــ (لا إله إلا الله): " فهذا الاسم الأول للنفس الأمارة فلون نورها أزرق ومحلها الصدر [١]"

-و أما الذكر بــ (يا الله) فيقول عنه: "وهذا الاسم الثاني للنفس اللوامة، ولون نورها أصفر، ومحلها القلب [٢]"

- وأما الذكر بـ (هو) فيقول عنه: " وهذا الاسم الثالث للنفس الملهمة، ولون نورها أحمر،ومحلها الروح [٣]"

- وأما الذكر بــ (يا حي) فيقول عنه: " وهذا الاسم للنفس المطمئنة، ولون نورها أبيض وعالمها الحقيقة المحمدية ومحلها السر [٤]".

- وأما الذكر بــ (يا واحد) فيقول عنه: " وهذا الاسم للنفس الراضية ولونها اخضر وعالمها اللاهوت وواردها المعرفة ومحلها سر السر [٥] "

- وأما الذكر بــ (يا عزيز) فيقول عنه: " وهذا الاسم للنفس المرضية ولون نورها أسود وعالمها الشهادة ومحلها الأخفى وليس لها وارد [٦]"

- وأما الذكر بــ(يا ودود) فيقول عنه: " وهذا الاسم للنفس الكاملة ليس لها نور، عالمها الحيرة واردها جميع ما ذكر [٧]"

مع بعض اختيارات الطرق الأخرى،وهو أمر بحسب تجربة واجتهاد كل شيخ في طريقه، وبحسب ما يفتح الله عليه

(١) رسالة في الأسماء العظيمة لسيدي عبد القادر الجيلاني صـ ٣٠،ت: محمد غسان، ط.دار السنابل، الثانية

(٢) المرجع السابق صـ٣١

(٣)المرجع السابق صـ٣٢

(٤)المرجع السابق صـ٣٣

(٥)المرجع السابق صـ٣٣

(٦)المرجع السابق صـ٣٤

(٧)المرجع السابق صـ٣٥

وعند السادة النقشبندية ما يسمى: اللطائف [١] الخمسة؛ وهي : لطيفة القلب والروح والسر والخفي والأخفى [٢]، وكلها من عالم الأمر الذي يتضمن الأرواح والروحانيات والملائكة [٣] ؛ فهي من أنوار الملكوت؛ فقالوا: " لكل لطيفة من لطائف عالم الأمر نور على حدة؛ ربما يظهر في أثناء سلوك لمن له كشف [٤]؛ فنور القلب أصفر واروح أحمر والسر أبيض والخفي أسود والأخفى أخضر ونور النفس بعد التزكية يظهر بلا كيف ولون"[٥]

فهذا نوع آخر يمكن رصده من كلام السادة الصوفية، فهو من جملة الإشراقات التي قد تحدث للسالك؛ فكان من المهم ذكرها لجملة المريدين حتى لا يلتفتوا إليها، أو يتشوشوا عند الاطلاع عليها.

٦ – الأنوار الحسية التي تُرى على بعض العباد والسالكين:

من أنواع الأنوار التي قد تحدث لبعض العباد والسالكين ما يرى عليهم من أنوار حسية يراها كل أحد، أو تظهر لبعض الناس فقط.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى حصول مثل هذه الأنوار؛ كما في قوله تعالى ﴿سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩]

فقد ذهب المفسرون في أحد أقوالهم إلى أنه ما يُرى من أنوار المواجهة في وجوه السالكين والعابدين؛ قال العارف ابن عجيبة في تفسيره: " وقوله تعالى: {سيماهم في وجوههم} أي:

---

(١) وقد سبق بيان معنى اللطيفة وأنها ما قابل الكثيف؛ كالأجساد فهي كثيفة أما الروح والنفس إلخ فهي لطائف لا تدرك بالحس المعتاد.

(٢) انظر في حقيقة اللطائف الخمسة وتفاصيلها عند السادة النقشبنديةكتاب رشحات عين الحياة صـ ٢٠٦

(٣)انظر في تفصيل معنى عالم الأمر وعالم الخلق: رشحات عين الحياة صـ١٥٧

(٤) يلاحظ ما في الكلام هنا من تدقيق مهم؛ حيث إن هذه الأنوار ليست بالضرورة أن يراها كل سالك أثناء السير، فليست هذه الأنوار شرطا في صحة السير ولا غاية في ذاتها؛ كما هو الحال في سائر الإشراقات.

(٥) ذيل الرشحات للشيخ محمد مراد بن عبد الله القزاني طبع على هامش رشحات عين الحياة صـ ٢٠٩، وانظر كذلك في هذا المعنى المكتوبات للإمام الفاروقي ٢/ ٩٨

نورهم في وجوههم، لتوجههم نحو الحق، فإن من قرب من نور الحق ظهرت عليه أنوار المعرفة، وجمالها وبهاؤها، ولو كان زنجيا أو حبشيا، وفي ذلك قيل:

وعلى العارفين أيضًا بهاء ... وعليهم من المحبة نور

ويقال: السيما للعارفين، والبهجة للمحبين، فالسيما هي الطمأنينة، والرزانة، والهيبة والوقار، كل من رآهم بديهة هابهم، ومن خالطهم معرفة أحبهم، والبهجة: حسن السمت والهدي، وغلبة الشوق، والعشق، واللهج بالذكر اللساني، والله تعالى أعلم"(١)

- وذكر الإمام الشعراني في طبقاته في وصف الإمام أبي العباس المرسي رضي الله عنه قال: " قال بعضهم صليت خلف الشيخ أبي العباس فشهدت الأنوار ملأت بدنه، وانبثت من وجوده حتى إني لم أستطع النظر إليه! "(٢)

فهذه الأنوار الحسية التي يراها بعض الخلق على هؤلاء الأكابر هي من جملة الإشراقات التي تحدث للسالكين؛ وكأنها نوع من تجلي الحق على عباده لأجل تعريف الخلق بفضل هؤلاء الذين أقبلوا على ربهم؛ حتى صارت رؤيتهم تذكر بالله لما علاهم من أنوار الحضرة والقرب؛كما في الحديث الشريف: "خياركم الذين إذا رءوا، ذكر الله عز وجل"(٣)

- وقد فصل الحكيم الترمذي في بيان هذا الحديث الشريف؛ فقال: " هم الأولياء الذين عليهم سمات ظاهرة من الله تعالى قد علاهم بهاء القربة ونور الجلال وهيبة الكبرياء وأنس الوقار فإذا نظر الناظر إليه ذكر الله لما رأى عليه من آثار الملكوت والقلب معدن هذه الأشياء ومستقر النور وشرب الوجه من ماء القلب فإذا كان على القلب نور سلطان الوعد والوعيد تأدي إلى الوجه ذلك النور فإذا وقع بصرك عليه ذكرك البر والتقوى ووقع عليك منه مهابة

---

(١) البحر المديد ٥/ ٤١٠

(٢) الطبقات الكبرى ٢/ ١٣

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب من لا يؤبه له، حديث رقم ٤٢٥٨، البوصيري في مصباح الزجاجة(٤/ ٢١٥ ط.دار العربية بيروت): " هذا إسناد حسن ".

الصلاح والعلم بأمور الله تعالى "[١]

فهنيئا لمن تكحلت عينه برؤية واحد من هؤلاء الأولياء، وتاقت نفسه لسلوك مسالك الأتقياء.

فصل في بيان أهمية عدم الالتفات إلى هذه الأنوار:

– ومما ينبغي التنبيه عليه أن السادة الصوفية بينوا –كما هو الشأن في سائر الإشراقات على أهمية ألا يلتفت السالك إلى رؤية هذه الأنوار سواء منها ما تعلق بالأنوار الغيبية أو الآثار القلبية أو ما كان من أنوار الظواهر.

– فمثلا تكلم الإمام الفاروقي السرهندي عن ذلك في المكتوبات فقال: " ثمّ سلوك طريق الصّوفيّة أيضًا مطلوب، لا لأجل مشاهدة الصّور والأشكال الغيبيّة ومعاينة الأنوار والألوان اللّاريبيّة، فإنّ هذا داخل في اللهو واللّعب وأيّ نقصان في الصّور والأنوار الحسّيّة، حتّى يتركها الإنسان ويشتاق إلى الصّور والأنوار الغيبيّة، ويقصدها بارتكاب الرّياضات والمجاهدات، وهذه الصّور والأنوار، وتلك الصّور والأنوار كلّها مخلوقة للحقّ سبحانه وآيات دالّة على صانعيّته تعالى ولنور الشّمس والقمر اللّذين في عالم الشّهادة مزيّة على الأنوار الّتي تشاهد في عالم المثال ولكن لمّا كانت رؤيتهما دائمة واشترك فيها الخواصّ والعوامّ أسقطوها عن نظر الإعتبار واشتاقوا إلى ما يرى في عالم الغيب من الأنوار، (شعر):

ولا قـــدر للـــماء الـــذي دام جاريـــا عـــلى بـــاب إنســـان وإن كـــان كـــوثرا

بل المقصود من سلوك طريق الصّوفيّة تحصيل ازدياد اليقين بالمعتقدات الشّرعيّة حتّى تخرج من مضيق الاستدلال إلى فضاء الكشف، ومن الإجمال إلى التّفصيل مثلا إنّ وجود الواجب الوجود تعالى وتقدّس ووَحْدَته سبحانه إذا كان أوّلا معلوما بطريق الاستدلال أو التّقليد وحصل اليقين به على مقدارهما، فإذا تيسّر سلوك طريق الصّوفيّة يتبدّل ذلك الاستدلال

(١) نوادر الأصول للحكيم الترمذي ٢/ ٣٩

والتّقليد كشفًا وشهودًا، ويحصل اليقين الأكمل "(١)

وينقل الإمام الشعراني كلاما دقيقا عن شيخه العارف علي الخواص فيقول:

كنت مرة جالسا عند سيدي علي الخواص رحمه الله وهو يضفر الخوص فمر بنا شخص من المتعبدين قوامين الليل الصائمين النهار والنور يخفق على وجهه فقلت له يا سيدي انظر إلى هذا النور العظيم الذي على وجه هذا الرجل فرفع الشيخ رأسه فقال: اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت إنك على ما تشاء قدير فقلت له: لماذا ؟ فقال: يا ولدي إذا أراد الله بعبد خيرا جعل نوره في قلبه؛ ليعرف ما يأتي وما يذر من الحَسَن والقبيح، وجعل وجهه كآحاد الناس، وإذا أراد الله بعبد سوءا نقل النور الذي في قلبه على وجهه، وأخلى باطنَه من النور، وجعله مظلما؛ ليقع في كل فاحشة وفي كل رذيلة ويقول له الناس مع ذلك شيء لله المدد يا سيدي الشيخ؛ لما يرونه من النور الذي على وجهه مع أن قلبه خراب مظلم.

فقلت له: يا سيدي أما يجمع الله تعالى لأحد بين النورين ؟ فقال: يمكن، ولكن قد أمرنا الله تعالى بالستر لأعمالنا في هذه الدار فلا يَظهر لنا كمالٌ إلا في محل يُقتدى بنا فيه، فقلت له: حصول النور على وجه العبد لا يجيء بالتفَعَّل (٢)؛ فقال: صحيح؛ ولكن لا يظهر عليه شيء قط إلا مع ميل سبق منه، ولولا ميلُه ما ظهر، فقلت له: فيحتاج الإنسان إلى ميزان دقيق، فقال: نعم وهو كذلك فربما ظهر كمالُ العبد بميل خفي لا يشعر به فليفتش العبد نفسه انتهى "(٣)

فينبغي على كل سالك ومريد أن يحرر نيته على وفق مراد الله عزوجل؛ فلا يقصد بعمله ولا بسلوكه إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

فبان من ذلك أنواع الأنوار التي ذكرها السادة الصوفية، وأنها ترجع إلى ستة أقسام، وأن المعول عليه من وراء كل ذلك هو استمرار السير السلوك، وزيادة الإيمان واليقين.

---

(١) المكتوبات للإمام السرهندي ١/ ٢٤٥

(٢) يريد أن حصول هذه الأنوار وهب وليس بالكسب والاجتهاد.

(٣) العهود المحمدية للشعراني ص٤٧٤

(٩) الأسرار:

من جملة الإشراقات التي تكلم عنها السادة ما أسموه بالأسرار؛ حيث بينوا حقيقتها وذكروا أنواعها مع تمام الاتساق مع أصول الشرع وحقائقه.

رفع إشكال حول حقيقة الأسرار:

وقبل البدء في بيان حقيقة الأسرار، لا بد من توضيح ورفع إشكال ربما يقع فيه بعض من لم يتعرف على حقيقة طريق الصوفية؛ هذا الإشكال مفاده أن كلام السادة الصوفية عن وجود أسرار في الشرع أو الدين يتعارض بشكل قاطع مع ما هو مقرر من أن دين الإسلام ليس فيه أسرار، وأن حقائقه وأحكامه متاحة للناس أجمعين.

وجواب هذا الإشكال سيتضح تماما وبشكل مفصل بعد بيان مراد السادة الصوفية من الأسرار، وشرح أقسامها، لكن ما يقتضيه الحال الآن أن نؤكد أنه ليس لدى السادة الصوفية ما لدى بعض الطوائف الضالة؛ كالباطنية الذين يدعون أن نصوص الشرع الشريف ظاهرها ليس مرادا، وأن وراء هذا الظاهر أسرارا تُعلم من قِبل الإمام أو المُعلم؛ يقول الإمام الغزالي حجة الإسلام وهو يحكي مذهب هؤلاء الباطنية: " فقد قالوا: كلُ ما ورد من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية؛ فكلها أمثلة ورموز الى بواطن "(١) و قد فند الإمام حجة الإسلام الذي هو من كبار أئمة التصوف هذا القول وبين أنه من أبطل الباطل وأشنعه، في كتابه المسمى بفضائح الباطنية الذي صنفه لبيان ضلال أفكارهم وبُعدها عن الشرع جملة وتفصيلا.

وأما السادة الصوفية فإنهم متفقون مع سائر المسلمين على أن ما ثبت بأصل الشرع من العقائد والأحكام والأخلاق ينبغي اعتقاده والعمل به، وأن ما بينه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك ليس وراءه معان أخرى مغايرة له قد كتمها عن عموم الخلق كما يزعم هؤلاء؛ فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكتم شيئا أمر بتبليغه قط، وقد قال الله تعالى في حقه

(١) فضائح الباطنية للإمام الغزالي صـ٥٥ مؤسسة دار الكتب الثقافية -الكويت

صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] فكيف يجتمع بيان وكتمان؟!

إذا علمنا ذلك واتضح أن الأسرار في اصطلاح الصوفية لا علاقة لها بهذه الأفكار الباطنية الباطلة؛ فمن المناسب الآن بيان وتفصيل المراد من معنى الأسرار، ووجه تعلقها بالإشراقات عند الصوفية.

الأسرار لغة واصطلاحًا:

الأسرار جمع سر، و السِّر: خلاف الإعلان، يقال أسررت الشيء إسرارا، خلاف أعلنته [(١)]

- وجاء في مختار الصحاح ما يلي: " (السِّر) الذي يُكتم وجمعه (أسرار)"[(٢)]

أما في الاصطلاح؛ فإن السادة الصوفية يطلقون لفظ السَّر على أمور متعددة، ومن أقدم النصوص الصوفية التي بينت استخدامات مصطلح "السِّر" عندهم على وجه الإجمال، ما ذكره الإمام القشيري في رسالته حيث قال: "ومن ذلك السِّر يحتمل أنها لطيفة مودعة في القالب؛ كالأرواح، وأصولهم تقتضي أنها محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل للمحبة، والقلوب محل للمعارف، وقالوا السِّر مالك عليك إشراف، وسر السر ما لا اطلاع عليه لغير الحق، وعند القوم على موجب مواصفاتهم ومقتضى أصولهم السِّر ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب، ويقولون الأسرار معتقة عن رق الأخبار من الآثار والأطلال، ويطلق لفظ السر على ما يكون مصونا مكتوما بين العبد والحق سبحانه في الأحوال؛ وعليه يحمل قول من قال: أسرارنا بكرٌ لم يفتضها وهمُ واهم، ويقولون: صدورُ الأحرارِ قبورُ الأسرار، وقالوا: لو عرَف زرِّى سرِّي لطرحته، فهذا طرف من تفسير إطلاقاتهم وبيان عباراتهم".[(٣)]

فهذا الذي ذكره الإمام القشيري يحتوي على بيان معاني السِّر وفق مصطلحات السادة

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (س ر ر) ٣/ ٦٧

(٢) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي ص١٤٦ مادة (س ر ر) ط.العصرية بيروت، الخامسة

(٣) الرسالة القشيرية ١/ ٢٠٦

الصوفية؛ وكلامه رضي الله عنه يشير إلى ثلاثة إطلاقات لمعنى السر عندهم إجمالا؛ وهي:

١-السر بمعنى اللطيفة المودعة في القالب؛ وهذا قريب من تعريف الإمام الجرجاني الذي قال: " لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن، وهو محل المشاهدة كما أن الروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة"(١)

فهذا هو المعنى الأول الذي أشرنا له من قبل عند دراسة مبحث "الأنوار" حيث تكلم السادة النقشبندية عما يتعلق بكل لطيفة من اللطائف الخمس من الأنوار.

٢ – السر بمعنى سر السر: وهو أخفى وألطف من السر بحيث إنه لا يطلع عليه إلا الحق جل جلاله، وهو كذلك ما نص عليه الإمام الجرجاني فقال: " ما تفرد به الحق عن العبد، كالعلم بتفصيل الحقائق في إجمال الأحدية وجمعها واشتمالها على ما هي عليه"(٢)

فسر السر هو ما يقع في السر مستقبلًا؛ فهو في علم الله حاضر؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧] (٣)

٣-السر بمعنى ما يكون بين العبد وبين ربه من أحوال يكتمها عن الخلق؛ وقد فسرها الشيخ زكريا الأنصاري في شرحه للرسالة بأنها من جملة الواردات الإلهية التي ترد على قلب السالك فيستحب له كتمانها عن سائر الخلق (٤)، وقد مر الكلام عن الواردات في مبحث مستقل.

تحقيق لمعنى السر ودرجاته عند الإمام الغزالي:

باستقراء كلام السادة الصوفية نجد أنهم قد توسعوا في إطلاق لفظ السر على جملة من

---

(١) التعريفات للجرجاني صـ١١٨، وقد مر قبل ذلك بيان معنى اللطيفة صـ ٨٧

(٢) التعريفات للجرجاني صـ١١٨

(٣) قال العارف ابن عجيبة في تفسير هذه الآية (٣/ ٣٧٤): "السر: ما أسررته في نفسك، وأخفى منه: ما ستُسره في المستقبل "

(٤) انظر شرح الشيخ زكريا الأنصاري على الرسالة القشيرية المسمى إحكام الدلالة على تحرير الرسالة (٢/ ١٠٨) وبهامشه نتائج الأفكار القدسية للشيخ العروسي الناشر عبد الوكيل الدروبي –دمشق

الأنواع التي يمكن عدها أكثر تفصيلا وبيانا؛ ومن أوسع من فصل في درجات السر وأنواعه مع مزيد إحكام على قواعد الشرع الإمام حجة الإسلام الغزالي في الإحياء حيث ذكر خمسة أقسام لمراد الصوفية من الأسرار، مع تقديمه لها بمقدمة وافية تزيل ما قدمناه من توهم بعض القاصرين أن اعتقاد الصوفية بوجود أسرار في الشريعة هو يشبه مذهب الباطنية المعتقدين وجود مناقضة بين ظاهر الشرع وحقيقته ويسمون الحقيقة سرا؛ وهو خلاف ما عليه السادة الصوفية الذين يعتبرون السر والحقيقة تكمل وتتمم الظاهر ولا تكر عليه بالبطلان، غاية الأمر أنهم يرون بحسب ما دلت عليه دلالا ت الشرع وجود تفاوت في الأفهام بين الخلق،وأن منهم من لا يناسبهم الاطلاع على بعض المعارف في بعض الأوقات، ومثل على كل ذلك بأمثلة وافية، ولما كان كلام الإمام الغزالي وافيًا غير أنه فيه شيء من الطول فنورد فيما يلي جزءا من كلامه في التأسيس لمعنى السر وبيان مستند ذلك من الشرع؛ ثم نورد فيما بعد ما ذكره من أقسامه بشيء من الاختصار.

أولًا ما يتعلق بمعنى الأسرار عند الصوفية ومستندهم في ذلك:

قال رحمه الله: " مسألة فإن قلت هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها جلي يبدو أولا وبعضها خفي؛ يتضح بالمجاهدة والرياضة، والطلب الحثيث، والفكر الصافي، والسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب؛ وهذا يكاد يكون مخالفا للشرع؛ إذ ليس للشرع ظاهر وباطن، وسر وعلن؛ بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه؟(١)

فاعلم:أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة، وإنما ينكرها القاصرون الذي تلقفوا في أوائل الصبا شيئا وجمدوا عليه، فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء، وذلك ظاهر من أدلة الشرع:" قال صلى الله عليه وسلم إن للقرآن ظاهرًا

---

(١) هنا نهاية السؤال أو الاستشكال الذي سيجيب عنه الإمام الغزالي في الفقرة التالية؛بدءا من قوله: فاعلم

وباطنًا وحدًا ومطلعًا "[1]، وقال علي رضي الله عنه -وأشار إلى صدره-: إن ههنا علوما جمة لو وجدت لها حَمَلة"[2]، وقال صلى الله عليه وسلم: " نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم"[3]، وقال صلى الله عليه وسلم ما حدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم"[4]، وقال الله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣] صلى الله عليه وسلم: " إن من العلم كهيئة المكنون؛ لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى" [5] الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم

وقال صلى الله عليه وسلم: " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً "[6] فليت

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ورواه ابن حبان بلفظ: " أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن" (صحيح ابن حبان، كتاب العلم /باب ذكر العلة التي من أجلها قال النبي صلى الله عليه وسلم: "وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه"، حديث رقم ٧٥) قال الحافظ أبو الفيض أحمد بن الصديق الغماري في المداوي ٣ / ٨٢: " والحديث صححه ابن حبان فأخرجه في الصحيح [١/ ٢٧٦، رقم ٧٥] وهو صحيح لا شك فيه، واللَّه أعلم"

(٢) هذا جزء من وصية سيدنا علي بن أبي طالب لكميل بن زياد وهي بتمامها في حلية الأولياء لأبي نعيم: ١/ ٧٩، وأخرجها ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٥٦، ط.دار الفكر

(٣) أصله في مسند الفردوس عن ابن عباس ١/ ٣٩٨، وفي معناه حديث: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله وروسوله" رواه البخاري، كتاب العلم- باب من خص قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا؛حديث رقم: ١٢٧.

(٤) أصله في مقدمة صحيح مسلم موقوفا عن ابن مسعود، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، الحديث رقم: ١٤

(٥) رواه أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي في الأربعين في التصوف؛ حديث رقم ٣٢، باب إباحة الكلام في باطن العلم، ط.حيدر آباد الدكن ١٩٨١ م، وقد ذكر تخريجه تفصيلا الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٦٦/٢، وملخص ما نقله أن الحديث ليس شديد الضعف ولا موضوع؛ وأن السيوطي وغيره قد احتجوا به في كتبهم.

(٦) متفق عليه من حديث السيدة عائشة؛ انظر الجمع بين الصحيحين للحميدي ٤/ ٧١

شعري إن لم يكن ذلك سراً منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه، أو لمعنى آخر، فلم لم يذكره لهم؟ ولا شك أنهم كانوا يصدقونه، لو ذكره لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: {الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن} لو ذكرت تفسيره لرجمتموني"، وفي لفظ آخر: " لقلتم إنه كافر"(١) وقال أبو هريرة رضي الله عنه: " حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم"(٢)

وقال صلى الله عليه وسلم: " ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بسر وقر في صدره"(٣) رضي الله عنه ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقاً بقواعد الدين غير خارج منها وما كان من قواعد الدين لم يكن خافياً بظواهره على غيره، وقال سهل التستري رضي الله عنه: " للعالم ثلاثة علوم علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله وعلم

---

(١) أصل هذا الحديث رواه البيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ٢٦٨ عن ابن عباس في تفسير قول الله تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ٨] الحديث رقم ٨٣٢، وقد صحح إسناده البيهقي، وقال عقبه إنه شاذ بمُرة، وأما قوله: " لرجمتموني " فهو مروي عن أبي هريرة بلفظ: "حفظت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث ما حدثتكم بها، ولو حدثتكم بحديث منها لرجمتموني" رواه الحاكم في مستدركه ٣/ ٥٨٣ وقال صحيح الإسناد، ورواية:لقلتم إنه كافر، لم أجدها بهذا اللفظ، وقد رواها الطبري في تفسيره ٢٣ / ٤٦٩، والسيوطي في الدر المنثور ٨/ ٢١٠ عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال في قوله: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ٨] قال: لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم؛ وكفركم تكذيبكم بها"

(٢) رواه قريبا من هذا اللفظ البخاري في صحيحه كتاب العلم – باب حفظ العلم، حديث ١٢٠.

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء صـ ٣٢ (ط.ابن حزم): أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني، ولم أجده مرفوعا.ا.هـ قلت والذي عند الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١٤٨/١) نصه: " عن بكر بن عبد الله المزني رضي الله عنه قال لم يفضل أبو بكر رضي الله عنه الناس بكثرة صوم ولا صلاة إنما فضلهم بشيء كان في قلبه"

هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد"، وقال بعض العارفين: " إفشاء سر الربوبية كفر"، وقال بعضهم: "للربوبية سرٌ لو أظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام" وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق، بل الصحيح أنه لا تناقض فيه، وأن الكامل من لا يطفي نور معرفته نور ورعه وملاك الورع النبوة."[1]

فهذا النقل على طوله يوضح لنا على وجه التحديد مراد السادة الصوفية بالأسرار وأنها تطلق على ما دق من معاني الشرع واحتاج إلى استعداد؛ فليس كل الناس من حيث فهم الشرع وحكمه في مرتبة واحدة، وليس ذلك نقضا للشريعة أو مخالفة لها بل هو درجة من درجات الفهم تحصل لمن ازداد قربا وترقى في مدارج العلم بالله، وأما من كان غارقا في دنياه وحسِّه، غافلا عن آخرته وغيبه، فإنه لا يمكنه أن يدرك هذه المعاني بنفسه ما لم تدركه عناية الله وفضله، وهو ما عبر عنه كذلك الإمام القشيري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] فقال: " الكلّ يشتركون في سماع الأمثال، ولكن لا يصغى إليها من كان نفور القلب، كنود الحال، متعودًا الكسل، معرّجا في أوطان الفشل" [2]

- وقد قسم الإمام الغزالي بعد ذلك الأسرار إلى خمسة أقسام وهي غالب ما يعنيه السادة الصوفية بالأسرار؛ وهذه الأقسام هي ما يلي:

القسم الأول:

المعاني الدقيقة التي يصعب فهمها على معظم الناس؛ وقد ضرب الغزالي لها مثالا بحقيقة الروح، وبعض صفات الله عزوجل [3]؛ فإن إفشاء معاني هذه الأمور يصعب على كثير من

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٩٩

(٢) لطائف الإشارات ٣/ ٩٨

(٣) انظر إحياء علوم الدين ١/ ١٠٠

الناس وقد يضُرُّ بهم؛ حيث يصعب على الإنسان إدراك ما لا يقع تحت حسه من المعاني؛ وقد ينكر الإنسان القاصر ذلك فيقع في محظور شرعي.

ووجه تسمية ذلك سرًا واضحة، حيث آثر الشرع الاكتفاء بالإجمال عن التفصيل في الحديث عن الروح أو في تناول صفات الله عزوجل.

القسم الثاني:

الأمور المفهومة في ذاتها لكن الاطلاع عليها من بعض الناس كذلك يضر بهم؛ وقد ضرب الإمام الغزالي مثالا على ذلك بأمرين بسر القدر، وبوقت الساعة، فكلاهما ليسا من الأمور الغامضة؛ إذ القدر هو ظهور علم الله وهو كائن بإرادة الله، والساعة حق ولا غموض في أن يعرف الإنسان الوقت الذي تقوم فيه؛ لكن في حقيقة الأمر، إذا قيل للإنسان إن المعاصي كلها بقضاء الله وإرادته ربما أوقعه ذلك في الاستسلام للمعصية وعدم اكتراثه بفعلها!

كما أنه لو اطلع الإنسان على وقت يوم القيامة فربما دفعه ذلك إذا كان بعيدا عن زمنه إلى طول الأمل وعدم الاكتراث، أو كانت قريبة منه كان ذلك دافعا له إلى اليأس والقنوط من رحمة الله؛ فكان في إخفاء مثل ذلك حكمة بالغة لدفع الناس إلى العمل والرجاء في رحمة الله دون ما سواه.

ولا ريب حينئذ في إطلاق معنى السر على هذا القسم الذي يترجح جانب إخفاءه لما في ذلك من المصلحة الدينية.

القسم الثالث:

ما ليس في إفشاءه ضرر، لكن لو عُبر عنه بطريق الكناية والرمز لكان أوقع وأكثر نفعا؛ وقد ضرب الغزالي لذلك مثلا بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فقال: " فإن ظاهره ممتنع؛ إذ قوله (كُن) إن كان خطاباً للشيء قبل وجوده فهو محال؛ إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمثل، وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين،

ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها "(1)، ومنه أيضًا الكناية عن القرآن بالماء النازل من السماء كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ [الرعد:١٧] فإنه لو حمل على ظاهره كان مفهوما، لكنه أريد به تمكين معناه بصورة مثل هذه ليزداد المعنى وضوحا وجمالا

وجه تسمية ذلك القسم سرًا؛ هو من جهة أن مثل هذه المعاني لا تتضح لعموم الناس مباشرة، بل تحتاج إلى تفهيم وأيضًاح.

القسم الرابع:

قال الإمام الغزالي: " أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلاً بالتحقيق والذوق بأن يصير حالاً ملابساً له فيتفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر والثاني كاللباب والأول كالظاهر والثاني كالباطن"(2)

ومعنى ذلك أن الإنسان يتفاوت علمه واطلاعه فيكون في وقت أوضح وأبلغ اطلاعا من وقت آخر، فكأن الحالة التي يتلبس بها بعد الاطلاع تعد سرًا في مقابل ما كان قبله؛ وقد ضرب الغزالي لذلك مثلا بحال الجوع فإن تصديق الإنسان بوجود الجوع لا يساوي معاناته الجوع وتلبسه به (3)

وكذلك في علوم الدين يقف بعض الناس عند ظاهرها، ويترقى القليلون إلى مرتبة الذوق والمشاهدة.

القسم الخامس:

ما كان تعبيرا عن لسان الحال بلسان المقال؛ كقول القائل:هذه الصنعة تشهد لقائلها بحسن التدبير؛ فليس معنى ذلك أن لها لسانا يتكلم بل هو من قبيل المجاز، فالقاصر يقف عند الظاهر

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ١٠٢

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ١٠١

(٣) السابق ١/ ١٠٣

ويعتقده نطقا، والبصير يدرك السر في هذا الكلام ويعرف أن ظاهره ليس مرادا، وقد حمل الإمام الغزالي كل ما ورد من آيات الصفات على ذلك وقرر أن الأشاعرة قد اقتصدوا من بين سائر الفرق في إدراك منهج التعامل معها وإدراك مقاصد هذه الآيات على وفق صحيح الاعتقاد [١].

إذن هذه الأقسام الخمسة بحسب اختيار الإمام الغزالي هي من جنس الأسرار التي توافق منهج الشرع ومقاصده، في مخاطبة الناس بما يناسب عقولهم، مع فتح باب الإمداد لأهل الاستعداد؛ بحيث يمكنهم أن يدركوا من معاني الشرع ومراداته ما يُمكنهم من حسن الأدب مع الله عزوجل، وشرف الدلالة عليه.

(١) انظر إحياء علوم الدين ١/ ١٠٣ -١٠٤

بعض مجالات الأسرار، ووصايا السادة الصوفية بشأنها:

بعد أن تعرفنا على معاني الأسرار والمقصود منها في اصطلاح السادة الصوفية، وظهر لنا موافقة ما قرره السادة الصوفية بشأن الأسرار للشرع الشريف ومقاصده؛ فإنه من المناسب الآن أن نتعرض لبعض مجالات الأسرار التي دندن حولها العارفون والسالكون في طريقهم إلى الله، مع بيان وصاياهم في التعامل مع تلك الأسرار، وما ينبغي أن يراعيه السالك بإزاء تلك الأسرار من الأدب اللائق؛ ومن ذلك ما يلي:

- من الأسرار سماع مناجاة الكائنات:

قال الإمام الغزالي رحمه الله: " فاعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ الآية ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت"(١)

وهذا الكلام من الإمام الغزالي رحمه الله كان مقدمة لبيان بعض الأسرار التي تظهر لبعض العارفين؛ ثم إنه استفاض بعد ذلك في تقريب وشرح بعضها فقال:" نحكى من مناجاتها قدراً يسيراً يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن حروفاً وأصواتاً ولكن هي ضرورة التفهيم؛ فنقول قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما انصفتني في هذه المقالة فإني ما سودت وجهي بنفسي ولكن سل الحبر فإنه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوا فقال صدقت فسأل الحبر عن ذلك فقال ما أنصفتني فإني كنت في المحبرة وادعاً ساكناً عازماً على أن لا أبرح منها فاعتدى علي القلم بطمعه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادي وفرق جمعي وبدني كما ترى على

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٢٤٨

ساحة بيضاء فالسؤال عليه لا علي فقال صدقت...." [1]

وهكذا مضى يسرد ما يُقَرِّب إلى الذهن حصول هذه الأسرار العرفانية التي من شأنها إظهار القدرة الإلهية، وأن نسبة الأفعال إلى المخلوقات هو من قبيل القهر أو الاكتساب، وليس من قبيل الخلق والإيجاد.

- من الأسرار ما يتعلق بالروح:

قال العارف سيدي عبد العزيز الدباغ: "وفي الروح ثلثمائة وستة وستون سرا، فمن تلك الأسرار سر لو أمدت الروحُ به الذات لبكت دائما، ومنها سر لو أمدتها به لضحكت دائما، ومنها سر لو أمدتها به لصاحت دائما، ولكنها لا تمدها إلا بما سبق به القدر"[2].

وهذا النص يكشف لنا كذلك عن حكمة خفاء بعض الأسرار عن بعض الخلق؛ وهو أن بعضها قد يشوش على مقصد عمارة الأرض، ولكن ظهور بعض هذه الأسرار يكون بقدر الله، وهو ما يتسق مع سنة الله في كونه حيث قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[الشورى: ٢٧]؛ فالأرزاق منها ماهو حسي ومنها ما هو معنوي [3]؛ ومن الرزق المعنوي الأسرار والأنوار وسائر الإشراقات، فحصول بعضها كالأسرار لبعض عباده لا يكون إلا بحكمة وقدر؛ وهو أيضًا ما يشير له حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم:" لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله"[4]

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٤٨

(٢) الإبريز صـ ١٥٢

(٣) قال الشيخ العارف ابن عجيبة في البحر المديد (٢/ ٥١٠): " اعلم أن الرزق على قسمين: رزق الأرواح، ورزق الأشباح. فرزق الأرواح معنوي، وهو: قوت الروح من المعرفة وعلم اليقين. ورزق الأشباح حسي، وهو: الطعام والشراب. وقد تكفل الله بالأمرين معاً، وأمر بالتسبب فيهما، قياماً برسم الحكمة. فالتكفل حقيقة، والتسبب شريعة"

(٤) رواه بهذا اللفظ الترمذي في سننه في كتاب الزهد، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم(لو تعلمون ما

فإخفاء بعض الأسرار العرفانية والحقائق الغيبية هو من الحكمة البالغة كما مر في كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى.

أعلم) وقال حديث حسن غريب الحديث رقم ٢٤٨٢، ورواه الحاكم في المسترك وصححه وأصله في صحيح البخاري كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف؛ مقتصرا على لفظ "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا"

- مدى احتياج الأسرار لإذن؛ ووصية للشيخ الأكبر في ذلك:

من أكثر أئمة الصوفية الذين توسعوا في ذكر كثير من الأسرار والكلام عن مشاهداتهم وفتوحاتهم في هذا الباب هو سيدي محي الدين بن عربي في فتوحاته، وقد قسم الشيخ الأكبر الأسرار باعتبار آخر غير ما مر عن الإمام الغزالي؛ وذلك باعتبار ما يحتاج لإذن وما لا يحتاج، وتعرض كذلك إلى الأسرار التي لا تتجاوز صاحبها!

فقال رحمه الله تعالى:" اعلم أن الأسرار التي يمنحها الحق عبده من أهل هذه الطريقة على قسمين:

-منها أسرار تعطيك بذاتها إن تظهرها في الأكوان من غير حرج في ذلك عليك، ولا تحتاج في إظهارها للغير إلى إذن إلهي.

وأسرار لا تعطيك بذاتها هذا الحكم وهي على قسمين قسم منها تحتاج في إظهاره إلى إذن إلهي فإن أظهرته عن غير إذن قوبلت بالعقاب ووقع الحرج والجناح عليك في إظهاره، وقد وقع لي مثل هذا! ولكن بحمد الله قوبلت بالعتاب، لا بالعقاب؛ رحمة من الله بي وعناية.

وأسرار أُخر لا يعطيها الحق لأحد بواسطة؛ فلو طلبت الإذن فيها إذا أطلعك الحق عليها أن توصلها ما أذن لك؛ فإنها أذواق لا تعرفُها من غيرك بمجرد العبارة عنها، فإنها مما ينفرد الحق بإيصالها من الحق إلى العبد؛ كما يفعل بالأحوال، فلو رام أحد أن يعبر عن الشوق الذي يجده إلى من اشتاق إليه ما أطاق ذلك، ولا وصل إلى فهم الآخر منه شيء؛ إلا أن يقوم الشوق به مثل ما قام بصاحبه، فيعرف عند ذلك حقيقة مسمى هذا اللفظ"[(١)]

فهذا الكلام من الشيخ الأكبر يوضح ثلاث درجات من الأسرار؛ فمنها ما يمكن إظهاره لعدم توقفه على إذن [(٢)]، ومنها ما ينبغي أن يمتنع عن إظهاره إلا بإذن، ومنها ما يتعلق بما يجده الإنسان في نفسه من معانٍ وأحوال لا يمكنه التعبير عنها؛ فلا فائدة في إظهارها حينئذ لعدم

---

(١) الفتوحات المكية ٢/ ٧٠٥

(٢) ويمكن أن يمثل له بما مر عن الإمام الغزالي في القسمين الثالث والخامس

القدرة على ذلك على الحقيقة؛ فكأنها أسرار خاصة بالمريد في ذاته، جاءته لتوصل له رسالة خاصة أو ترقيه لمقام معين.

ولعل ما أشار له الشيخ الأكبر هنا من ضرورة الإذن في بعض أنواع الأسرار وأهمية كتمان السر عن غير أهله هو ما نبه له العديد من أئمة الصوفية ورمزوا له في قولهم: "صدور الأحرار قبور الأسرار"(١) وهم يعنون بذلك -على ما يتضح من مطالعة كلامهم- أن كل عارف يطلع على بعض الأسرار لا يمكنه أن يفشي شيئا من ذلك إلا لأهله ممن يطيق حمل ذلك وإلا أفسد حاله بذلك؛ قال الإمام الفاروقي السرهندي في المكتوبات: " فأهل التمكين لا يظهرون معاني ألفاظهم؛ لأن جميعها متعلق بالله تعالى فهي أسرار بينهم وبينه، ولهذا كان خطأ الحلاج (٢) وإباحة دمه من حيث إظهاره ما يكتم وإعلانه بها يسر؛ كما في (حل الرموز (٣)) وفيه: ما كل قلب يصلح للسر، ولا كل صدف ينطبق على الدر"(٤)

وهذا الكلام الأخير عن سبب قتل الحلاج يفسر لنا أهمية حفظ الأسرار والحقائق التي يصعب فهمها على غير أهلها؛ فما نطق به الحلاج مما ذاقه أو ظهر له هو من قبيل تكاثر المعارف على قلب العارف؛ فقوله: "ما في الجبة إلا الله" كلام له ظاهر وله باطن فظاهره مرفوض وهو نفي وجوده البشري، وكأن الذي حل فيه هو الله سبحانه وتعالى!، وباطنه الذي لم يحسن

---

(١)وقد نسب هذا القول إلى ذي النون المصري؛ انظر: حلية الأولياء ٣٧٧/٩

(٢)أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج رحمه الله تعالى:وهو من أهل بيضاء فارس، ونشأ بواسط العراق. صحب الجنيد، والنوري، وعمرو بن عثمان المكي والفوطي، وغيرهم رحمهم الله أجمعين، والمشايخ في أمره مختلفون: فمنهم من يبالغ في تعظيمه، ومنهم من يكفره" وقد حكم على الحلاج بالقتل من قبل علماء وقته بسبب ما نطق به من كلام يخالف ظاهر الشرع، وفي مشكاة الأنوار " (صـ ٥٩ ط.الدار القومية) للإمام الغزالي الاعتذار عن بعض ما قاله هو وغيره وحمله على ما يستقيم مع معاني الشرع، وقد نقل كلام الحلاج واعتبر به كثير من الصوفية ومن جملتهم الإمام القشيري في الرسالة، انظر ترجمته الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٢

(٣) هذا اسم كتاب في التصوف يسمى: حل الرموز وكشف الكنوز لعلي بن محمود الشهروردي البسطامي

(٤) المكتوبات ٥٠٨/١

التعبير عنه –حال غيبته– هو أن وجودنا ليس قائمًا بذاته بل بإمداد الله له.

فما نطق به هو ما يشعر به السالك من ضعفه وضآلته في مقابل رب العالمين، لكن عبارته ضاقت وقصرت عن التعبير عن ذلك، ومن هنا فما دعا له أئمة الصوفية هو أن من حصل له مثل ذلك فعليه ألا يتكلم بكل ما يشعر به ويشاهده من حقائق وأسرار؛ إذ غالبا ما يكون ذلك من قبيل الأمور الدقيقة التي تحتاج لشرح وبيان وهي من جهة أخرى تخص أصحابها الذين ظهر لهم ذلك، وهي في عمومها أمور لا تخالف الشرع الشريف على الحقيقة.

ومن هنا قال الإمام القشيري رحمه الله: " من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار "(١)

ولقد تحول هذا التوجيه الصوفي بحفظ الأسرار إلى دعاء يردده الأولياء في أحزابهم وأورادهم؛ كما ورد عن الإمام القطب سيدي أبي الحسن الشاذلي في حزبه المسمى بالفتح حيث قال فيه: " **نسألك الإحاطة بالأسرار، وكتمانها عن الاغيار**"(٢)

فالطريق إلى الله طريق يعتمد على الأدب مع الله عزوجل ظاهرا وباطنا وحسن الفهم عنه؛ فحسن الفهم عن الله يتحقق بفهم دقائق الأسرار، وحسن الأدب يكون بحفظها عن الأغيار.

***فائدة تفسيرية في تفسير قول الله تعالى ﴿ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] توضح لنا: هل بلغنا رسولُ الله ﷺ كل ما تلقاه عن ربه؛ بما فيه من الأسرار العرفانية.**

قال الإمام الآلوسي في تفسير هذه الآية: " ذهب كثير من ساداتنا الصوفية إلى أن هذا أمر منه عز شأنه أن يبلغ رسوله صلّى الله عليه وسلّم ما أنزله إليه؛ مما يتعلق بأحكام العبودية ولم يأمره جل جلاله بأن يعرف الناس أسرار ما بينه وبينه؛ فإن ذرة من أسراره سبحانه لا تتحملها السماوات والأرض، وهذه الأسرار هي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما

---

(١) لطائف الإشارات ٣٨٨/٢، والمراد من الأغيار هنا: من يصعب عليه فهم هذه الحقائق

(٢) حزب الفتح ويسمى كذلك حزب الأنوار انظر: مجموعة الأحزاب والأوراد الشاذلية جمع الشيخ/ ضياء الدين الكمشخانوي صـ٢٤، ط. إسطنبول ١٣١١ هـ

أَوْحى﴾ [النجم:١٠]. ولهذا قال سبحانه ﴿ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ ولم يقل ما خصصناك به أو ما تعرفنا به إليك.

- وقال بعضهم؛ وهو المنصور [(١)]: إن الموصول [(٢)] عامٌّ ويندرج فيه الوحي والإلهامات والمنامات والمشاهدات وسائر المواهب، والرسول صلّى الله عليه وسلّم مأمور بتبليغ كل ذلك، إلا أن مراتب التبليغ مختلفة حسب اختلاف الاستعدادات؛ فتبليغ بالعبارة، وتبليغ بالإشارة، وتبليغ بالهمة، وتبليغ بالجذبة إلى غير ذلك؛ فسبحان من أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها.."[(٣)]

فهذا القول الأخير الذي اختاره الآلوسي يشير إلى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغ كل ما جاءه من الله جل في علاه؛ من سائر أنواع الوحي وما يحويه من حقائق شرعية ومعانٍ عرفانية؛ غير أن طريقة أداءه وبلاغه قد تكون على سبيل العبارة، أو عن طريق الإشارة، أو غيرهما من طرق البلاغ والأداء.

وهو ما عبر عنه الإمام القطب الشهيد سيدي عبد السلام بن مشيش [(٤)] وأشار له على سبيل

---

(١) قوله: (وهو المنصور)؛ أي: القول الراجح المختار؛ وهو مصطلح يستخدمه الآلوسي في تفسيره كثيرا.

(٢) يريد: الاسم الموصول الذي في الآية وهو "ما " فهو من ألفاظ العموم كما تقرر في علم الأصول.

(٣) تفسير الآلوسي ٤/ ٨

(٤) الشيخ عبد السلام بن مشيش أو بشيش أحد أكابر الأولياء والعارفين وأحد فروع الدوحة النبوية ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن بن علي، وقد تلقى عنه سيدنا الإمام أبو الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية الطريق وانتفع به، انتقل إلى رحاب ربه سنة ٦٢٢ هـ وقيل، ٦٢٥ هـ شهيدا بعد أن قتله أحد الدجالين ودفن بأعلى جبل العلم ببلاد المغرب حيث كان يعبد الله هناك رضي الله عنه،وهذه الصلاة التي اشتهرت عنه من افضل الصلوات المنقولة عن أهل الله العارفين، وقد ذكر الشيخ عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس والأثبات [١/ ١١٤٦ ط.دار الغرب] في فضل هذه الصلاة المباركة ما نصه:" لطيفة: رأيت في إجازة المترجم للمسند أبي محمد التهامي بن المكي بن رحمون الفاسي قوله في حق الصلاة المشيشية قالوا: إنها تعدل " دلائل الخيرات " قال حتى لو حلف بالطلاق الثلاث ليصلين على النبي صلى الله عليه وسلم بأفضل الصيغ تنحل يمينه بقراءتها لأن فيها قوله صلاة تليق بك منك إليك كما هو أهله، اهـ. "، وانظر ترجمة الشيخ عبد السلام بن

الاختصار في صلاته المباركة المنسوبة له والتي يقول في أولها: "اللهمَّ صلِّ على مَنْ منهُ انشقَّت الأسرار"(١)

فسبحان من جعل نبيه ﷺ مصدرا وموردا لمعرفة مراده من خلقه، ودلنا به على كل خير في الدنيا والآخرة.

مشيش في طبقات الشاذلية الكبرى لأبي علي الحسن بن محمد الفاسي المغربي صـ ٥٩

(١) انظر: شرح صلاة ابن مشيش لابن عجيبة صـ ١٦

(١٠) المشاهدات:

من جملة الإشراقات التي بينها السادة الصوفية وتكلموا عن حقيقتها وأنواعها ما يطلقون عليه " المشاهدات" وقد ذكر المفسرون من علماء الصوفية بعض ما يشير إلى حقيقة المشاهدة في آيات القرآن الكريم؛ كما في قول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧]

فقد جاء في البحر المديد في تفسير هذه الآية ما نصه: " أفمن كان على معرفة من ربه، وولاية وسلامة وكرامة، وكل عارف إذا شاهد الحق سبحانه بقلبه وروحه، وعقله وسره، فأدرك فيض أنوار جماله، وقربه، يؤثر ذلك في هيكله حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر، قال تعالى: وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ، والبينة: بصيرة المعرفة، والشاهد: بروز نور المشاهدة منه"(١)

المشاهدات لغة واصطلاحًا:

المشاهدات جمع مشاهدة وهي في اللغة: "الاطلاع على الشيء عيانًا"(٢)

أما في الاصطلاح فللمشاهدة عند القوم تعاريف كثيرة، ولكل تعريف وجهة في المشاهدة، ومن أوسع من تعرض لتعريف المشاهدة عند القوم الإمام أبو النصر السراج(٣) صاحب كتاب اللمع حيث قال :" قال عمرو بن عثمان المكي (٤): المشاهدة ما لاقت القلوب من الغيب، ولا

(١) البحر المديد ٢/ ٥١٩

(٢) المصباح المنير صـ ١٦٩ مادة: ش هـ د، ط. المكتبة العلمية

(٣)أبو نصر السرّاج، عبد الله بن علي الطّوسي الزاهد، شيخ الصوفية، وصاحب كتاب «اللمع في التصوف» قال الذهبي: كان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم، مع الاستظهار بعلم الشريعة،وقال السخاوي: كان على طريقة السّنّة، توفي ٣٧٨هـ. انظر ترجمته في شذرات الذهب ٤/ ٤١٣ ط.دار ابن كثير

(٤) أبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي رضي الله تعالى عنه ورحمه كان ينتسب إلى الجنيد في الصحبة ولقي أبا عبد الله الناجي وأبا سعيد الخراز وغيرهما من المشايخ وكان شيخ القوم في وقته وإمام الطائفة في الأصول والطريقة وله كلام حسن وروى الأحاديث عن محمد بن إسماعيل البخاري وغيره، مات رحمه الله تعالى سنة

يجعلها عيانا ولا يجعلها وجدا

وقال أيضًا: المشاهدة وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان؛ لأن رؤية القلوب عند كشف اليقين في زيادة توهم.

وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر رضي الله عنه" اعبد الله كأنك تراه"(١) الحديث

وأما قوله عزوجل ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سبأ:٤٧] فقالوا: هو مشاهدة الأشياء بعين العبر، ومعاينتها بأعين الفكر.

وقال عمرو المكي رحمه الله: المشاهدة يعني المحاضرة، يعني المداناة، كما ذكر الله عزوجل ﴿وَاسْئلهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف:١٦٣] يعني قريبة من البحر"(٢)

- إذن فما ذكره السراج الطوسي يمكن ردُّه لثلاثة معان للمشاهدة:

الأول: رؤية الغيب بعين القلب.

الثاني: المشاهدة بمعنى الاعتبار.

الثالث: المشاهدة بمعنى القرب من الحق

وهو ما شرحه بعد ذلك بعبارة أخرى فقال:

"أهل المشاهدة على ثلاثة أحوال؛ فالأول منها: الأصاغر، وهم المريدون، وهو ما قال أبو بكر الواسطي رحمه الله: يشاهدون الأشياء بعين العبر، ويشاهدونها بأعين الفكر.

والحال الثاني من المشاهدة: الأوساط، وهو الذي أشار إليه أبو سعيد الخراز، رحمه الله، حيث يقول:الخلق في قبضة الحق وفي ملكه، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين السيد لا يبقى في

إحدى وتسعين ومائتين انظر ترجمته الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٧٦

(١) هذه رواية الإمام أحمد في مسنده ١٠ / ٢٩٧ وهي عن عبد الله بن عمر وتمام الحديث: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدي فقال: " اعبد الله كأنك تراه، وكن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل.

(٢) اللمع للسراج الطوسي صـ١٠٠

سره ولا في وهمه غير الله تعالى.

والحال الثالث من المشاهدة ما أشار إليه عمرو بن عثمان المكي رحمه الله في كتاب المشاهدة، فقال: إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شيء، وشاهدوا كل الكائنات به، فكانوا غائبين حاضرين، وحاضرين غائبين، على انفراد الحق في الغيبة والحضور، فشاهدوه ظاهرا وباطنا، وباطنا وظاهرا، وآخرا وأولا، وأولا وآخرا؛ كما قال عزوجل ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] "[١]

(١) اللمع صـ ١٠١

بيان حقيقة المشاهدة ورتبتها والفرق بينها وبين كل من المحاضرة والمكاشفة:

المشاهدة على هذا النحو الذي مر بيانه؛ وخاصة بمعنى رؤية الغيب، قد تشتبه مع بعض المعاني الأخرى التي يستخدمها الصوفية في كتبهم؛ ومن ذلك المحاضرة والمكاشفة.

وممن فرقوا بين هذه المعاني الإمام القشيري في رسالته حيث قال:" المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة، المحاضرة ابتداء ثم المكاشفة ثم المشاهدة؛ فالمحاضرة حضور القلب، وقد يكون بتواتر البرهان، وهو بعد وراء الستر وإن كان حاضرا باستيلاء سلطان الذكر، ثم بعده المكاشفة وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل الدليل وتطلب السبيل، ولا مستجير من دواعي الريب ولا محجوب عن نعت الغيب، ثم المشاهدة وهي: حضور الحق من غير بقاء تهمة؛ فإذا أصحت سماء السر عن غيوم الستر فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف وحق المشاهدة ما قاله الجنيد رحمه الله: وجود الحق مع فقدانك، فصاحب المحاضرة مربوط بآياته وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته، وصاحب المشاهدة ملقي بذاته، وصاحب المحاضرة يهديه عقله، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته، ولم يزد في بيان تحقيق المشاهدة أحد على ما قاله عمرو بن عثمان المكي رحمه الله؛ ومعنى ما قاله أنه: تتوالى أنوار التجلي على قلبه من غير أن يتخللها سِتر وانقطاع، كما لو قدر اتصال البروق؛ فكما أن الليلة الظلماء بتوالي البروق فيها واتصالها إذا قدرت تصير في ضوء النهار فكذلك القلب إذا دام به دوام التجلي متع نهاره فلا ليل وأنشدوا:

لــــــيلي بوجهـــــكَ مُشْـــــرِقٌ	وظلامُــــه في النـــاس ســـاري
والنـــاس في سَـــدَف الظـــلام[1]	ونحـــــن في ضَـــــوء النهــــار

وقال النوري: لا يصح للعبد المشاهدة وقد بقي له عِرق قائم، وقال إذا طلع الصباح استغني

---

(١) السَدَف: أي الليل؛ انظر الصحاح للجوهري (٤/ ١٣٧٢) ط.دار العلم للملايين –بيروت، الرابعة، مادة: س د ف

عن المصباح."[1]

إذن الإمام القشيري قد حرر معنى المشاهدة على أساس أنها أعلى من كل من المحاضرة والمكاشفة؛ وأنها لا تسلم إلا لمن فني عن نفسه.

وهو قريب أيضًا مما صرح به المرتضى الزبيدي حيث قال: "المشاهدة: منزلة عالية من منازل السالكين وأهل الاستقامة، وهي مشاهدة معاينة تلبس نعوت القدس، وتخرس ألسنة الإشارات، ومشاهدة جمع تجذب إلى عين اليقين"[2]

بعض مشاهدات السادة الصوفية:

تمتلئ كتب الصوفية بالكثير من المشاهدات التي يرويها بعض أهل الله؛ إما تحدثا بنعمة الله، أو بيانا للحقائق التي تورث معرفتها قربا من الله وتعظيما لأمره وإقبالا على حضرته، ومن ذلك ما يلي:

١- ذكر الإمام الآلوسي أثناء تفسيره كلامًا جامعًا عن بعض مشاهدات المريد السالك أثناء سيره وسلوكه إلى الله فقال: " فإذا خلص منها وصفا وقته وطاب عيشه بما يجده في طريق المحبوب يتنور باطنه ويظهر له لوامع أنوار الغيب وينفتح له باب الملكوت وتلوح منه لوائح مرة بعد أخرى فيشاهد أمورا غيبية في صور مثالية، فإذا ذاق شيئا منها يرغب في العزلة والخلوة والذكر والمواظبة على الطهارة والعبادة والمراقبة والمحاسبة ويعرض عن الملاذ الحسية، كلها ويفرغ القلب عن محبتها؛ فيتوجه باطنه إلى الحق تعالى بالكلية فيظهر له الوجدُ والسُكر والشوق والعشق والهيمان، ويجعله فانيا عن نفسه غافلا عنها، فيشاهد الحقائق السِّرية والأنوار الغيبية، فيتحقق بالمشاهدة والمعاينة والمكاشفة ويظهر له أنوار حقيقية تارة، وتختفي أخرى حتى يتمكن ويتخلص من التلوين، وينزل عليه السكينة الروحية والطمأنينة الإلهية، ويصير ورود هذه البوارق والأحوال له مَلكة فيدخل في عوالم الجبروت، ويشاهد العقول المجردة

---

(١) الرسالة القشيرية ١/ ١٨٥

(٢) تاج العروس ٨/ ٢٥٦

والأنوار القاهرة، من الملائكة المقربين والمهيمين، ويتحقق بأنوارهم فيظهر له أنوار سلطان الأحدية، وسواطع العظمة والكبرياء الإلهية؛ فتجعله هباء منثورا، ويندك حيئنذ جبال إنيته فيخر لله تعالى خرورا، ويتلاشى في التعين الذاتي، ويضمحل وجوده في الوجود الإلهي، وهذا مقام الفناء والمحو وهو غاية السفر الأول للسالكين؛ فإن بقي في الفناء والمحو ولم يجىء إلى البقاء والصحو صار مستغرقا في عين الجمع، محجوبا بالحق عن الخلق لا يزيغ بصره عن مشاهدة جماله عز شأنه وأنوار ذاته وجلاله فاضمحلت الكثرة في شهوده واحتجب التفصيل عن وجوده وذلك هو الفوز العظيم، وفوق ذلك مرتبة يرجع فيها إلى الصحو بعد المحو وينظر إلى التفصيل في عين الجمع ويسع صدره الحق والخلق فيشاهد الحق في كل شيء ويرى كل شيء بالحق على وجه لا يوجب التكثر والتجسم وهو طور وراء طور العقل، ووقع في عبارة بعضهم أنه قد يصير العارف متخلقا بأخلاق الله تعالى بالحقيقة لا بمعنى صيرورة صفاته تعالى عرضا قائما بالنفس فإن هذا مما لا يتصور أبدا، والقول به خروج عن الشريعة والطريقة والحقيقة بل بمعنى علاقة أخرى أتم من علاقتها مع الصفات الكونية البدنية وغيرها لا تعلم حقيقتها، ولعل مرادهم بالمرتبة التي تترقى إليها النفس فتكون سرا من أسرار الله تعالى هي هذه المرتبة والاطلاع عليها يحتاج إلى سلوك طريقة الأبرار ولا يتم بمجرد الأنظار والأفكار والله تعالى الموفق للسلوك والمتفضل بالغنى على الصعلوك"(١)

٢- ذكر العارف الشعراني نقلا عن بعض العارفين كلاما في بعض مشاهدات السالكين فقال: " المشاهدة هي ارتفاع الحجب بين العبد وبين الرب فيطلع بصفاء القلوب على ما أخبره به من الغيب فيشاهد الجلال، والعظمة، وتختلف عليه الأحوال والمقامات فتداخله الحيرة، والدهشة ثم تخرجه الحيرة إلى البهتة فتراه شاخصاً بالحق إلى الحق، وتارة يشاهد الجلال، وتارة يطالع الجمال، وتارة يرى البهاء، وتارة ينظر إلى الكمال، وتارة يلوح له الكبرياء والعزة، وتارة يبدو له الجبروت، والعظمة، وتارة يشهد اللطف، والبهجة فهذا يبسطه وهذا يقبضه، وهذا

(١) تفسير الآلوسي ٨/ ١٥١

يطويه وهذا ينشرة، وهذا يفقده وهذا يوجده، وهذا يبديه، وهذا يعيده، وهذا يفنيه، وهذا يبقيه فهو زائل عن نعوت البشرية قائم بصفات العبودية لا يحس بالأغيار، ولا يشهد غير عظمة الجبار"(١)

٣- الإمام الغزالي كذلك يذكر في عبارة قصيرة ضمن كتابه الجامع إحياء علوم الدين ما يحدث لبعض السالكين من مشاهدة لسيدنا الخضر (٢) عليه السلام فقال: " وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب فيشاهد أيضًا بالبصر صورة الخضر عليه السلام فإنه يتمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة"(٣)

٤- جاء في كتاب الإبريز جملة كبيرة من حكاية المشاهدات عن أولياء الله وما يحصل لبعض السالكين كذلك أثناء سيرهم ومن ذلك قوله رضي الله عنه: ".وأما الفتح في ثاني الأمر: فهو أن يفتح عليه في مشاهدة أسرار الحق التي حجب عنها أهل الظلام، فيشاهد الأولياء العارفين بالله تعالى ويتكلم معهم ويناجيهم على بعد المسافة مناجاة الجليس لجليسه، وكذا يشاهد أرواح المؤمنين فوق القبور والكرام الكاتبين والملائكة، والبرزخ، وأرواح الموتى التي فيه، ويشاهد قبر النبي صلى الله عليه وسلم وعمود النور الممتد منه إلى قبة البرزخ، فإذا حصلت له مشاهدة ذات النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة حصل له الأمان من تلاعب الشيطان لاجتماعه مع

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٢٧

(٢)الراجح من أقوال العلماء صحة القول باستمرار حياة سيدنا الخضر إلى الآن جمهور العلماء على أن الخضر –عليه السلام – لايزال حيًا قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرحه على صحيح مسلم ١٥/ ١٣٥ط.دار إحياء التراث العربي، الثانية ١٣٩٢ م: " جمهور العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن يحصر وأشهر من ان يستر وقال الشيخ ابو عمر بن الصلاح هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة معهم في ذلك قال وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين "ا.هـ

(٣) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٩٤

رحمة الله تعالى وهي سيدنا ونبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم"(١)

فهذه بعض الإشارات إلى بعض ما يقع للسالكين من المشاهدات، والقصد من هذه الإشارات تنبيه السالك إلى بعض ما قد يظهر له أثناء سيره إلى الله، كي لا يغتر أو يتشوش، و من أجل أن يثبت على قصده، ولا يتحول عن عزمه.

بيان أن المشاهدة ثمرة العبودية:

كل ما مر من بيانٍ لبعض المشاهدات التي تحصل لبعض السالكين والمريدين أثناء سيرهم لا ينبغي أن يكون مقطوعا عما ذكره السادة الصوفية أثناء شرحهم لحقيقة المشاهدة، من أن المشاهدة هي ثمرة من ثمرات العبودية، وأنه كلما ترقى العبد في تحقيق العبودية، كلما حصَّل من مقامات الرؤية والمشاهدة نعمة من الله وفضلا.

وقد نقل المرتضى الزبيدي ما يشير لذلك؛ فقال: " سئل سهل رحمه الله عن المشاهدة فقال العبودية وقال أيضًا أربعون سنة أخاطب الحق والناس يظنون انى أخاطبهم وقد نبه المعلم الاعظم صلى الله عليه وسلم بقوله انكم سترون ربكم وقال تعالى سبحان الذى أسرى بعده فخص مواطن المشاهدة والرؤية بذكر اسم العبد والرب تنبيها على ما أشرنا اليه فاعرف ذلك وتحقق بعبوديتك فان الخير فيها ومنها فافهم"(٢)

فالمشاهدة شأنها في ذلك شأن سائر الإشراقات؛ أنها من ثمرات العبودية، مع العلم أن حصول أي منها ليس لازما لكل سالك؛ إذ هي محض فضل من الله، لأجل ذلك فينبغي على كل سالك أن يخلص نيته إلى الله ويقصد بعمله وجه الله دون وجوه الخلق؛ يقول سيدي محي الدين بن عربي " قالت الطائفة في المشاهدة: إنها تطلق بإزاء ثلاثة معان منها: مشاهدة الخلق في الحق؛ وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، كما قدمناه، ومنها: مشاهدة الحق في الخلق؛ وهي

---

(١) الإبريز صـ ٢٥٧

(٢) إتحاف السادة المتقين ٢/ ١٩٠

رؤية الحق في الأشياء، ومنها: مشاهدة الحق بلا الخلق، وهي حقيقة اليقين بلا شك "[١]

ومما نقل عن القطب العارف سيدي إبراهيم الدسوقي [٢] قوله: " فمن جاهد شاهد، ومن رقد تباعد"[٣]

فبان من كل ذلك أن المشاهدة التي هي أحد الإشراقات لا تصفو - على أي معانيها- إلا بملازمة العبودية والقيام بحقوق الربوبية.

---

(١) الفتوحات المكية ٢/ ٥٤٨

(٢) هو الشيخ الإمام القطب العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي القرشي ينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي عليه السلام، نشأته ووفاته بمصر بمدينة دسوق وإليها ينسب، كان إماما في الشريعة والحقيقة والتقى وأخذ عن كبار علماء وأولياء عصره حتى شهدوا له بالعلم والولاية أمثال سيدي أبي الحسن الشاذلي والقطب سيدي أحمد البدوي وغيرهم، توفي رضي الله عنه ٦٧٦ ه، انظر ترجمه في الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٤٠

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٥٢

بيان مقام الأنبياء الكرام عليهم السلام، ودرجة المشاهدة في حقهم:

ونختم مبحث المشاهدات ببيان ما اعتنى به أهل الله من السادة الصوفية من ذكر بعض خصائص الأنبياء الكرام عليهم السلام تنبيها على مقامهم، ودفعا للتأدب معهم.

١- ومن ذلك ما قرره العارف بالله سيدي عبد العزيز الدباغ عن بعض ما ثبت من خصائص نبي الله موسى الكليم عليه السلام، بالنسبة لمقام المشاهدة؛ فقال في الإبريز: "وسألته [1] رضي الله عنه عن قوله تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾[الأعراف: ١٤٣] فقلت: موسى عليه السلام من أكبر العارفين بالله تعالى، ولا يكون العارف عارفا حتى يخوض بحار المشاهدة، فكيف سأل الرؤية وهو من أهل المشاهدة الدائمة، وهل تزيد الرؤية على المشاهدة؟ فقال رضي الله عنه ونفعنا بذاته الكريمة: مشاهدة الذات العلية لا تخلص لأهلها من مشاهدة أفعالها ولا تصفو منها إلا لو كانت أفعال الذات العلية تنقطع، ولو انقطعت طرفة عين لانهدم الوجود واختل نظام العالم، فما من موجود إلا وفيه فعل الله تعالى، وهو مادته والسبب في بقائه، وهو الحجاب بينه وبين الذات العلية، ولولا أنه تعالى حجب أفعاله تعالى فيها لاحترقت الذوات وذاب كل حادث في العالم، فلما لم تصف المشاهدة لأهلها وصارت الأفعال المتقدمة بمنزلة القذى في البصر، سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل أن يقطع عنه الفعل حتى لا يحجبه عن مشاهدة الذات العلية على الصفاء، فقال له ربه عز وجل إذا قطعت الفعل عن الحادث اختلت ذاته، وهذا الجبل أقوى منك ذاتا وأصلب منك جرما فانظر إليه) {فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ} (بعد قطع فعلي عنه) {فَسَوْفَ تَرَانِي، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ} (وقطع عنه الفعل الحاجب له عن سطوة الذات العلية تدكدك الجبل وتطايرت أجزاؤه حتى صعق موسى عليه السلام."[2]

فهذا بيان حال ومقام وخصوصية كليم الله سيدنا موسى عليه السلام، وكيف أنه في مقام

---

(١) السائل هو الشيخ أحمد بن مبارك تلميذ الشيخ الدباغ، وقد مرت ترجمته في مبحث الفتح

(٢) الإبريز صـ١٢٦

مشاهدة الأفعال الإلهية، وقد طلب في مقامه هذا بلوغ مشاهدة الذات العلية، فكان الجواب الإلهي والفعل الرباني في غاية اللطف والرحمة والرأفة به عليه السلام.

٢ - لمحة من مقام نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وخصائصه الشريفة؛ فيما يتعلق بمقام المشاهدة في حقه صلى الله عليه وآله وسلم؛ يقول الشيخ عبد العزيز الدباغ: ": قوله صلى الله عليه وسلم "لو لم تفعلوا لصلح"(١) كلام حق وقول صدق، وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين بأنه تعالى هو الفاعل بالإطلاق، وذلك الجزم مبني على مشاهدة سريان فعله تعالى في سائر الممكنات مباشرة بلا واسطة ولا سبب، بحيث إنه لا تسكن ذرة، ولا تتحرك شعرة، ولا يخفق قلب، ولا يضرب عرق، ولا تطرف عين، ولا يومئ حاجب، إلا وهو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة، وهذا أمر يشاهده النبي صلى الله عليه وسلم كما يشاهد غيره سائر المحسوسات، ولا يغيب ذلك عن نظره لا في اليقظة ولا في المنام، لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينام قلبه الذي فيه هذه المشاهدة، ولا شك أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب من نظره، ويترقى عن الإيمان بالغيب إلى الشهود والعيان، فعنده في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] مشاهدة دائمة لا تغيب، ويقين يناسب هذه المشاهدة، وهو أن يجزم بمعنى الآية جزما لا يخطر معه بالبال نسبة الفعل إلى غيره تعالى، ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة، ولا شك أن الجزم الذي يكون على هذه الصفة تخرق به العوائد وتنفعل به الأشياء، وهو سر الله تعالى الذي لا يبقى معه سبب ولا واسطة، فصاحب هذا المقام إذا أشار إلى سقوط الأسباب، ونسبة الفعل إلى رب الأرباب، كان قوله حقا وكلامه صدقا. وأما صاحب الإيمان والغيب فليس عنده في قوله تعالى:﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ مشاهدة، بل إنما يشاهد نسبة الأفعال إلى من ظهرت على يده، ولا يجذبه إلى معنى الآية ونسبة الفعل إليه تعالى إلا الإيمانُ الذي وهبه الله تعالى له، فعنده جاذبان أحدهما

(١) رواه مسلم في صحيحه بلفظ: "لو لم تفعلوا لصلح"، كتاب الفضائل - باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم من معايش الدنيا، الحديث رقم ٦٢٧٧.

من ربه وهو الإيمان الذي يجذبه إلى الحق، وثانيهما من طبعه وهو مشاهدة الفعل من الغير الذي يجذبه إلى الباطل. "[١]

٣ - وللإمام الغزالي كذلك كلام في مقام نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في شأن المشاهدة حيث قال: " **دقيقة**: إذا قال الرسول عليه السلام: "رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حَبْوًا [٢]" فلا تظنن أنه لم يشاهده بالبصر كذلك، بل رآه في يقظته كما يراه النائم في نومه؛ وإن كان عبد الرحمن مثلاً نائمًا في بيته بشخصه، فإن النوم إنما أثر في أمثال هذه المشاهدات لقهره سلطان الحواس عن النور الباطن الإلهى، فإن الحواس شاغلة له وجاذبة إياه إلى عالم الحس، وصارفة وجْهَه عن عالم الغيب والملكوت. وبعض الأنوار النبوية قد يستعلى ويستولى بحيث لا تستجره الحواس إلى عالمها ولا تشغله، فيشاهد في اليقظة ما يشاهد غيره في المنام. ولكنه إذا كان في غاية الكمال لم يقتصر إدراكه على محض الصورة المبصرة، بل عَبر منها إلى السر فانكشف له أن الإيمان جاذب إلى العالم الذى يعبر عنه بالجنة؛ والغنى والثروة جاذب إلى الحياة الحاضرة وهى العالم الأسفل. فإن كان الجاذب إلى أشغال الدنيا أقوى أو مقاوماً للجاذب الآخر صُدَّ عن المسير إلى الجنة. وإن كان جاذب الإيمان أقوى أورث عسراً وبطئاً في سيره؛ فيكون مثاله من عالم الشهادة "الحبْو". فكذلك تتجلى له أنوار الأسرار من وراء زجاجات الخيال. ولذلك لا يقتصر في حكمه على عبد الرحمن وإن كان إبصاره مقصوراً عليه، بل يحكم به على كل من قويت

بصيرته واستحكم إيمانه، وكثرته ثروته كثرة تزاحم الإيمان لكن لا تقاومه لرجحان قوة الإيمان.

فهذا يعرِّفك كيفية إبصار الأنبياء الصور وكيفية مشاهدتهم المعانى من وراء الصور. والأغلب أن يكون المعنى سابقاً إلى المشاهدة الباطنة، ثم يشرق منها على الروح الخيالى فينطبع

---

(١) الإبريز ص٩٦

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها حديث رقم: ٢٥٤٨٢

الخيال بصورة موازنة للمعنى محاكية له"[١]

ولا شك أن مثل هذا الكلام الصادر عن أئمة الصوفية يقرر ما يعتقدونه في مقام النبوة من كل جلال واحترام يليق بذوات الأنبياء عليهم السلام، وهو مما يدحض كل افتراء على السادة الصوفية بأنهم ينتقصون من مقام النبوة أو أنهم يفضلون عليهم الولاية ! كما زعم بعض الجهلة؛ ممن لا علم لهم بالتصوف ولا بأهله رضي الله عنهم ونفعنا بهم في الدارين آمين.

---

(١) مشكاة الأنوار صـ٧٥

(١١) الكرامات:

الكرامة هي أحد الإشراقات التي تَحدث لبعض السالكين في الطريق إلى الله، وهي مع ذلك من أشهر ما ينقل عن السادة الصوفية ويقترن بذكرهم في كل محفل ومرجع.

والناس بإزاء باب الكرامات على أنحاء شتى؛ فمنهم من بالغ في إنكار باب الكرامات ونسبها إلى الخرافة وخرق العقل! ومنهم من بالغ بنسبة ما لا يصح نسبته إلى العديد من الأولياء والصالحين، وتوسط أئمة الصوفية في ذلك؛ فأثبتوا حصول الكرامة إجمالا استنادا لأدلة الشرع، ثم نقلوا ما صحت نسبته إلى أحد الأولياء، وقرروا عددا من القواعد الواضحة للتعامل مع باب الكرامات؛ كعادتهم في اتباع الشرع الشريف ومنهجه المُنيف.

وقد صُنفت في خصوص كرامات الأولياء العديدُ من المصنفات التي توثق لحصول بعض الكرامات لبعض عباد الله الصالحين، ومنها جامع كرامات الأولياء للشيخ يوسف النبهاني في مجلدين كبيرين، وقد ذكر في مقدمته أنه جمع مادته من نحو أربعين مصدرا من عيون كتب التراث [١]، والتزم فيه كذلك أن يسند ما ينقله من كرامات إلى أصحابها ليكون توثيقا يقبل في هذا الباب، كما هو الشأن في كل علوم التصوف ومعارفه أنها مسندة لأصحابها من الأئمة الأعلام؛ وهي على الإجمال إما أن يكون مصدرها الوحي أو الوجود؛ على نحو ما جاء في قول الله تعالى ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فـ"الأمْر" يشير إلى العلوم التي مصدرها الوحي، و"الخلق" يشير إلى العلوم التي مصدرها الوجود.

الكرامة لغة:

والكرامة لغة من باب "ك ر م " قال الإمام ابن فارس في مقاييس اللغة: "الكاف والراء والميم أصل صحيح له بابان: أحدهما شرف في الشيء في نفسه أو شرف في خلق من الأخلاق. يقال رجل كريم، وفرس كريم" [٢]

---

(١) انظر مقدمة الشيخ النبهاني جامع كرامات الأولياء صـ٥ ط.دار صادر - بيروت دون تاريخ

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس مادة "ك ر م" (٥/ ١٧٢) ط.دار الفكر

فالكرامة وفق القواعد اللغوية هي اسم مصدر للفعل أكرم؛ وهي تشير إلى معنى الشرف كما مر في النقل عن ابن فارس.

الكرامة اصطلاحًا: " هي" أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة لها، يظهر على يد شخص ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبيه "(١)

فالكرامة بحسب هذا التعريف تحصل لبعض عباد الله الصالحين من باب التثبيت لهم أو للدلالة على صحة ما هم عليه من الاستقامة والعمل الصالح؛ ولذلك فقد اشترط العلماء فيمن تحصل له الكرامة أن يكون مستقيما على منهج الشرع الشريف؛ فإن لم يكن من حصل له ذلك الأمر بهذه الحالة المَرضية من الصلاح؛ كأن يكون فاسقا –والعياذ بالله–فإن ذلك الخارق للعادة لا يسمى كرامة في حقه بل استدراجا والعياذ بالله.

وبناء على ذلك فلا يمكن في عرف السادة الصوفية أن تُنسب الكرامةُ لأحد إلا إذا كان شأن من حصلت له أنه ممن استقامت ظواهرهم واستنارت بواطنهم؛ يقول الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن عربي في الفتوحات المكية: " إنا إذا فرضناها كرامة فلا بد أن تكون نتيجة عن استقامة أو تُنتج استقامةً؛ لا بد من ذلك، وإلا فليست بكرامة"(٢)

وسيأتي تفصيل أكثر حول اشتراط الاستقامة في حصول أصل حصول الكرامة. وأهل السنة والجماعة كلهم متفقون على وقوع الكرامات، قال صاحب جوهرة التوحيد الإمام اللقاني:

وأثبتن للأوليا الكرامه ... ومن نفى فأنبذن كلامه(٣)

وقد نص القرآن الكريم على وقوع الكرامات للصالحين ومن ذلك:

ما جاء في قصة السيدة مريم عليها السلام قال تعالى:﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِّ إِنَّ اللهَّ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

---

(١) شرح الشيخ الصاوي على جوهرة التوحيد صـ ٣٤٤ ط.دار ابن كثير

(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٤١٢

(٣) انظر متن جوهرة التوحيد صـ ٥٠ ضمن سلسلة متون عقيدة أهل السنة والجماعة ط.مكتبة المجلد العربي

حِسَابٍ﴾[آل عمران: ٣٧]

وفي ذلك يقول المفسرون كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء!"(١)، وهو أمر خارق للعادة في زمنهم.

وقال تعالى في قصة سيدنا سليمان مع ملكة سبأ:﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[النمل: ٤٠] فكان ذلك الذي عنده علم من الكتاب يعرف اسم الله الأعظم فلما دعا به حُمل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان ببيت المقدس!(٢)

كما قد ورد في السنة الشريفة ما يُستدل به على وقوع الكرامات للصالحين من عباده تعالى؛ ومن ذلك: ما جاء في صحيح مسلم عن صهيب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان في طريقه، إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر، فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع، إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله

---

(١) انظر تفسير الطبري= جامع البيان في تأويل أي القرآن للإمام الطبري ٥/٥٥٣ ط.هجر

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٣ ط.دار طيبة

دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمئشار، فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخدت وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست

أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق " [1].

- قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: "هذا الحديث فيه إثبات كرامات الأولياء"[2] فما حدث مع الغلام وبسببه كان بسبب كونه وليا لله داعيا إليه رغم كل ما رآه من تهديد من الملك الكافر؛ حتى جاد بروحه ليدل الناس على قدرة الله العظيم جل في علاه.

وعلى ذلك فالكرامات ثابتة في نصوص الكتاب والسنة ومقررة ضمن جملة معتقد أهل السنة والجماعة، ولم ينكرها أحد ممن يعتمد على قوله في مثل ذلك.

ولما كان تمام هذا المعنى لا يتضح إلا ببيان معنى الولاية فنشير لها بشيء من التفصيل على النحو التالي.

حقيقة الولاية:

جاء في كثير من آيات القرآن الكريم ما يشير إلى درجة الولاية، وأن لهؤلاء خصائص منَّ الله بها عليهم؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]،وكذلك ورد في السنة المشرفة ما يؤكد على ذلك المعنى؛ من أن لله تعالى عنايةً خاصة بأولياءه ومنه حديث: " من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه"[3].

وقد اهتم العلماء بأيضًاح حقيقة الولاية وبيان ما تقتضيه هذه المرتبة من الكمالات حتى لا يتهاون أحد بها، ولا يتجاسر على دعواها من قصرت همته دونها؛ ومن ذلك ما سطره الإمام

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب، حديث رقم ٧٧٠٣

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٨ / ١٣٠

(٣) صحيح البخاري كتاب الرقاق-باب التواضع،حديث رقم ٦٥٨١

الزركشي رحمه الله تعالى في تشنيف المسامع حيث قال: "حقيقة الولاية: التجرد عن الصور والجهات والوقوف معه بالذات، قالوا: وسمي الولي وليا لأنه تولى الله بطاعته، وقيل: لأن الله تولاه بلطفه، فهو فعيل، إما بمعنى فاعل أو مفعول وحينئذ يصير مجاب الدعاء مكاشفا بغيب الأرض والسماء، مخاطبا بسائر الأسماء فلا يدع إلا إياه إليه، ولا يستدل بغيره عليه، قال أبو سعيد الخراز: إذا أراد الله أن يوالي عبده فتح عليه باب ذكره فإذا استلذ الذكر، فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجالس الأنس، ثم أجلسه على كرسي التوحيد ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار القرب وكشف له الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة خرج من حسه ودعاوى نفسه، ويحصل حينئذ في مقام العلم بالله، فلا يتعلم من الخلق بل تعليم الله وتجلية لقلبه حينئذ، فيسمع ما لم يسمع ويفهم ما لم يفهم"(١)

إذن حقيقة الولاية أنها حالة من التجرد والعبودية لله، و يتفضل الله فيها على عبده بأنواع من العطايا الظاهرة والباطنة؛ ومنها الكرامات التي هي من جملة الإشراقات.

تمييز الكرامة عن غيرها من الإشراقات:

وقبل أن نفصل في معاني وشروط الكرامة عند السادة الصوفية لا بد من أيضًاح ما يلي:

١ – حصول الشَبه ما بين الكرامة وغيرها من الإشراقات:

الكرامة كأحد أنواع الإشراقات قد تتداخل مع بعض الإشراقات الأخرى التي مرت أو التي ستأتي من حيث إن كلا منها هو من قبيل خوارق العادات، فما مر مثلا عند الكلام عن الكشف الذي حدث لبعض الأولياء وما نقلناه عن سيدنا عمر:" بينا عمر بن الخطاب على المنبر يخطب يوم الجمعة إذ ترك الخطبة فقال: يا سارية الجبل مرتين أو ثلاثا ثم أقبل على خطبته فقال أولئك النظراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد جن إنه لمجنون هو في خطبته إذ قال: يا سارية الجبل فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن إليه فقال: أشد ما ألومهم عليك أنك تجعل على نفسك لهم مقالا بينا أنت تخطب إذ أنت تصيح: يا سارية

(١) تشنيف المسامع ٤/٩٣٣

الجبل أي شيء هذا؟ قال: إني والله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل. فلبثوا إلى أن جاء الرسول بكتابه أن القوم لحقونا يوم الجمعة فقتلناهم من حين صلينا الصبح إلى حين حضرت الجمعة ودار حاجب الشمس فسمعنا مناديا ينادي: يا سارية الجبل مرتين فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله وقتلهم فقال أولئك الذين طعنوا عليه: دعوا هذا الرجل؛ فإنه مصنوع له"(١)

فهذا الذي حصل لسيدنا عمر في تلك الحادثة خارق للعادة يدخل في تعريف الكرامة كما مر؛ ويمكن أن يكون ذلك أيضًا حاصلا في بعض الإشراقات الأخرى كالمخاطبات أو المشاهدات أو غيرهما مما سيأتي بإذن الله تعالى.

٢ – دائرة الكرامة أوسع من غيرها من الإشراقات:

إذا تأملنا في مفهوم الكرامة وما يشابهها من الكرامات الأخرى فسنجد أن بين الكرامة وبين أشباهها ما يطلق عليه العلماء" العموم والخصوص المطلق" بمعنى أن كل كشف (مثلا) هو كرامة، وليس كل كرامة كشفًا، ويمكن أن نقول مثل ذلك في خصوص المشاهدات أو المخاطبات إلخ. فالكرامة أوسع من تلك الإشراقات التي تشتمل على خرق للعادة؛ فهي لا تقف عند معرفة أو رؤية أو سماع ما ليس معتادا حصوله؛ بل تحصل بانقلاب الأعيان وظهور الفاكهة والطعام في غير زمنه وأوانه، وطي الزمان والمكان وشفاء المرضى ونزول المطر وغير ذلك، وقد رجح عدد من العلماء أن الكرامة تشمل كل أنواع خوارق العادات منهم الإمام النووي حيث قال:" الكرامات قد تكون بخوارق العادات على جميع أنواعها ومنعه بعضهم وادعى أنها تختص بمثل إجابة دعاء ونحوه وهذا غلط مِن قائله وإنكارٌ للحس، بل الصواب جريانها بقلب الأعيان وإحضار الشيء من العدم ونحوه"(٢)

---

(١) دلائل النبوة للحافظ أبي نعيم ١/ ٥٨٠ ط.دار النفائس.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦ / ١٠٨

ولا يشكل على هذا القول احتمال اختلاط الكرامة بالمعجزة؛ لما في المعجزة من اقتران بدعوى النبوة، ولا يتصور ذلك في الكرامة، التي شرطها ألا تقترن بدعوى النبوة؛ كما مرَّ في تعريفها؛ ثم إن نفس الكرامة التي تحدث لبعض الأولياء هي من معجزات النبي ﷺ على ما قرره العلماء؛ فإن متابعة ذلك الولي للنبي ﷺ واستقامته على منهجه ظاهرا وباطنا من الأسباب الظاهرة في حصول الكرامة، وفي ذلك يقول الإمام ابن عجيبة في تفسيره: " كل كرامة تظهر فهي معجزة له صلى الله عليه وسلم، وكل كشف ومشاهدة فمن نوره صلى الله عليه وسلم"(١)، ويقول الإمام القشيري: " هذه الكرامات لاحقة بمعجزات نبينا صلى الله عليه وسلم، لأن كل من ليس بصادق في الإسلام، لا تظهر عليه الكرامة، وكل نبي ظهرت كرامته على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته"(٢) .

فتحصَّل من ذلك أن الكرامة مهما حدثت وعلى أي نحو من خرق العادة بلغت فهي لا تخرج عن كونها امتدادًا لمعجزات النبي ﷺ، لكن غاية ما في الأمر أنها تظهر على بعض أتباعه الصادقين في متابعتهم له ﷺ.

وبناء على ذلك كله فإنه مما تقرر هنا أن دائرة الكرامة تكون أوسع من دائرة ما عداها من الإشراقات.

٣- حصول الكرامة بعد الموت:

من الأمور المميزة كذلك التي تظهر في الكرامة دون غيرها من الإشراقات أن الكرامة تحصل للولي في حياته وبعد انتقاله! أي أن الكرامة كما تظهر للولي الحي في الدنيا تظهر كذلك تأييدا له بعد انتقاله عن هذه الدار؛ يقول الشيخ الإمام الرائد محمد زكي الدين إبراهيم(٣) رضي الله

(١) البحر المديد ٤/ ٤٠٩

(٢) الرسالة القشيرية ٢/ ٥٢٢

(٣)هو الإمام الرائد السيد أبو البركات زكي الدين محمد بن السيد إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي رضي الله عنه، وهو من كبار أولياء الله ومن أئمة التصوف في القرن العشرين وهو شيخ الطريقة المحمدية الشاذلية

عنه: " الكرامة منحة إلهية من الله تعالى لعبده الصالح، حيًّا كان أو ميتًّا، وسواء أكانت موهوبة أم كانت مكسوبة بصدق اليقين، وإخلاص التعبد فإنما هي اعتبار غيبي معنوي مرتبط بخصائص الروح، واستعداداتها، ومجاهدتها في حياتها. والروح بعد فناء الجسد باقية، والله تعالى يقول: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠] فالكرامة باقية بعد الموت ببقاء الروح وبخصائصها، وقد أشار إليها القرآن في قصة أهل الكهف ببناء المسجد على أهله، وأكدتها السنة الصحيحة، وبخاصة في قصة الصحابي عاصم بن ثابت، الذي استشهد فحمى الله جسده بالدَّبْـر، أي: النحل الجبلي الشرس المتوحش- حتى غيبته الملائكة"(١).

فالكرامة كما تحصل للولي في حياته، فإنها يمكن أن تظهر أيضًا بعد انتقال الولي إلى ربه جل في علاه، وحكمة ذلك أن الله يسوق إليه عباده بواسطة أولياءه وما يظهره الله عليهم في حياتهم أوبعد انتقالهم هو من قبيل الأسباب التي رتبها الله لأجل سَوق الخلق إليه؛ ولذا فإن حصول ذلك ليس مستبعدا على قدرة الله ولا فضله ولطفه بأولياءه وعباده السالكين.

قال شيخ الإسلام الشيخ حسن العطار: " ومما ينبغي أن يعلم أنه حيث كانت الكرامة من الله تعالى فلا فرق في وقوعها بين كون الولي حيا أو ميتا خلافا لمن منعها بعد الموت فإنه لا وجه له والله ذو الفضل العظيم"(٢)

ومؤسس العشيرة المحمدية ؛ درس في الأزهر الشريف وأخذ الطريق عن أبيه الشيخ إبراهيم الخليل وجلس للإرشاد وصنف المصنفات في بيان معالم طريق الصوفية الصحيح، ونال في سبيل الله الإيذاء من قبل أعداء التصوف وادعيائه حتى لقي الله تعالى راضيا مرضيا يوم الأربعاء ١٦ جمادى الاخر ١٤١٩ هـ،انظر:رسالة ترجمة موجزة وتعريف بالإمام الرائد كتبها محي الدين حسين الإسنوي ط.العشيرة المحمدية

(١) وقال بعد ذلك: " ولهذا يؤكد الصوفية أن الولي الكامل هو من تستمر كراماته بعد مماته كما كانت في حياته، فإن للأرواح العالية منزلتها الباقية عند الله خالدة مع خصائصها في ظلال فضل الله وهباته، وعطاياه"أصول الوصول للشيخ محمد زكي الدين إبراهيم صـ٢٤٤، وسيأتي تفصيل وتخريج قصة الصحابي عاصم بن ثابت رضي الله عنه

(٢) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع ٢/ ٤٨١ ط.دار الكتب العلمية

أما ما نقله السيد محمد زكي الدين إبراهيم من حديث الصحابي عاصم بن ثابت فهو ما أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده عن بريدة بن سفيان الأسلمي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عاصم بن ثابت، وزيد بن الدثنة، وحبيب بن عدي، ومرثد بن أبي مرثد إلى بني لحيَّانِ بالرجيع، فقاتلوهم حتى أخذوا لأنفسهم أمانا، إلا عاصم فإنه أبى وقال: لا أقبل اليوم عهدا من مشرك، ودعا عند ذلك فقال: «اللهم إني أحمي لك اليوم دينك فاحم لحمي» فجعل يقاتل وهو يقول:

مــا علتــي وأنـــا جلــد نابـــل	والقـــوس فيهـــا وتـــر عنابـــل
إن لم أقـــاتلكم فـــأمي هابـــل	المـــوت حـــق والحيـــاة باطـــل
وكـــل مـــا حـــم الإلـــه نـــازل	بـــالمرء والمـــرء إليـــه آيـــل

فلما قتلوه كان في قليب لهم، فقال بعضهم لبعض: هذا الذي آلت فيه المكية، وهي سُلافة، وكان عاصم قتل لها يوم أحد ثلاثة نفر من بني عبد الدار، كلهم صاحب لواء قريش، فجعل يرمي وكان راميًا ويقول: خذها وأنا ابن الأقلح، فحلفت لئن قدرت على رأسه لتشربن في قحفه الخمر، فأرادوا أن يحتزوا رأسه ليذهبوا به إليها، فبعث الله عز وجل رجلا من دَبر (١) فلم يستطيعوا أن يحتزوا رأسه "(٢)

فهذا الذي نقله أبو نعيم هو كرامة لسيدنا عاصم بن ثابت بعد استشهاده على يد المشركين، حيث دعا ربه قبل استشهاده ألا يُمكن المشركين منه فحمى الله جسده بكبار النحل.

وهذا الذي حصل مع الصحابي الجليل سيدنا عاصم رضي الله عنه يحصل مثله لزوار

(١) الدبر بالفتح: كبار النحل أو الزنابير ؛ قال في تاج العروس: فسر أهل الغريب بها في قصة عاصم بن ثابت الأنصاري المعروف بحمي الدبر، أصيب يوم أحد فمنعت النحل الكفار منه وذلك أن المشركين لما قتلوه أرادوا أن يمثلوا به، فسلط الله عليهم الزنابير الكبار تأبر الدارع، فارتدعوا عنه حتى أخذه المسلمون فدفنوه، وفي الحديث: «فأرسل الله عليهم مثل الظلة من الدبر»، قيل: النحل، وقيل: الزنابير.

(٢) حلية الأولياء ١/ ١١١

مقامات الأولياء وآل البيت الكرام عليهم السلام؛ عندما يذهب الناس إليهم لعلمهم أن الله الذي أجرى على أيدي هؤلاء الخير والكرامات في حياتهم قادر على أن يجري ذلك عليهم كرامة لهم بعد انتقالهم، وهو ما يشير إليه قول الله تعالى ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الزُّمر:٣٤] فهم يدعون ربهم والله جل في علاه يفعل ما يشاء ويريد.

إذن الكرامة هي من الإشراقات التي تستمر بعد الانتقال، وكأنها أحد تجليات بقاء الروح، وهي علامة من علامات حسن مآل صاحبها؛ نسأل الله حسن الحال والمآل.

بعض القواعد التي قررها السادة الصوفية في شأن الكرامات:

للسادة الصوفية فيما يتعلق بباب الكرامات بعض القواعد المهمة التي استنبطوها من بينات الشرع وأحكامه، وساعدهم على ذلك ما حصل لهم من تجربة سلوكية رشيدة حافظت على مواريث النبوة، وأظهرت معالم الشرع ومقاصده، ومن هذه القواعد ما يلي:

١- الكرامة ليست شرطا في الولاية:

أكد السادة الصوفية أن الكرامة ليست شرطًا في تحقق الولاية، وأن الولاية إنما تتحقق ابتداء بالاستقامة وهي منحة ربانية قبل أن تكون سعيًا وكسبًا من العبد؛ فإن العناية الربانية تسبق سعي العبد واجتهاده؛ يقول الشيخ ابن عجيبة: "لا يشترط في الولي ظهور الكرامة، وإنما يشترط فيه كمال الاستقامة"[١]

بل إنهم جعلوا ظهور الكرامات وكأنه يتناسب عكسيًا مع درجة الولاية؛ أي كلما زادت الولي تدرجا في مدراج الكمال في السير إلى الله فإن ظهور الكرامات على يديه يقل! وهذا على عكس ما يعتقده العوام، وفي ذلك يقول أيضًا ابن عجيبة:" كثير من العوام لا يقرون الولي حتى يروا له آية أو كرامة، مع أن الولي كلما رسخت قدمه في المعرفة قل ظهور الكرامة على يديه؛ لأن الكرامة إنما هي معونة وتأييد وزيادة إيقان. والجبل الراسي لا يحتاج إلى عماد"[٢]

٢- عدم حصول الكرامة للولي والسالك؛ قد يكون من باب الرحمة الإلهية:

فالله عزوجل يربي خلقه بما من شأنه أن يصلح حالهم؛ إذ هو سبحانه رب العالمين، ولذلك قد يمسك الله جل جلاله عن الولي حصول الكرامة حينًا أو حتى دائما من باب الترقية والتقريب، لا الحرمان والإبعاد.

قال الشيخ العارف ابن عجيبة: " إمساك الكرامات عن المريد السائر أو الولي: رحمة واعتناء به، فلعله حين تظهر له، يقف معها ويستحسن حاله، أو يزكي نفسه ويرفع عنها عصا

---

(١) البحر المديد ١/ ١٥٠

(٢) البحر المديد ١/ ١٥٠

التأديب، فيقف عن السير، ويحرم الوصول إلى غاية الكمال، وفي الحكم: «ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها، إلا نادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك». وقال الششتري (١) رضي الله عنه:

ومهما ترى كلَّ المراتب تُجتلي عليك، فحُل عنها، فعن مثلِها حُلنا
وقل: ليس لي في غير ذاتك مطلبٌ فلا صورةٌ تُجلى، ولا طرفةٌ تُجنى(٢)

فالمقدم في الطريق دائما وأبدا هو الإقبال على الله دون ما سواه؛ فلا ينبغي الالتفات عن هذه الغاية العظمى بغيرها حتى لو كانت الكرامة.

---

(١) أبو الحسن علي الشّشتري، قال عنه صاحب نفح الطيب [٢/ ١٨٥ ط.دار صادر بيروت]:" هو علي ابن عبد الله النميري عروس الفقهاء، وأمير المتجردين، وبركة لابسي الخرقة، وهو من قرية ششتر من عمل وادي آش، وزقاق الشّشتري معلوم بها، وكان مجوّداً للقرآن، قائماً عليه، عارفاً بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال الآفاق، ولقي المشايخ، وحجّ حجّات، وآثر التجرّد والعبادات." وله ديوان شعر كبير في حقائق التصوف ودقائقه، توفي رضي الله عنه ٦٦٨ هـ.

(٢) البحر المديد ٣ / ٢١١

٣- كتمان الكرامة عن العامة في حق الولي أولى من إظهارها:

يرى السادة الصوفية كذلك في شأن الكرامة أن الواجب في حق الولي أن يكتم الكرامة لا أن يظهرها؛ لأن الكرامة لا يتعلق بها تحدي كما هو الشأن في المعجزة التي تحصل للأنبياء الكرام عليهم السلام؛ وهذا المعنى نقله العارف الشعراني في طبقاته عن أحد أئمة التصوف في القرن الرابع الهجري؛ وهو العارف أبو عمرو الدمشقي [١] المتوفى ٣٢٠هـ؛ قال الشعراني: "ومن كلامه رضي الله عنه: إن الله تعالى افترض على الأولياء كتمان الكرامات لئلا يفتتن بها الخلق، وأوجب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إظهارها بيانًا، وبرهانًا بالحق"[٢]

وقد تحقق كثير من الأولياء والأصفياء بهذا الأدب؛ وهو الحرص على كتمان كرامتهم وعدم إظهارها للناس، وربما اضطروا إلى إظهارها في أضيق الأحوال لبعض المعاني الشرعي كقضاء الحوائج وجبر الخواطر ونحو ذلك.

ومما نقل في ذلك ما روي عن سيد التابعين أويس بن عامر القرني والذي أدرك زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكنه لم يحظ بشرف الصحبة؛ لأنه كان ملازما لأمه ولم يستطع أن يتركها؛ فأكرمه الله بكرامة استجابة الدعاء! وأخبر عن حاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم تعريفًا بمقامه؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه قال: " كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن، سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال: نعم، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» فاستغفر لي، فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا

---

(١) انظر ترجمته في حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠/ ٣٤٦

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨٦

أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي، قال: فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أويس، قال: تركته رث البيت، قليل المتاع، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه، إلا موضع درهم له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» فأتى أويسا فقال: استغفر لي، قال: أنت أحدث عهدا بسفر صالح، فاستغفر لي، قال: استغفر لي، قال: أنت أحدث عهدا بسفر صالح، فاستغفر لي، قال: لقيت عمر؟ قال: نعم، فاستغفر له، ففطن له الناس، فانطلق على وجهه "(١)

فسيدنا أويس القرني لما علم أن الناس قد علموا بكرامته بعد زيارة سيدنا عمر رضي الله عنه، ترك مكانه مخافة أن يتزاحم الناس عليه فيشغلونه عن عبدة الله؛ لكنه لما طلب منه سيدنا عمر أن يستغفر له امتثالا لأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أجابه واستغفر له.

ومما يروى أيضًا في ذلك ما نقل عن شيخ مشايخنا مولانا الشيخ محمد أمين البغدادي النقشبندي الذي كان من كبار الأولياء، ولأن ترجمة الشيخ ربما تكون عزيزة فنذكر ترجمته هنا تعريفًا بمقامه، وذكرًا لبعض فضائله المنيفة، ثم نذكر مسلكه القويم في حرصه على خفاء كرامته رضي الله عنه.

هو مولانا الجليل السيد / محمد أمين البغدادي شيخ الطريقة النقشبندية رضى الله تعالى عنه وأرضاه، القائم ضريحه الأنور بمسجد بيبرس جاشنكير بالجمالية، هو الولي العارف بالله تعالى شيخ العارفين صاحب المواهب السنية والبركات والفيوضات العلية الذى سعدت بحلوله أرض الكنانة،وفاز بقربه الخواص والعوام الذين شاهدوا نورا تبدى من محياه؛ فأشاع الضوء والأمن في رحب المكان والزمان، ونالوا عطف قلبه الرحيم الذى عم كل كائن وكل إنسان.

---

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أويس القرني رضي الله عنه،حديث رقم (٦٦٥٦)

ولد رضى الله تعالى عنه ببلدة السليمانية بالعراق في الثامن من شهر ربيع الثاني ١٢٨٦ هـ، نشأ يتيما وترعرع في حضانة والدته الطاهرة النقية الحسيبة النسيبة السيدة / أمينة،مع رعاية خاله المحمود السيرة والسريرة له نظرا لوفاة والده.

أدخلاه المكتب فحفظ القرآن الكريم وتبحر في العلم الشريف المنقول منه والمعقول، وكان حُجة في الفقه الشافعي، وأجاد العربية والتركية والفارسية.

أخذ العهد عن غوث السالكين مولانا الشيخ عمر الملقب بضياء الدين، ودخل الخانقاة وسلك الصالحين، ولقبه شيخه بـ"الأمين" لطاعته واخلاصه.

ورأى في صغره الإمام أبا حنيفة رضى الله تعالى عنه جالسا وعليه الهيبة والنور حين وقف أمام قبره الشريف في بغداد.

وعاش شبابه زاهدا بعيدا عن مباهج الحياة وزخارفها،وكان جوادا كريما يحب العزلة والانفراد بعيدا عن الناس.

تعلق قلبه بمحبة الله تعالى والشوق إلى سيدنا رسول ﷺ،ولكنه لم يحصل على إذن شيخه سيدى عمر ضياء الدين الذى طلب منه الانتظار، وقد توالت الأحداث إذ انتقل شيخه إلى رحمة الله تعالى، وخلفه ابنه الشيخ محمد نجم الدين، وبعد عامين من وفاة شيخه ودَّع الخانقاة وانقطع في بيته للعبادة عامين؛ ثم جمع أهله ووزع عليهم ماله وتركته وخرج متوكلا على الله سبحانه وتعالى يسير على الشاطئ حتى أدرك سفينة فسافر إلى أرض الحجاز، وفى المدينة المنورة رأى سيدنا رسول الله ﷺ منامًا، ومع استمرار الطاعة والمجاهدة والاعتكاف كشف عنه الحجب ورأى الرسول ﷺ يقظة وطار فرحا بهذا اللقاء، وظل بالمدينة المنورة ثلاثة عشر عاما متمتعًا بجوار الحبيب المصطفي ﷺ، ومكث في مكة ثلاثة أعوام، وتوجهت نفسه إلى زيارة مصر لزيارة ريحانة رسول الله ﷺ مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عه، والإمام الشافعي رضى الله عنه، فدخل مصر عام ١٩١٤م، ولازم مسجد سيدنا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه، وكان يواظب على زيارة سيدنا الإمام الشافعي والإمام الليثي وسيدتنا سكينة بنت مولانا الحسين رضى الله تعالى عنهم.

واستقر بمصر في مسجد بيبرس جاشنكير في حي الجمالية، وبعد خمس سنوات من الاختفاء وعدم الظهور وعدم الاختلاط بالناس، انتشر بأمر الله تعالى اسمه فلم يلبث حتى توافدت عليه جموع من العلماء والطلاب من مصر وفلسطين وسوريا ولبنان وتركيا والحجاز والسودان والحبشة وكذا من صعيد مصر والعراق وبخاري واليابان والهند والصين، وأقبل عليه علماء الأزهر الشريف فكان يجلهم ويرحب بهم ومن هؤلاء العلماء: الشيخ حسونة النواوي شيخ الأزهر،والشيخ عبدالرحمن قراعة مفتي الديار المصرية، والشيخ بسيوني، والشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ محمد بخيت المطيعي وغيرهم.

وقد انتشر الطريق ببركة الشيخ بين جميع الطوائف في أنحاء البلدان، ونالت مصر الكثير من بركات الشيخ رضى الله تعالى عنه، وكان رضى الله عنه كثير الدعاء لمصر وأهلها الذين أحبهم وأحبوه وخاصة في أحوال الشدائد والمحن التي مرت بها البلاد والتي رفع الله تعالى ببركاته ودعواته تلك الكروب،وظهرت له كرامات كثيرة لا تعد ولا تحصى دون رغبه منه ولا قصد وكان ظهورها لطفًا بالبلاد.

تزوج رضى الله عنه من أسرة كريمة بزوجة تقية فاضلة شريفة نسيبة حسيبة ورزق منها بفضل الله تعالى ثلاثة من الذكور هم: السيد/ عمر،والسيد/ عثمان،والسيد/ محمد بهاء الدين،كما رزق بأنثى واحدة هي السيدة/ فاطمة.

انتقل رضى الله عنه إلى الرفيق الأعلى في السابع عشر من ذي الحجة عام ١٣٥٨هـ،ودفن بمقابر باب الوزير قرب الدراسة بالقاهرة، وبعد ٢٥ عاما جاء تكريم الله تعالى له بتحقيق رغبته حيث كان رضى الله عنه كثيرا ما يقول وهو بمسجد بيبرس (احب أن أكون هنا) فتم نقل جثمانه الشريف إلى الضريح المقام بمسجد بيبرس جاشنكير بالجمالية وكان ذلك يوم الأحد ١٥ جمادى الآخر عام ١٣٨٣هـ الموافق ١٠ أكتوبر سنة ١٩٦٥م نفعنا الله تعالى بمدده وفيض نوره وبركاته آمين يا رب العالمين

ونعود إلى ما حصل له من شأن الكرامة؛ وهو ما يرويه تلميذه مولانا الشيخ أحمد مرسي(١) رضي الله عنه أنه جاءه مرة ومعه أخته الصغيرة، وكان هناك طبيب عيون كبير قد عرضها عليه فقال له: لقد عميت وأصبحت لا ترى.. قد أخذ الله حبيبتيها، فحمل البنت – وسنها تسع سنين حينئذ – وذهب بها إلى الشيخ. وقال له الطبيب يقول إنها أصبحت عمياء فماذا أفعل بها؟!. إن الرجل عندما يفقد بصره يعرف كيف يتصرف فيذهب، فقال له الشيخ هذا قَدَر الله يا أحمد.. قال له: نعم هذا قَدَر الله، فقل له سبحانه كما أعماها أن يرد بصرها.. قال له: ماذا أفعل؟!، هذا قدر الله أذهب بصر البنت.. فقال له أنا لن أقوم من هنا حتى تجد حلاً؛ وهذا من الشيخ أحمد مرسي من باب الدلال على الله والثقة في كرمه ورحمته!

فقال له: إذن أغلق الباب، وقم بفك الغطاء الذى يغطى عينها.. فقام بفكه، فصلى على رسول الله ونفخ فيها وقال اللهم صلِّ على سيدنا محمد، ونفخ نفخة فى عينيها فَرُدَّ بَصَرُ الفتاة إليها وتعلقت برقبته! – كان الشيخ أحمد مرسى حينئذ بلا لحية وسيدنا الشيخ مُلْتَحي – فقالت له ما هذا وتعلقت في لحيته، وهذا يعنى أن الفتاة تبصر، فقال لها: لحية!.. فسألته ولماذا يكون لديك لحية؟! فقال لها: لأنى رجل.. فقالت له: وأخي أحمد أليس رجلاً؟!.. فقال لها: رجل إن شاء لله.. فقالت له: إذن ولماذا لا يوجد لديه لحية؟! فقال: يكون له إن شاء الله.

(١) الشيخ أحمد محمد مرسي النقشبندي ولد بالقاهرة سنة ١٣١٤ هـ الموافق ١٨٩٧م، وتعلم في المدرسة الخيرية الاسلامية ثم التحق بالأزهر الشريف وقرا على الشيخ محمد راشد عضو هيئة كبار العلماء وامام الخاصة الخديوية وعلى الشيخ محمد بخيت المطيعي وعلى الشيخ محمد مخلوف والد المفتي وعلى الشيخ الدسوقي العربي وطبقتهم، ومنهم الأحمدي الظواهري شيخ الازهر، وتعلم الفنون على الشيخ درويش الحريري والخط على الشيخ الغر والشيخ عبد العزيز الرفاعي وغيرهم، ثم أخذ الطريق عن سيدي محمد امين البغدادي عن سيدي عمر عن ابيه عثمان طويلة عن ذي الجناحين خالد ضياء الدين النقشبندي،ثم صاحب السيد احمد بن الصديق واشتغل بإرشاد الخلق و جاءه الاكابر من كل مكان وأشاع ذكر الله في العالمين حتى توفي مرضياً عنه الى رب كريم سنة١٤٠٤هـ من الهجرة الموافق١٩٨٤ م ودفن بجوار قبة الشيخ الامير بالمجاورين شارع صلاح سالم امام باب حديقة الازهر،رحمه الله رحمة واسعة ورضي عنه برضاه والحقنا به على الخير

فأطلق الشيخ أحمد لحيته من حينئذ، قال له: لوجه الله لا تخبر أحداً ما حييت!، فقال: نأخذ العهد وأخذ العهد على ذلك.

لكن الشيخ أحمد قال له: ماذا أفعل الآن؟ لو ذهبت إلى بيتي فسوف يجدونها مبصرة وهذا شيء غريب، فقال له: اذهب إلى الطبيب مرة أخرى يكشف عليها فيجدها شفيت بإذن الله، فقال له حسنًا، وذهب إلى الطبيب وغطى عينها مرة أخرى بالغطاء؛ فالطبيب فتحه وكشف فقال له ما هذا؟! أين كنتم؟! ومن الذى كنتم عنده؟! فقال له: لم نكن عند أحد.. فقال له: أنت لا تقول الحقيقة، فالبنت كان عندها انفصال في الشبكية ولقد وُصِلَ هذا الانفصال. فكيف وُصِلَ؟! عليك أن تخبرني حالا عمن فعل هذا؟ فقال له: لا أحد إنه الله الذى فعل هذا.. فقال له: أنا أعلم أن الله هو فاعل هذا ولكن مَن الذي أجرى الله على يديه هذا فى الظاهر؟ وخرج وحَدَثَت للطبيب حالة جلال.. وقال للمرضى عنده يا إخواننا جاءكم الفرج.. جاءكم الفرج !..

فالشيخ البغدادي قام بإظهار الكرامة جبرا بخاطر تلميذه ومساعدة لأخته الصغيرة على الإبصار بإذن الله؛ لكنه في نفس الوقت كان حريصا على ألا يشتهر ذلك عنه فطلب من الشيخ أحمد مرسي عدم إفشاء سر كرامته لأحد.

هؤلاء الأولياء كانوا يحبون ستر أنفسهم لأنهم يريدون وجه الله ولا يريدون أن يعرف الناس بما خصهم الله به؛ على نحو ما قال ابن عطاء الله في الحكم: " استشرافُك أن يعلمَ الخلقُ بخصوصيتك دليلٌ على عدم صدقك في عبوديتك "(١)

وفي نفس الوقت قلوبهم ممتلئة بالرحمة على خلق الله فيلجأون إلى الله أن يرفع عن عباده بعض ما نزل بهم؛ إذا علموا أن الله قد أذن لهم في ذلك؛ فيكونون سببًا في نفع عباد الله.

فالكرامة في حق أولياء الله صارت وسيلة لنفع خلق الله والدلالة على قدرة الله جل في علاه، نفعنا الله بهم.

---

(١) الحكم العطائية ؛ الحكمة رقم ١٦١

٤- لا تُمنح الكرامة لمن طلبها !

من القواعد التي نبَّه عليها كذلك السادة الصوفية في شأن الكرامة أن حصول الكرامة لا يكون لمن طلبها واستشرف لها؛ لأنها منحة ربانية وليست معلقة على عمل معين من العبد.

يقول الإمام الحجة العارف بالله سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: " لا تعطى الكرامات من طلبها، وحدَّث بها نفسَه، ولا من استعمل نفسه في طلبها، وإنما يعطاها من لا يرى نفسه، ولا عمله، وهو مشغول بمحابِّ الله تعالى ناظر لفضل الله آيس من نفسه، وعمله"(١)

إذن على الإنسان السالك ألا يحدث نفسه بالكرامة، فإن الأدب يقتضي أن ينشغل بما أقامه الله فيه من العبودية.

ونقل أيضًا الإمام القشيري عن بعض أئمة الصوفية ما يلي: " كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك عز وجل يطالبك بالاستقامة"(٢)

فالسالك إلى الله في أول طريقه قد تشغله الأنوار والإشراقات والكرامات التي يراها من شيخه أو من بعض أقرانه؛ فيكون مهمومًا بحصول تلك الإشراقات والكرامات له، وهذا كما تقرر من الأمور التي حذر منها السادة الصوفية؛ حيث ينشغل السالك بما ليس مقصودًا ولا مطلوبًا ويترك المقصد الحقيقي والغاية.

٥ -الكرامة على نوعين حسِّية ومعنوية:

مما أكَّد عليه السادة الصوفية أيضًا في شأن الكرامة، أن الكرامة في عرف السادة الصوفية ليست قاصرة على الخوارق الحسية التي ورد عليها تعريف الكرامة في أول المبحث؛ لكنهم يوسعون مفهوم الكرامة ليشمل بعض الأمور المعنوية التي تحصل لبعض السالكين في الطريق؛ كزوال الحقد والحسد من القلب أو التحقق بمقام الرضا.

---

(١) الطبقات الكبرى ٢/ ٦

(٢) الرسالة القشيرية ٢/ ٣٥٧

ولعل وجه إطلاق مفهوم الكرامة على مثل ذلك هو على أساس أن حصول ذلك ليس معتادا في غالب الخلق الذين غلبتهم أنفسهم وتقودهم رغباتهم وشهواتهم؛ فيكون من تخلص من ذلك كأنه خرقت له العادة!

وممن أشار إلى هذين النوعين الشيخ محي الدين بن عربي فقال رضي الله عنه: " العامة ما تعرف الكرامة إلا الحسية مثل الكلام على الخاطر والأخبار بالمغيبات الماضية والكائنة والآتية، والأخذ من الكون والمشي على الماء واختراق الهواء، وطي الأرض والاحتجاب عن الأبصار، وإجابة الدعاء في الحال؛ فالعامة لا تعرف الكرامات إلا مثل هذا.

وأما الكرامة المعنوية فلا يعرفها إلا الخواصُّ من عباد الله، والعامة لا تعرف ذلك، وهي أن تُحفَظ عليه آداب الشريعة، وأن يوفق لإتيان مكارم الأخلاق، واجتناب سفسافها، والمحافظة على أداء الواجبات مطلقًا في أوقاتها، والمسارعة إلى الخيرات، وإزالة الغل والحقد من صدره للناس، والحسد، وسوء الظن، وطهارة القلب من كل صفة مذمومة، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس، ومراعاة حقوق الله في نفسه وفي الأشياء وتفقد آثار ربه في قلبه، ومراعاة أنفاسه في خروجها، ودخولها فيتلقاها بالأدب إذا وردت عليه، ويخرجها وعليها خِلعة الحضور، فهذه كلها عندنا كرامات الأولياء المعنوية التي لا يدخلها مكر ولا استدراج بل هي دليل على الوفاء بالعهود وصحة القصد والرضى بالقضاء في عدم المطلوب، ووجود المكروه.

ولا يشاركك في هذه الكرامات إلا الملائكة المقربون، وأهل الله المصطفون الأخيار، وأما الكرامات التي ذكرنا أن العامة تعرفها فكلها يمكن أن يدخلها المكر الخفي."[1]

فبان من ذلك كله كيف أن السادة الصوفية قد حموا جناب الشرع الشريف عندما وضعوا لكل ما وجدوه في الطريق قواعد منضبطة، وأسس قويمة، حتى لا ينشغل المريدون بحصول الإشراقات والكرامات لهم، ولا يتعلق الناس بمن ظهرت منه الكرامة لمجرد ظهورها على يده، وإنما يكون مقصدهم جميعًا هو الله لا شيء سواه.

---

(١) الفتوحات المكية ٢/ ٤١١

(١٢) المسموعات:

من الإشراقات الواردة عن أولياء الله الصالحين، ما يسمى بالمسموعات، وقد وردت أخبارٌ كثيرة عن حصول هذه المسموعات لجماعة من الناس، وهي أعم من أن تكون نوعًا من الإشراقات، غير أننا في بحثنا هذا سنتعرض لما يعد منها من جملة الإشراقات، وبالتالي لما يميزها عن غيرها من المسموعات.

المسموعات لغة:

المسموعات بحسب المعنى اللغوي: هي اسم مفعول من الفعل سَمِعَ(الثلاثي)، والمراد منه: كل ما يُسمع من الأصوات المختلفة؛ وهي أحد مدركات الحواس الخمس قال الإمام الرازي:": الماهيات التي ادركناها بأحد الحواس الخمس، وهي: المبصرات، والمسموعات، والمشمومات، والمذوقات، والملموسات" (١)

المسموعات اصطلاحًا:

لم تتناول كتب التصوف –بحسب ما رجعنا إليها – المسموعات كمصطلح وإنما تناولت كتب التصوف وغيره رصد ما حدث مع أهل الله من حصول تلك المسموعات أثناء سيرهم في الطريق إلى الله؛ وهي في الجملة عبارة عن تلك العبارات والألفاظ التي تُسمع من غير رؤية صاحبها، وتشتمل هذه العبارات والألفاظ على تنبيه أو تذكير بحقيقة من الحقائق أو تخويف من عاقبة أمر معين؛ وسبب عدها من جملة الإشراقات أنها تكون سببًا في تثبيت السالك أو في تنبيهه أو تحذيره من ارتكاب فعل معين؛ مما يعد مظهرا من مظاهر العناية الربانية بهذا المريد السالك تستوجب الشكر والثناء على الله تعالى كسائر الإشراقات في الطريق إلى الله.

أنواع المسموعات:

ما يحصل للمريدين والسالكين في طريقهم من المسموعات كما أشرنا من قبل على أنواع؛ فمنها ما يكون على سبيل التحذير من عاقبة المعاصي أو من فعل معين، ومنها ما يكون على

(١) المطالب العالية ١/ ٤٩

سبيل البشرى التي تفتح باب الرجاء، ومنها ما يكون على سبيل الإرشاد لحقيقة من الحقائق، وسنذكر فيما يلي أمثلة كل نوع من هذه الأنواع:

النوع الأول ما يكون على سبيل التحذير من عاقبة المعاصي، أو من فعل معين:

ذكرت كتب السادة الصوفية عددًا من أمثلة هذا النوع؛ ومن ذلك ما يلي:

- جاء في كتاب الهواتف لابن أبي الدنيا قال: " حدثني محمد بن الفضل، عن أبي أسماء؛ أن رجلا دخل غَيضة [1] فقال: لو خلوتُ هاهنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع صوتًا يملأ ما بين حافتي الغَيضة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]"[٢]

- وفيه أيضًا؛ قال: " سمعت محمد بن مخلد، قال: قدمت من مكة مع قوم فدعتني نفسي إلى أمر سوء فسمعت هاتفا من ناحية البيت: ويلك ألم تحج ويلك ألم تحج؟ فعصمني الله عز وجل إلى الساعة"[٣]

- ومنه ما روي في قصة توبة إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه والتي رواها الإمام القشيري في رسالته؛ قال:" أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور من كورة بلخ رضي الله تعالى عنه، كان من أبناء الملوك فخرج يوما متصيدا فأثار ثعلبًا أو أرنبًا وهو في طلبه فهتف به هاتف: يا إبراهيم ألهذا خلقت أم بهذا أمرت؟ ثم هتف به أيضًا من قُربوس سرجه [٤] والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت! فنزل عن دابته وصادف راعيًا لأبيه فأخذ جبة للراعي من صوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه، ثم إنه دخل البادية ثم دخل مكة وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض، ودخل الشام ومات بها وكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ

---

(١) غَيضة بالفتح هي الشجر الكثير الملتف؛ انظر المصباح المنير ٢/ ٤٥٩

(٢) هواتف الجنان للحافظ ابن أبي الدنيا صـ ٣٩ ط.المكتب الإسلامي الطبعة الأولى

(٣) هواتف الجنان صـ ١٣٦

(٤) يريد مقدم السرج وهو ما يوضع على الفرس

البساتين وغير ذلك"[١]

فهذا الذي سمعه إبراهيم بن أدهم و هؤلاء الصالحين هو من جملة المسموعات التي تحصل لبعض عباد الله على سبيل التحذير من عاقبة المعصية والغفلة عن الله؛ إبعادًا للعبد عن سخط الله جل في علاه.

النوع الثاني ما يكون على سبيل البشرى، وفتح باب الرجاء:

من أنواع المسموعات ما قد يكون فيه بشرى لعبد من عباد الله أو فتح لباب الرجاء بالنسبة له؛ ومن ذلك ما يلي:

- ما ذكره الإمام أبو نعيم في حلية الأولياء؛ قال: " ودَّع رجلٌ البيت فقال: اللهم لك الحمد عدد عفوك عن خلقك، ثم رجع من قابل فقالها فسمع صوتا: ما أحصينا مذ قلتها عام أول "[٢]

فهذا فيه بشرى لهذا الرجل الذي حمد الله بهذه الصيغة المباركة أنها قبلت عند الله عزوجل وأن لها ثوابا عظيما عنده.

- وجاء في الرسالة القشيرية؛ قال: " سمعت الشيخ أبا علي الدقاق [٣] رحمه الله يقول: تاب بعض المريدين ثم وقعت له فترة فكان يفكر وقتًا لو عاد إلى توبته كيف حكمه؟ فهتف به

---

(١) الرسالة القشيرية ١/ ٣٥

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٣٦٦

(٣) الأستاذ أبو علي الحسن بن علي الدّقّاق النيسابوري الشافعي لسان وقته وإمام عصره، كان فارها في العلم، متوسطًا في الحلم، محمود السيرة، مجهود السريرة، جنيدي الطريقة، سرّيّ الحقيقة، أخذ مذهب الشافعي عن القفّال، والحصري، وغيرهما، وبرع في الأصول، وفي الفقه، وفي العربية، حتّى شدّت إليه الرحال في ذلك، ثم أخذ في العمل، وسلك طريق التصوف، وأخذ عن النّصرآباذي؛ توفي ٤٠٦ هـ ؛ انظر ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٤٠

قال ابن شهبة: وزاد عليه حالا ومقالا، وعنه: القشيري صاحب «الرسالة».

هاتف يا فلان أطعتنا فشكرناك ثم تركتنا فأهملناك وإن عدت إلينا قبلناك!"(١)

فهذا وأمثاله هو من قبيل التثبيت والتأييد لبعض المريدين في عودتهم إلى طريق التوبة والإنابة، فهو نوع لطف ورحمة إلهية تحصل لبعض المريدين.

النوع الثالث ما فيه إخبار عن بعض الحقائق التي ينتفع بها المريد:

من المسموعات التي رصدتها كتب السادة الصوفية -وهو من أوسع أنواع المسموعات-ما يكون من قبيل الإرشاد للمريدين؛ كأن يكون ما يسمعه المريد مشتملًا على حقيقة تنفعه في دينه أو في سلوكه مع الله، أو توجهه لعمل معين، أو يحمل تصحيحًا لسلوك صدر من المريد في أمر من أمور الأمور؛ ومن ذلك ما يلي:

- قال الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين: " إذا فهم فقهَ الأوراد وسرها فليتبع المعنى؛ فإن سمع تسبيحةً مثلاً وأحس لها بوقع قلبه فليواظب على تَكرارها ما دام يجد لها وقعاً؛ وقد رُوي عن إبراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال أنه قام ذات ليلة يصلي على شاطئ البحر فسمع صوتًا عاليًا بالتسبيح ولم ير أحدًا؛ فقال من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك؟ فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قلت فما اسمك قال «مهلهيائيل» قلت فما ثواب من قاله قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له والتسبيح هو قوله: سبحان الله العلي الديان، سبحان الله الشديد الأركان، سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار، سبحان من لا يشغله شأن عن شأن، سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح في كل مكان. فهذا وأمثاله إذا سمعه المريد ووجد له في قلبه وقعا فليلازمه، وأيامًا وجد القلب عنده وفتح له فيه خير فليواظب عليه"(٢)

فهذا الذي سمعه ذلك المريد كان تعليمًا من الملَك، وإرشادٌ إلى فضل هذه الصيغة من التسبيح.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/ ٢١٠

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٤٨

- وقال الإمام الآلوسي في تفسيره:"حُكي أن إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه أكثر ليلة في الطواف من قوله: «اللهم اعصمني من الذنوب » فسمع هاتفًا من قلبه يقول: يا إبراهيم أنت تسأله العصمةَ، وكل عباده يسألونه العصمة؛ فإذا عصمكم على من يتفضل وعلى من يتكرم"[١]

فهذا أيضًا يدخل في معنى التعليم والإرشاد؛ إذ العصمة المطلقة لا تنبغي إلا للأنبياء عليهم السلام، وأما سائر الخلق من شأنهم طلب الستر عن المعصية والمغفرة عند ارتكابها.

- وجاء في الطبقات الكبرى للشعراني في ترجمة شمس الدين محمد الحنفي الإمام العارف بالله[٢]؛ فقال: " ولم يخرج الشيخ رضي الله عنه من تلك الخلوة حتى سمع هاتفاً يقول:« يا محمد أخرج انفع الناس» ثلاث مرات، وقال له في الثالثة: «إن لم تخرج، وإلا هيه» قال: الشيخ فما بعد هيه إلا القطيعة قال: الشيخ فقمت، وخرجت إلى الزاوية فرأيت على الفسقية جماعة يتوضؤون فمنهم من على رأسه عمامة صفراء ومنهم زرقاء، ومنهم من وجهه وجه قرد ومنهم من وجهه وجه خنزير، ومنهم من وجهه كالقمر فعلمت أن الله أطلعني على عواقب أمور هؤلاء الناس، فرجعت إلى خلفي، وتوجهت إلى الله تعالى فستر عني ما كشف لي من أحوال الناس، وصرت كآحاد الناس، وكان في خلوة الشيخ توتة [٣] مزروعة قال: الشيخ رضي الله عنه فخطر لي أن أباسطها فقلت:« يا توتة حدثيني حدوثة» فقالت بصوت جهوري: نعم إنهم لما زرعوني سقوني فلما أسست فرعت فلما فرعت أورقت، فلما أورقت أثمرت فلما أثمرت أطعمت قال: الشيخ رضي الله عنه فكان كلامها سلوكاً لي، وقد حصل لي بحمد الله ما قالت: التوتة"[٤]

---

(١) تفسير الآلوسي ٢/ ٣١٦

(٢) انظر ترجمته: الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ٧٩

(٣) يريد شجرة توت

(٤) الطبقات الكبرى ٢/ ٨٠

فالذي سمعه الشمسُ الحنفي رضي الله عنه كان توجيها له بالخروج من الخلوة لنفع الناس، فالطريق عند السادة الصوفية لا يقوم على الرهبانية والانقطاع عن الخلق؛ بل إن الحال الأكمل هو التأسي بسيد الخلق ﷺ الذي كان يجمع بين الاجتهاد في العبادة والقيام بشئون الدعوة وتعليم المسلمين.

– ومن ذلك أيضًا ما ذكره الشعراني في العهود المحمدية؛ قال: "وقد أخبرني أخي أفضل الدين رحمه الله أنه كان يقوم الليل مدة كذا وكذا سنة وهو لا يشعر به أحد، قال: «فكنت أظن بنفسي الإخلاص في ذلك» فسمعت هاتفا يقول: «إنما تقوم الليل للذة التي تجدها حال مناجاتك، ولولا هي ما قمت للحق بواجب عبوديته» قال: فاستغفرت الله تعالى، وتجردت من تلك اللذة، وعلمت أن تلك اللذة تجرح في إخلاصي فالحمد لله رب العالمين"[(١)]

– وفي الرسالة القشيرية للإمام القشيري قال: " سمعت أحمد بن عطاء الروذباري يقول: كان لي استقصاء[(٢)] في أمر الطهارة فضاق صدري ليلة لكثرة ما صببت من الماء ولم يسكن قلبي فقلت: «يا رب عفوك!» فسمعت هاتفا يقول: «العفو في العلم» فزال عني ذلك"[(٣)]

فهذا كذلك من قبيل التوجيه والإرشاد؛ فالعبد السالك إذا لم يكن متمكنًا في العلم؛ فإنه يكون عرضة للوساوس والأوهام خاصة في باب الطهارة، ولما شق هذا على ابن عطاء الله الروذباري؛ وقد علم الله منه الصدق، دلَّه بواسطة هذا الصوت على المخرج من حيرته عندما طلب المعافاة، وهو العلم فالعلم دليل الحائرين، وعمدة السالكين، ونبراس السائرين.

شرط موافقة المسموعات للشرع الشريف:

لا بد قبل الاعتداد بمثل تلك المسموعات أنها من قبيل الإشراقات الربانية، وليست من قبيل الوساوس الشيطانية، لا بد من مراعاة ألا تخرج بحال عن إطار الشرع الشريف، فمهما سمع

---

(١) العهود المحمدية ص١٠٩

(٢) استقصى في المسألة وتقصى: بلغ قصواها؛ انظر تاج العروس ٢٠/ ٨٢، والمراد أنه يبالغ في الطهارة؛ وهو خلاف الشرع

(٣) الرسالة القشيرية ٢/ ٥٣١

المريد من ذلك شيئًا وجب أن يعرضه على الشرع الشريف إن كان عالمًا، فإن لم يكن عالما وجب أن يرجع إلى شيخه كي لا يتلاعب به الشيطان.

ومن أشهر الأخبار الواردة عن الأولياء والعارفين في ذلك ما ورد عن القطب سيدي عبد القادر الجيلاني –قدس سره– مما أورده الإمام الشعراني في الطبقات الكبرى عنه قال:" وكان رضي الله عنه يقول: تراءى لي نور عظيم ملأ الأفق ثم تدلى فيه صورة تناديني يا عبد القادر أنا ربك، قد حللت تلك المحرمات فقلت اخسأ يا لعين فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان ثم خاطبني يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بأمر ربك، وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق فقلت لله الفضل فقيل له كيف علمت أنه شيطان قال بقوله وقد حللت لك المحرمات"(١)

فما حدث مع سيدي عبد القادر يفيدنا أن من أفعال الشيطان أن يلبس على العباد في أثناء عبادتهم وقد يسمعهم أصواتًا كي يفتنهم عن طاعة الله ويشغلهم بغير الله، وهنا لا بد على السالك أن يعتصم بالله من هذه الأفعال الشيطانية التي قد تخرجه من دائرة الحضرة الربانية إلى دائرة الأوهام الشيطانية؛ نسأل الله السلامة

المسموعات "الاتفاقية"!:

قد يكون هناك نوع آخر من المسموعات وإن لم يكن من جنس الإشراقات، لكنه كذلك يرجع إلى عموم تصرف القدرة وسبق العناية الربانية بعباد الله الصالحين.

ومن ذلك ما يجريه الله جل جلاله من موافقات المسموعات في أحوال معينة تنبيهًا للمريد أو جذبًا له إلى حضرته جل في علاه؛ فإنه عند النظر والتدقيق نعرف أن ترتيب كل ما يجري على السالك إلى الله هو بأمر الله تعالى، وغاية الأمر أن على المريد أن يصغي بأذن قلبه لرسائل ربه وتجلياته في كل ما حوله على نحو قول القائل:

---

(١) الطبقات الكبرى ١/ ١٠٩

وفي كـــــل شيء لـــــه آيـــــةٌ تـــــدلُّ عـــــلى أنـــــه واحـــــدُ[1]

وهو ما أشار له ربنا جل في علاه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]

يقول الإمام القشيري في تفسير هذه الآية: " استمع إلى ما ينادى به ظاهره من الخلق وإلى ما يعود إلى سرّه من الحق"[2]

فالمريد ينبغي أن يكون منتبهًا غير غافل قلبه ولا لاهٍ عما يدور حوله من تصريف القدرة الإلهية وآثار الحكمة الربانية.

وهذا الباب من الأبواب المهمة التي اهتم بها السادة الصوفية في كتبهم وقواعدهم، يقول الإمام ابن عجيبة الحسني:" إذا مدحك الناس بشيء ليس هو موجودًا فيك، فاعلم أن ذلك هواتف من الحق يهتفون بك ويحوشونك إلى الزيادة ويقولون لك الخير أمامك فلا تقنع بذلك ولا تركن إلى ما هنالك بل ارجع إلى نفسك باللوم ولا يغرنك ثناء القوم؛ فإنهم لا يعلمون منك إلا الصوان الظاهر، وأنت تعلم من نفسك اللب الباطن، قال بعضهم: من فرح بمدح الناس فقد مكن الشيطان أن يدخل بطنه! وكان بعضهم يقول اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، ولا تؤاخذني بما يقولون واغفر لنا ما لا يعلمون؛ وإنما قلنا: مدائح الناس هواتف الحق؛ إذ ليس في الوجود إلا الحق ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١] فأهل الفهم عن الله يستمعون إلى الخطاب، فإذا سمعوه مدحهم بشيء نظروا؛ فإذا كان فيهم علموا أنه تنبيه لهم على مقام الشكر، وإن لم يجدوه فيهم علموا أنه تنبيه لهم على تحصيل ذلك المقام"[3]

فحصول هذه الاتفاقات أو الموافقات هو بأمر الله؛ لكن لا يكون ذلك نافعا إلا لعبد قد أصغى

---

(١) القائل هو لبيد بن ربيعة وهو أحد الشعراء المخضرمين ممن أدركوا الجاهلية والإسلام مات في خلافة معاوية عام ٤١هـ.

(٢) لطائف الإشارات ٣/ ٤٥٦

(٣) إيقاظ الهمم ص٢٧٠

بقلبه وعقله لهذه الرسائل الربانية.

وقد ورد عن بعض العارفين مثل ذلك ومنه ما يلي:

- الإمام أبو حنيفة النعمان وقصته مع من مدحه بما ليس فيه:

ذكر الإمام الغزالي في الأحياء عن بعض أصحاب أبي حنيفة قال: " لقد صحبت أبا حنيفة رضي الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض، وكان أبو حنيفة يحيي نصف الليل فمر بقوم فقالوا إن هذا يحيي الليل كله فقال إني أستحي أن أوصف بما لا أفعل فكان بعد ذلك يحيى الليل كله" (١).

فالإمام أبو حنيفة رحمه الله اعتبر ما قيل في حقه من هؤلاء القوم؛ كأنه رسالة توجهه إلى الاجتهاد في قيام الليل؛ مع الخوف من أن يحمد لما لم يفعل، فهذه من علامات يقظة القلب وحضوره مع الله.

- قصة توبة الفضيل بن عياض:

ذكر الإمام القشيري في الرسالة قصة توبة الفضيل بن عياض فقال: "كان الفضيل شاطرا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس وكان سبب توبته أنه عشق جارية؛ فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليًا يتلو: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فقال: يا رب قد آن! فرجع؛ فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال قوم: حتى نصبح، فإن فضيلًا على الطريق يقطع علينا فتاب الفضيل وأمنهم وجاور الحرم حتى مات"(٢)

ولا شك أن ما حدث للفضيل من تحول من حال المعصية إلى حال التوبة والإنابة كان بتصريف القدرة وسبق العناية بإجراء هذه الآية من ذلك التالي لها في ذلك الوقت؛ ليسمعه الفضيل بقلبه لا بعقله، وبروحه لا بأُذنه.

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٣٥٥

(٢) الرسالة القشيرية ١/ ٤٠

فمثل هذه الموافقات هي في نهاية الأمر من أقدار الله التي يصرفها في كَونه، وهو جلَّ في علاه ﴿ لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ [يوسف:١٠٠]

إذن فلا مانع أن يقع للعابد في طريقه إلى الله بعض المسموعات سواء منها ما كان على سبيل الإشراقات وخرق العادة، أو ما كان من قبيل الموافقات، والجامع لهما أنهما من خلق الله وأمره، والسالك إلى الله عليه أن يفتح قلبه ويصغى بروحه لمثل هذه الرسائل الربانية حتى يحصل بركة المسارعة إلى طاعة الله، ما لم يتبين له أنها ليست من قبيل الرسائل الربانية.

(١٣) التخاطر.

التخاطر في اللغة هو من قبيل أفعال المشاركة التي تأتي من صيغة "تفاعل" كما هو معروف في علم الصرف [١]؛ مثل تضارب وتشارك، ومعنى ذلك أنه يكون بين طرفين فالتخاطر الذي نحن بصدده لا يكون إلا بين شخصين فأكثر، كما سنفصله فيما بعد.

وهو من اسمه من الخاطر؛ وقد مر في مبحث الخواطر أنه: "ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر "[٢]؛ إذن فالتخاطر نوع اطلاع على خاطر أحد الناس؛ أي ما يقع في نفسه.

وقد تناولت الدراسات النفسية التخاطر (Telepathy) واعتبرته أحد الظواهر التي يمكن دراستها وتفسيرها؛ وقد عرفت أحد المراجع العلمية التخاطر بأنه:" الاتصال بين الأفكار واتفاقها في نفس اللحظة، وتوصيل التأثيرات من غير استعانة بمسالك الحس المألوفة"[٣]

والحقيقة أن ظاهرة التخاطر من الظواهر التي رصدتها الكثير من الدراسات قديمًا وحديثًا، فكثيرا ما يحدث أن يفكر إنسان في فكرة ما ثم ينطق آخر أمامه بها في نفس اللحظة أو أن يشعر إنسان في مكان بأن آخر في مكان بعيد عنه يشعر بضيق أو في حاجة له، فيهرع للسؤال عنه، وغير ذلك من الحالات التي تحصل أحيانًا من غير أن يجد الإنسان لها تفسيرا حسيًا معروفًا.

وتختلف التفسيرات لهذه الظاهرة بحسب النموذج المعرفي أو السقف العلمي المستخدم في هذه الدراسة، وللسادة الصوفية كلام ورصد لحصول هذه الظاهرة في كتبهم ومراجعهم نتعرض له هنا باعتبار التخاطر نوعًا من الإشراقات التي تحدث لبعض السالكين في الطريق إلى الله.

---

(١) انظر: المفتاح في الصرف للجرجاني صـ ٥٠ ط.مؤسسة الرسالة، الأولى

(٢) تاج العروس ١١/ ١٩٤.

(٣) معجم علم النفس والتحليل النفسي لمجموعة من أساتذة علم النفس صـ١٠٥ ط.دار النهضة العربية- بيروت، الأولى

ومن أبرز ما يمكن أن يستدل به على حصول "التخاطر" وثبوته عن كبار الصحابة هو ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي جاء في الأخبار أنه كان على المنبر فنادى بأعلى صوته يا سارية الجبل قال: إني والله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل... [1]

والشاهد من ذلك أن سيدنا عمر رضي الله عنه اطلع ليس فقط على حال جيش المسلمين عيانا بل اطلعه الله على ما في صدور عدوهم من إرادة محاصرتهم من أمامهم ومن خلفهم فنطق على الفور مناديًا على قائد الجيش سارية؛ يا سارية الجبل: أي الزم الجبل؛ درءًا لخطة العدو، حتى نصرهم الله!

تعريف "التخاطر" عند السادة الصوفية، وعلاقته بالفراسة:

ذكرت قبل قليل أن السادة الصوفية قد رصدوا ظاهرة التخاطر في محيطهم، وما نقلوه عن مشايخهم من أولياء الله الصالحين؛ غير أن ما نقل عنهم من ذلك وإن كان يؤكد على حصول هذه الظاهرة وأنها نوع من الإشراقات التي يخلقها الله عند بعض السالكين وأهل الله الصالحين، لكنَّ أيًا من كتبهم –بحسب ما رجعنا– لم يتناول هذه الظاهرة بإزاء ذلك المصطلح (التخاطر) بخصوصه؛ لحداثة ذلك المصطلح وارتباطه أكثر بالدراسات النفسية كما مر، لكنهم مع ذلك استخدموا عبارات تقترب جدًا في بعض الأحيان من لفظ التخاطر؛ مما رشح استخدام هذا المصطلح بحيث إنه لا يتعارض مع مشارب السادة الصوفية.

لكن وبعد تتبع الكثير من نصوص السادة الصوفية نجد أن بعضهم كالإمام القشيري استخدم مصطلح "الفِراسة" للتعبير عن ظاهرة التخاطر، ولا يخفى أن الفراسة المقصودة هي الفراسة الوهبية التي تحصل بنحو عطاء إلهي لبعض عباد الله الصالحين، وليست علم الفراسة الذي يمكن تعلمه وله قواعد معروفة؛ قال ابن الأثير في شرح حديث «اتقوا فراسة المؤمن"[2]

---

(١) دلائل النبوة للحافظ أبي نعيم ١/ ٥٨٠، وقد مر ذكر بقية الروايات وتخريجها في مبحث الكرامات.

(٢) رواه الترمذي في سننه؛ وقد سبق تمام تخريجه في مبحث الكرامات.

يقال بمعنيين، أحدهما:

ما دل ظاهر هذا الحديث عليه، وهو ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه، فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس، والثاني: نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق، فتعرف به أحوال الناس، وللناس فيه تصانيف قديمة وحديثة"(١)

ومع ذلك فالفِراسة حتى بالمعنى الوهبي أوسع من مفهوم التخاطر، فهي تشمل الاطلاع على ما يجول بخاطر شخص آخر، وتشمل غيرَه كمن ينظر في وجه إنسان فيعرف صدقه أو حاله مع الله (٢)

وقد عرَّفوا الفراسة بتعريفات منها ما يلي:

- قال الجرجاني في «التعريفات»:" مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب"(٣)

- وفي «الرسالة» للقشيري ما نصه:" الفراسة خاطر يهجم على القلب فينفى ما يضاده وله على القلب حكم"(٤)

وفي «التعرف» للكلاباذي ما نصه: " سئل الجنيد عن الفراسة فقال: هي مصادفة الإصابة(٥)".

ويلاحظ على كل هذه التعريفات أنها تعريفات عامة واسعة للفِراسة يشمل ما نحن بصدده من "التخاطر" وغيرَه.

---

(١) انظر النهاية في غريب الحديث و الأثر ٣/ ٤٢٨ ط.المكتبة العلية، بيروت

(٢) جاء في المكتوبات للإمام الفاروقي (٢/١٩٧) ما يلي: "فراسة أهل المعرفة في تمييزهم من يصلح لحضرة الله جل وعلا ممن لا يصلح، ومعرفتهم أهل الاستعداد الذين اشتغلوا بذكر الله سبحانه ووصلوا إلى حضرة الجمع" ا.ه

(٣) التعريفات للجرجاني صـ١٦٦

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٨

(٥) التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر الكلاباذي صـ ١٣٢ ط.دار الكتب العلمية

إذن "التخاطر" كمفهوم خاص أثبته السادة الصوفية، وبعضهم عبَّر عنه بالفراسة، ويمكن تعريفه بحسب ما جاء في كتب السادة الصوفية من أجل تمييزه عن غيره فيقال:

"حصول الاطلاع على ما يجول في خاطر أحد الناس على سبيل الكرامة وخرق العادة"

الحكمة من حصول "التخاطر":

قبل سرد ما روته كتب السادة الصوفية من حصول التخاطر لبعض أهل الله؛ ينبغي أن نعرج على طَرف من حكمة حصول ذلك بحسب ما يتضح من تعامل السادة الصوفية معها، والمتأمل في تلك الروايات يجد أن معظم ما رووه في ذلك هو من قبيل التنبيه على الأخطاء وترك خواطر السوء طلبا لتهذيب النفس والأدب مع الله ومع أولياءه.

فالله عز وجل قد يُطلع بعض خلقه على عيوب ونقائص بعض السالكين لينبهونهم ويرشدونهم إلى فعل الخيرات وترك المنكرات.

ويشهد لذلك ما ذكره العارف الكلاباذي [1] في التعرف عند عَدِّه أنواعَ اللطائف الربانية بعباده السالكين وذكر منها الهاتف والخاطر وذكر منها الفراسة فقال: "تنبيههم إياهم بالفراسات"[2] أي ما يقع من المشايخ وأهل الله مع المريدين من تنبيه على ما يقع في خاطرهم ونفوسهم من الأمور المخالفة للاستقامة

وقد يكون لأغراض أخرى كالإجابة عن سؤال أو دفع لحيرة؛ إذن إجمالًا هو نوع رحمة ولطف رباني بعباده؛ إذ يسوق إليهم من يكونون سببًا في إصلاح باطنهم وظاهرهم.

أما ما ورد من أخبار في حصول هذا النوع من الإشراقات وهو ما سميناه بالتخاطر فهو أكثر من أن يحصى! قال الإمام حجة الإسلام الغزالي: **" وما حكي من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر** [3]

فنقتصر فيه على طرف يتحقق به المقصود بعون الملك المعبود.

وبحسب ما ظهر لنا من استقراء لهذا النمط من الإشراقات يمكن أن نقسمه إلى ثلاثة.

---

(١)أبو بكر بن إسحاق البخاري الكلاباذي الحنفي الإمام الأصولي من أئمة التصوف قي القرن الرابع للهجري توفي ٣٨٠ه، انظر الجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢/ ٢٧٢ ط.مير محمد كتب خانه -كراتشي

(٢) التعرف للكلاباذي صـ ١٥١

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٥

أنواع من التخاطر:

النوع الأول [1] ما كان تنبيهًا على خطأ أو إرشاد إلى أدب من الآداب.

و من ذلك:

١-عن أبي سعيد الخراز؛ قال: "دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرًا عليه خرقتان فقلت في نفسي هذا وأشباهه كَلٌّ [2] على الناس فناداني وقال { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ [3]} فاستغفرت الله في سري فناداني وقال { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ}[4] ثم غاب عني ولم أره[5].

إذن اطلع الله ذلك الفقير الولي على خاطر أبي سعيد؛ فنبهه على ما في ذلك الخاطر من سوء الظن، فرجع على الفور.

٢- عن زيتونة خادمة أبي الحسين النوري [6] قالت: كان يوم بارد فقلت للنوري: أحمل إليك شيئا؟ فقال: نعم، فقلت: إيش تريد؟ قال خبز ولبن فحملت وكان بين يديه فحمٌ، وكان يقلبها بيده وقد اشتعلت، فأخذ يأكل الخبز واللبن يسيل على يده وعليها سواد الفحم فقلت: في نفسي: ما أقذر أولياءك يا رب ما فيهم أحد! قال فخرجتُ من عنده فتعلقت بي امرأة وقالت: سرقتِ لي رزمةَ ثيابٍ، وجروني إلى الشرطي فأُخبر النوري بذلك؛ فخرج وقال

---

(١) وهو أوسع وأشهر هذه الأنواع

(٢) أي: عالة على الناس

(٣) سورة البقرة:٢٣٥

(٤) سورة الشورى:٢٥

(٥) ذكر هذا الخبر: الإمام القشيري في الرسالة ٣٩٣/٢ والإمام الغزالي في إحياءه ٢٥/٣ ولفظهما متقارب.

(٦)أبو الحسين أحمد بن محمد المعروف بالنوري هو أحد أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري صحب السري السقطي وابن الحواري وكان من أقران الجنيد، وتسميته بالنوري لنور في وجهه! حصلت له محنة واتهم زورا بالزندقة ثم فرج الله عنه حتى نفع الله به توفي ٢٩٥هـ، انظر ترجمته طبقات الأولياء لا بن الملقن صـ٦٤

للشرطي: لا تتعرضوا لها فإنها ولية من أولياء الله تعالى!

فقال الشرطي: كيف أصنع والمرأة تدعي؟!

قال: فجاءت جاريةٌ ومعها الرزمة المطلوبة، فاسترد النوري المرأة.

وقال لها لا تقولين بعدها: ما أقذر أولياءك، قالت فقلت: تبت إلى الله تعالى(١).

وهنا أيضًا يتضح كيف أن تلك المرأة قد وقع في خاطرها سوء الأدب مع أحد أولياء الله، مع كونها في خدمته في الظاهر، لكن أراد الله بما أظهره الله من خاطرها للنوري وما حدث لها أن تتنبه وتحسن الأدب في الباطن أيضًا.

٣- قال أبو موسى الديلمي: سألت عبد الرحمن بن يحيي عن التوكل فقال: لو أدخلت يدك في فم التنين (٢) حتى تبلغ الرسغ لا تخف مع الله تعالى شيئا غيره، قال: فخرجت إلى أبي يزيد لاسأله عن التوكل فدققت الباب فقال: أليس لك في قول عبد الرحمن كفاية فقلت: افتح الباب، فقال: ما زرتني أتاك الجواب من وراء الباب (٣)! ولم يفتح لي الباب، قال: فمضيت ولبثت سنة ثم قصدته، فقال: مرحبا جئتني زائرا فكنتُ عنده شهرًا فكان لا يخطر بقلبي شيء إلا حدثني عنه! فعند وداعه قلت: أفدني فائدة فقال: حدثني أخي أنها كانت حاملا بي فكانت إذا قدم لها طعام من حلال امتدت يدها إليه، وإذا كان فيه شبهة انقبضت يدها عنه(٤).

إذن اطلع الله أبا يزيد على ما في نفس الديلمي من الحاجة للسؤال مرة أخرى عن التوكل؛ فأفاده أن ما قرره له عبد الرحمن بن يحيى يكفيه، وفي هذا درس لترك كثرة السؤال؛ فهو من الشوال واللوافت في الطريق، وأن صحبة المشايخ أساسها حُسنُ الاعتقاد والمسارعة للعمل، ولذلك لما جاءه مرة أخرى يريد زيارته والانتفاع به فتح له الباب وعلَّمه وأفاده؛ لما تحقق

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/ ٥٥٠ بتصرف يسير

(٢) التنين: الحية العظيمة

(٣) يريد أن حاجته قضيت وهي إجابة السؤال، وأنه لم يأت لزيارته فلا حاجة له في فتح الباب!

(٤) الرسالة القشيرية ٢/ ٣٩٤

بحسن الاعتقاد وترك الانشغال بكثرة السؤال.

٤-ومما جاء عن إمامنا القطب سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه قال:" دخلت مدينة تونس وأنا شاب صغير فوجدت بها مجاعة شديدة ووجدت الناس في الأسواق فقلت في نفسي لو كان عندي ما أشتري به خبزًا لهؤلاء الجياع لفعلت، فألقي في سرى: خذ ما في جيبك فحركت جيبي فإذا فيه دراهم فأتيت إلى خباز بباب المغارة فقلت له: أعدَّ خبزك. فأَعدَّه فتناولته للناس فتناهبوه ثم أخرجت الدراهم فناولتها الخباز فقال: هذه زائفة [١] وأنتم معاشر المغاربة تستعملون الكيمياء[٢]، قال: فأعطيته برنسي وعمامتى من على رأسي رهنًا في ثمن الخبز،وتوجهت إلى جهة الباب، فإذا برجل واقف عند الباب فقال: يا علي أين الدراهم.

فأعطيتها له فهزها في يده وردها إلي وقال: ادفعها إلى الخباز، وأعطيتها له فقال: نعم هذه طيبة ورد لي البرنس وعمامتى ثم طلبت الرجل فلم أجده فبقيت متحيِّرًا في نفسي، إلى أن دخلت الجامع يوم الجمعة وجلست عند المقصورة في الركن الشرقي وأدَّيت تحيَّة المسجد وسلَّمت وإذا بالرجل عن يميني فسلَّمت عليه فتبسَّم وقال لي: يا علي أنت تقول لو كان عندي ما أطعم به هؤلاء الجياع لفعلت، تتكرم على الله الكريم في خلقه ولو شاء لأشبعهم وهو أعلم بمصالحهم، فقلت له: من أنت يا سيدي؟ قال: أنا أحمد الخضر[٣]. كنت بالصين وقيل لي: أدرك وليي عليًّا بتونس، فأتيت مبادرًا إليك فلما صلَّيت الجمعة نظرت إليه فلم أجده [٤].

(١) زائفة أي مغشوشة وفي المطبوع:مفارقة وهو تصحيف.

(٢) الكيمياء أو السيمياء:كان يعتقد قديما أنها علم تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب! انظر تاج العروس مادة ك و م ٣٣/٣٨٦

(٣) المشهور أن سيدنا الخضر له أسماء عديدة؛ منها ايلياء وأن كنيته أبو العباس،وقد مر في مبحث المشاهدات بيان أقوال العلماء في حياته.

(٤) المفاخر العلية في المآثر الشاذلية أحمد بن عباد المحلي صـ١٤ ط.المكتبة الأزهرية للتراث

إذن ما نقله الإمام أبو الحسن الشاذلي عما حدث له في أوائل سلوكه يكشف لنا كيف أن الله اختار له مقامًا أعلى مما هو فيه وهو رؤية ألطاف الله في أقداره، وأن الولي لا ينبغي أن ينشغل بفعله عن فعل الله بل يرى فعل الله قبل فعله، وما فعله في الحقيقة وإن كان ظاهرة إرادة الخير بالخلق، لكن الله يريد من أولياءه مزيد الكمال والترقي في الفهم عن الله، على نحو قولهم: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» فلذلك اطلع الله سيدنا الخضر على خاطر سيدي أبي الحسن وأرشده إلى الأفضل.

٥ – روى ابن العماد في شذرات الذهب عن عبد الله بن أبي الحسن الجبّائي [١] قال:" كنت أسمع كتاب «حلية الأولياء» على شيخنا ابن ناصر، فرقّ قلبي، وقلت في نفسي: أشتهي أن أنقطع عن الخلق وأشتغل بالعبادة، ومضيت وصلّيت خلف الشيخ عبد القادر، فلما صلى، جلسنا بين يديه، فنظر إليّ وقال: إذا أردت الانقطاع فلا تنقطع حتّى تتفقّه، وتجالس الشيوخ وتتأدّب بهم، فحينئذ يصلح لك الانقطاع، وإلّا فتمضي وتنقطع قبل أن تتفقه، وأنت فريخ ما ريّشت، فإن أشكل عليك شيء من أمر دينك تخرج من زاويتك، وتسأل الناس عن أمر دينك؟ ما يحسن بصاحب الزاوية أن يخرج من زاويته، ويسأل الناس عن أمر دينه. ينبغي لصاحب الزاوية أن يكون كالشمعة يستضاء بنوره [٢]"

فالشيخ أبو محمد الجبائي كان قد خطر له خاطر الاشتغال بالعبادة وترك الخلق! لكن الله قيض له سيدي عبد القادر الجيلاني الذي أرشده أن ذلك الخاطر ليس سديدًا وأن الأولى في حق المريد أن يبدأ بالتفقه حتى لا يقع في الإشكالات، فالمنقطع للعبادة شأنه أن ينتفع به الناس، لا أن يكون عالة عليهم؛ ولذلك لا يكون التفرغ للعبادة إلا بعد التفقه وحصول

---

(١) الفقيه الزاهد أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن بن أبي الفضل الشامي الجبائي كان من أسرة نصرانية من الشام وأسلم وحسن إسلامه وتفقه على مذهب الحنابلة ثم صحب الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتفع به وتوفي بأصبهان سنة ٥٠٦هـ انظر ترجمته: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٣/ ٩١ ط.العبيكان.

(٢) شذرات الذهب لا بن العماد ٧/ ٣١

الكفاية في أمر الدين والدنيا.

٧ – ومما يروى عن الشيخ محمد أمين البغدادي النقشبندي الذي مرت ترجمته في «مبحث الكرامات» أن تلميذًا له كان في الجامع الأزهر المعمور، وقد أُذِّن لصلاة العصر فخرج مسرعًا من الجامع الأزهر ليدرك الصلاة مع الشيخ البغدادي بمسجد"الظاهر جاشنكير" فقابله أحد العاملين في الجامع الأزهر وقال له: لم تخرج مسرعا هكذا ؟! فقال حتى أدرك الصلاة مع شيخي في مسجده، فكأن الرجل تعجب من هذا الجواب، وقال له: ولماذا تترك الصلاة في الأزهر المعمور وتذهب للصلاة خلف شيخك؟ من يكون شيخك؟ سيدنا عمر بن الخطاب مثلًا!

وكأن التلميذ قد شعر بسخرية في كلام ذلك العامل فرد عليه قائلًا: بل هو أحسن منه!

وعندما وصل ذلك التلميذ إلى مسجد الظاهر جاشنكير كان قد سُبق بنحو ركعة أو ركعتين(١) ولما انتهى الشيخ البغدادي من صلاته وسلم أخذ يتكلم رافعا صوته قائلا: كيف يتحامق أحد الناس ويقول إن شيخه أفضل من سيدنا عمر! فأدرك التلميذ على الفور وهو في صلاته أنه هو المقصود، فأسرَّ في نفسه أن ذلك خطأ منه ولكنه بسبب أن ذلك العامل أغاظه بما قاله ! فرد الشيخ البغدادي على الفور: حتى لو أغاظك بكلامه، ما كان لك أن تقول ذلك !

فالشيخ البغدادي اطلعه الله على ما قاله التلميذ من مقالة فيه سوء أدب بسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه فنبهه على ذلك من غير أن يعرف أحد من المقصود، ثم لما خطر في بال التلميذ جواب عن سبب فعله؛ بين له الشيخ أن الأولى بالمريد ألا يندفع في الدفاع عن شيخه بدون التقيد بآداب الشرع والتي منها التأدب مع مقام الصحابة الكرام، وكل ذلك من غير أن يدرك أحد الموجودين مَن المقصود مِن كلام الشيخ؛ لأن أولياء الله هم أهل نصيحة وليسوا أهل

---

(١) يقع مسجد الظاهر جاشنكير ناحية باب النصر بحي الجمالية وعلى بعد يقترب من ٢ كم من الجامع الأزهر، ما يعني أن السير إليه يستغرق نحو ثلث ساعة تقريبًا، وكلمة جاشنكير: كلمة تركية تعني "متذوق الطعام"؛ حيث كان يعهد إلى أحد الموظفين بالإشراف على طعام الملك خشية أن يدس له السم.

فضيحة.

إذن يتضح لنا من هذه النقول مدى عناية الله بالسالكين في بداياتهم؛ حيث يرشدهم إلى ما وقعوا فيه من أخطاء في باطنهم؛ فكان أمر" التخاطر" لطفًا من الله بهم إذ اطْلَعَ بعض أولياءه ممن يتخلق بالرحمة الربانية على ما جال في خاطرهم من خواطر السوء أو من عدم الفهم عن الله مراده؛ فيحصل التنبيه، وتتحقق البواطن بأمر الله، والحمد لله رب العالمين.

النوع الثاني ما كان جوابًا عن استشكال أو دفعًا لحيرة.

ومن ذلك ما يلي:

١-روى الإمام القشيري عن نفسه قائلًا: " كنت في ابتداء وصلتي بالأستاذ أبي علي رضى الله عنه [١] عُقد لي المجلس في مسجد المطرز فاستأذنته وقتًا للخروج إلى «نَسَا[٢]» فأذن لي فكنت أمشى معه يومًا في طريق مجلسه فخطر ببالي ليته ينوبُ عنِّى في مجالسي أيام غيبتي، فالتفت إلي وقال: أنوب عنك أيام غيبتك في عقد المجالس! فمَشيتُ قليلًا فخطرَ ببالي أنه عليلٌ يشق عليه أن ينوب عنى في الأسبوع يومين؛ فليته يقتصر على يوم واحد في الأسبوع، فالتفت إلي وقال: إن لم يمكنني في الأسبوع يومان أنوب عنك في الأسبوع مرة واحدة، فمشيت معه قليلًا فخطر ببالي شيء ثالث فالتفت إلي وصرح بالإخبار عنه على القطع [٣]"

فهذا النقل يتضح منه كيف أن الشيخ أبا علي الدقاق كان من أهل هذه الكرامة؛ وقد دفع عن تلميذه الحيرة والحرج بجوابه ومبادأته له بقبوله النيابة عنه في مجلسه.

٢- يحكي الشيخ أحمد بن المبارك أنه كان جالسًا في المسجد وبيده كتاب «الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور» فعثر منه على حديث أشكل عليه، فقال في نفسه: يا ليت الشيخ حاضر حتى أسأله عن معناه، قال: فلم ألبث أن جاءني رضي الله عنه وجلس بإزائي، ففتحت الكتاب

---

(١) أي: أبي علي الدقاق وهو شيخ الإمام القشيري، وقد مرت ترجمته في مبحث المسموعات

(٢) أي مدينة "نسا" وهي مدينة بأقليم خراسان قديما،وتقع الآن بجمهورية تركمانستان

(٣) الرسالة القشيرية ٢/ ٣٨٨

وقلت: يا سيدي إني كنت أتمنى أن أسألك عن حديث فيه. فقال رضي الله عنه: وأنا إنما جئتك لأجل الجواب فسل، فذكرت له الحديث، فذكر الجواب رضي الله عنه ونفعنا بعلومه [١]

فالشيخ الدباغ رضي الله عنه اطلعه الله على حيرة تلميذه في فهم أحد الأحاديث، فبادر هو بالذهاب له للجواب عنه.

٣- يروي لنا إمامنا القطب أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه قال: "كنت يومًا بين يدي الأستاذ[٢] فقلت في نفسي: ليت شعري هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم؟ فقال ولد الشيخ ـ وهو في آخر المكان الذي أنا فيه ـ :يا أبا الحسن ليس الشأن من يعلم اسم الله الأعظم إنما الشأن من يكون هو عين الاسم الأعظم. فقال الشيخ: أصاب وتفرَّس فيك ولدي[٣]".

فالشيخ أبو الحسن الشاذلي لما شعر بهذه الحيرة ووقع في قلبه سؤال عن معرفه شيخه ابن مشيش بالاسم الأعظم؛ الذي يكون به الفتح واستجابة الدعاء، فهنا اطلعَ الله شيخَه على حَيرة تلميذه، وأجابه عن طريق ولد له –على سبيل الكرامة– وكأن الشيخ أراد أن يلفته عن التعلق بالاسم الأعظم ليتعلق بالعبودية لصاحب الاسم الأعظم !

ولعل اختيار الشيخ ابن مشيش الجواب بهذه الطريقة أبلغ في النفس حيث أشار له أن الجواب عن هذا ومعرفته حاصلة حتى للصغار، فيكون هذا أدعى لترك الالتفات إليه وعدم الانشغال به.

المخاطبة بالتخاطر

هذا النوع لا يدخل في أي من النوعين الأولين؛ ولعل ذلك بسبب أن "التخاطر" هنا ليس

---

(١) انظر الإبريز صـ٩٣، بتصرف

(٢) المراد بالأستاذ: القطب عبد السلام بن مشيش الحسني رضي الله عنه

(٣) هذه رواية الشيخ سيدي ابن عطاء الله السكندري في لطائف المنن صـ ٦٣ ط.الفجر الجديد، وقد جاءت في مصادر أخرى أكثر توسعًا، وفيها التصريح أن هذا كان في مجلس سيدي عبد السلام بن مشيش الذي أمدَّ أحد أولاده بهذا الجواب انظر:درة الأسرار في مناقب وأقوال الإمام أبي الحسن الشاذلي صـ٣١ ط.مركز جامعة مصر للعلم والتكنولوجيا،ت: أ.د أنس الفقي

فقط مجرد الاطلاع على الخاطر من قبل الولي أو العارف، بل قد يكون بإيصال خاطر معين إلى المريد،وقد يكون حتى من غير العارف! وقد أتينا بذلك هنا لما يقتضيه الاستقراء والتقصي من تناول مثل ذلك والتعليق عليه:

١-وأول ما وجدناه من ذلك ما روي عن خير النساج (١) قال:" كنت جالسًا في بيتي فوقع لي أن الجنيد بالباب فنفيت عن قلبي فوقع ثانيا وثالثا فخرجت فإذا بالجنيد فقال: لمَ لم تخرج مع الخاطر الأول؟! (٢)

فظاهر هذه الرواية أن الجنيد رضي الله عنه كأنه يخاطبه في سره بذلك الخاطر، وخير النساج يصرف ذلك عن نفسه حتى غلب على ظنه أن ما يجده واقع بالفعل فخرج فوجد الجنيد فعلًا

٢-جاء في الرسالة القشيرية عن أبي العباس بن مسروق قال: " قدم علينا شيخ فكان يتكلم علينا في هذا الشأن بكلام حسن، وكان عذب اللسان جيد الخاطر، فقال لنا في بعض كلامه: كل ما وقع لكم في خاطركم فقولوه لي؛ فوقع في قلبي أنه يهودي! وكان الخاطر يقوى ولا يزول، فذكرت ذلك للجريري فكبر عليه ذلك فقلت: لابد أن أخبر الرجل بذلك؛ فقلت له: تقول لنا ما وقع لكم في خاطركم فقولوه لي؛ إنه يقع لي أنك يهودي!

فأطرق ساعةً ثم رفع رأسه فقال: صدقتَ؛ أشهد أن لا الله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وقال: قد مارست جميع المذاهب وكنت أقول إن كان مع قوم منهم شيء فمع هؤلاء، فداخلتكم لأختبركم؛ فأنتم على الحق، وحسن إسلامه (٣).

فهذا الخبر يفيد أمرين:

أولهما أن حصول التخاطر يقع بإيصال خاطر معين إلى الغير للاختبار، وأيضًا قد يقع لمن ليسوا من أهل الحق كما وقع لذلك اليهودي قبل إسلامه.

---

(١) خير النساج أبو الحسن مُحَمَّد بن إِسمَاعِيل السامريّ من كبار العلماء والأولياء في القرن الرابع لقي الجنيد وسري السقطي توفي ٣٢٢ه انظر ترجمته في الرسالة القشيرية ١/ ١١٣

(٢) الرسالة القشيرية ٢/ ٣٩٥

(٣) الرسالة ٢/ ٣٩٦.

فليس كل ما يقع خارقا للعادة دليل على صدق من وقع على يديه كما هو معلوم في شان خوارق العادات ومر معنا نحوه في مبحث الكرامات.

وهو ما يجعلنا نختم هذا المبحث ببعض ما ذكروه من شروط صدق "التخاطر".

خاتمة في بعض شروط صدق "التخاطر" أو "الفراسة":

كما هو الشأن في كل الإشراقات التي تحصل للسالكين؛ هناك بعض الشروط الواردة في شأن "التخاطر" لعدِّه من الإشراقات الربانية التي يتفضل الله بها على بعض عباده، فمع ما قررنا مرارًا من أهمية عدم الالتفات والوقوف عند مثل هذه الإشراقات إذا حصلت، فإن السادة الصوفية قد ذكروا بعض الشروط التي تتحقق فيمن تصدق فراسته، وقد ذكر بعض هذه الشروط الإمام القشيري في الرسالة ومن ذلك ما يلي:

١ - التحقق بأوامر الشرع ظاهرًا وباطنًا:

عن شاه الكرماني [(١)] قال: " من غضَّ بصرَه عن المحارم، وأمسك نفسَه عن الشهوات، وعمَّر باطنَه بدوام المراقبة، وظاهرَه باتباع السنة، وتعوَّد أكلَ الحلال، لم تخطئ فِراسته[(٢)]"

٢ -الفِراسة نور لا يناله إلا أهل العناية:

سئل أبو الحسن النوري من أين تولدت فِراسة المتفرسين؟ فقال: من قوله تعالى: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [الحجر: ٢٩] فمن كان حظُّه من ذلك النور أتم كانت مشاهدته أحكم، وحكمه بالفراسة أصدق؛ ألا ترى كيف أوجب نفخ الروح فيه السجودَ له بقوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر: ٢٩].... و قال الإمام القشيري: إن الله سبحانه وتعالى خص المؤمنين ببصائر وأنوار بها يتفرسون وهي في الحقيقة معارف؛ وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم «فإنه ينظر بنور الله [(٣)]» أي: بعلم وبصيرة يخصه الله تعالى به ويفرده به [(٤)].

---

(١)شاه بن شجاع الكرماني أبو الفوارس. من أولاد الملوك، وكان كبير الشأن، صحب أبا تراب النخشبي توفي قبل الثلاثمائة انظر ترجمته طبقات الأولياء لابن الملقن ١/ ٣٦٠ ط.الخانجي وحلية الأولياء ١٠/ ٢٣٧

(٢) الرسالة القشيرية ١/ ٩٤

(٣) رواه الترمذي في سننه عن أبي سعيد، ومر تمام تخريجه في مبحث الكشف.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/ ٣٨٩

٤-الفراسة وحصول التخاطر لا يُدَّعى:

قال أبو حفص النيسابوري [١]:" ليس لأحد أن يدَّعي الفراسة؛ ولكن يتقي الفراسة من الغير، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا فراسة المؤمن» ولم يقل تفرسوا وكيف يصح دعوى الفراسة لمن هو في محل اتقاء الفراسة [٢]".

فالسالك والمريد ينبغي له أن يترك الالتفات إلى ما غاب عنه من أسرار الخلق؛ بل ينبغي أن ينشغل بنفسه، وليطلب من الله الستر والعافية.

---

(١) أبو حفص النيسابوري الزاهد، شيخ خراسان، واسمه عمرو بن مسلم، وكان كبير القدر، صاحب أحوال وكرامات، توفي ٢٦٤ هـ وقيل ٢٦٧ هـ، انظر ترجمته في حلية الأولياء ١٠/٢٢٩

(٢) الرسالة القشيرية ٢/ ٣٩٠

(١٤) انفتاح البصيرة:

يسعى السادة الصوفية من خلال مجاهداتهم إلى الوصول إلى الله، أي إلى المعرفة به والمعرفة بالله هي حقيقة الحقائق، التي هي مقصد كل سالك إلى الله جل في علاه.

وقد يتجلى الله على بعض أولياءه ببعض الحقائق في الطريق ويأذن لهم بالاطلاع على ما يوصلهم إليه من المعارف المتعلقة بالعوالم المختلفة.

والمعنى الذي يتكرر كثيرًا في كل هذه الإشراقات أن حصول ذلك ليس مقصدًا في ذاته ولا يطلبه السالك؛ فمهما اطلع على بعض هذه الحقائق أو حصل له سبب ذلك من انفتاح بصيرته ومعرفة ما كان غيبًا بالنسبة له فكل ذلك محض فضل من الله، وعلى المريد أن يقابل هذه النعمة بالشكر وشهود المنة من الله على حد قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «أفلا أكون عبدًا شكورًا» (١).

ومن الإشراقات التي يتجلى بها الله على بعض عباده وتكون سببا في معرفة بعض الحقائق أو هي كالمقدمة لها؛ إشراق «انفتاح البصيرة»

تعريف البصيرة:

عرَّف الجرجاني في «التعريفات» البصيرة بقوله: " قوة للقلب المنور بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها، بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها"(٢)

وأما حصول هذا الإشراق وآثاره فقد ورد في كلام السادة الصوفية وفي كتبهم على النحو التالي:

١ -انفتاح البصيرة من آثاره رؤية الحق تعالى في كل شيء:

قال الشيخ ابن عجيبة في «البحر المديد»: " فمن فُتحت بصيرته رأى الحق تعالى فيها، أو

---

(١) صحيح البخاري كتاب التهجد باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم الليل، حديث رقم ١١٣٠.

(٢) التعريفات للجرجاني صـ٤٦

قبلها، أو معها، ومن عميت بصيرته لم ير إلا حسَّ الأكوان الظُّلْمَانِيَّةِ، والله تعالى أعلم"[١]

- وقال: " وما يستوي الأعمى، الذي لا يرى إلا حسَّ الكائنات، والبصير، الذي فتحت بصيرته، فشاهد المكوّن، ولم يقف مع حس الكون؟"[٢]

٢- تدبر القرآن الكريم والعمل به من أسباب انفتاح البصيرة:

قال الشيخ ابن عجيبة في «البحر المديد»: "هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ أي: هذا القرآن واتباع الشريعة بصائر لقلوب الناس، كما جُعل روحاً وحياة لها، فإنَّ من تمسك بالكتاب والسنة، وأمعن فيها النظر، وعمل بمقتضاهما، فُتحت بصيرته، وحيي قلبُه، وَهُدىً من الضلالة وَرَحْمَةٌ من العذاب، لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ لَمن كَمُلَ إيمانه وإيقانه بالأمور الغيبية" [٣]

- وقال أيضًا في بيان الرحمة التي يشتمل عليها القرآن وأن من تنفتح بصيرته هو من يدرك آثارها: "الرحمة المشتمل عليها الرحمن على قسمين: رحمة ذاتية لا تُفارق الذات، ورحمة صفاتية يقع بها الإمداد للخلق، فيرحَم بها مَنْ يشاء من عباده، وتسمى الرحمة الذاتية رحمانية، ولَمَّا كانت لا تُفارق الذات وقع التعبير بها في الاستواء، فقال تعالى: {الرحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ} [الفرقان:٥٩]، وإليه أشار في الحِكَم [٤] بقوله: يا مَن استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً في رحمانيته... الخ

وأما الرحمة الصفاتية، وهي التي يقع بها الإمداد، فتتنوع بتنوُّع الأسماء الحسنى، وهي تسعة وتسعون. أمّا الأسماء الجمالية فالرحمة فيها ظاهرة، وأمّا الأسماء الجلالية فالرحمة فيها: عدم انفكاك لطف الله عن قدره، والرحمة الذاتية هي المُوفية مائة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: " إنّ اللهَ تعالى خَلَقَ مائةَ رحمة، أَمسك عنده تسعةً وتسعين، وأنزل واحدةً إلى الدنيا، بها يتراحم

---

(١) البحر المديد ٤/ ٦٩

(٢) البحر المديد ٤/ ٥٣٤

(٣) البحر المديد ٥/ ٣٠٩

(٤) أي الحكم العطائية لسيدي أحمد بن عطاء الله السكندري

الخلقُ [١] " الحديث، أو كما قال عليه السلام، ولَمَّا كان القرآن من أجلّ النِعَم عبّر عن تعليمه بالرحمانية، التي هي من الصفات الخاصة؛ لأنّ القرآن مُظهر لأوصاف الذات وأسرارها وأفعالها، وكاشف لحقائقها، عند مَن فُتحت بصيرته" [٢]

٣ – من آثار انفتاح البصيرة مشاهدة القيامة لمشاهدته فناء الأشياء:

قال ابن عجيبة في البحر المديد:" ولو فُتحت بصيرتُه لشاهد القيامة في كل ساعة ولحظة، بتعاقب تجلي الإفناء والإبقاء" [٣]

٤ – من آثار انفتاح البصيرة فهم دقائق القضاء والقدر:

قال الإمام الغزالي في الإحياء: "فإن قلت فما فائدة الدعاء؛ والقضاء لا مردَّ له؟ فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان؛ فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى {خذوا حذركم} وأن لا يسقي الأرض بعد بث البذر؛ فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القَدَر والذي قدر الخير قدره بسبب والذي قدر الشر قدر لدفعه سببًا؛ فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته" [٤]

٥ – قلة الطعام تثمر انفتاح البصيرة:

قال الإمام الغزالي: "فنقول في الجوع عشر فوائد الفائدة الأولى صفاء القلب وإيقاد القريحة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الرحمة مائة جزء، حديث رقم ٦٠٦٦.

(٢) البحر المديد: ٢٦٩/٧

(٣) البحر المديد ١٨٨/٧ ،والإفناء والإبقاء أي من الله عزوجل فهو الذي يفعل ذلك.

(٤) إحياء علوم الدين ٣٢٩/١

وإنفاذ البصيرة فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب"[١]

٦- الغفلة والشهوات سبب حجب البصائر:

جاء في البحر المديد لابن عجيبة ما نصُّه:" وقال القشيري: الحق- سبحانه- لا يستتر من رؤيته مُدْرَكٌ، ولا تخفى عليه من مخلوقاته خافية، وإنما الحُجُبُ على أبصارِ الخَلْق وبصائرهم، والعادةُ جاريةٌ أنه لا يخلق لنا الإدراك لِمَا وراء الحُجُب، ولذلك أدخِلَت الغفلةُ القلوبَ، واستولى عليها الذهول، سدَّت بصائرها، وغيبت فهومها، ففوقها حجب ظاهِرة وباطنة، ففي الظاهر: السموات حجبٌ تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وأغطية، كالشهوة والأمنية، والإرادات الشاغلة والغفلة المتراكمة"[٢]

٧- دائرة انفتاح البصيرة أوسع من الدنيا:

قال العارف الشعراني في الطبقات:" إذا نظر العارف بعين بصيرته غابت الدنيا في مراته لأن حدقة بصيرته أوسع منها، وكان يقول: العالم الدنيوي محل ظهور المعنى الإنساني، ومن بعد الموت إلى آخر المحشر محل ظهور النور الإيماني، ومن مبتدأ دخول الجنة محل ظهور السر العرفاني"[٣]

٨- أقسام البصيرة وعيونها:

وقال أيضًا العارف الشعراني في الطبقات: "حقيقة القصد إلى الله تعالى بالسر ظهور الحقيقة بادية في حجاب العلم ثم يفتح الله تعالى له في الاعتصام بالله باب العناية، وعلامته أن يفتح الله تعالى له من بصيرته عيوناً ثلاثة عين يدرك بها المعرفة، وعين يدرك بها أنوار الحقائق، وعين يدرك بها أنوار المعرفة.

كما أن العيون ثلاثة عين البصر، وعين البصيرة، وعين الروح فعين البصر تدرك

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٨٤

(٢) البحر المديد ٣/٥٦٩

(٣) الطبقات الكبرى ١/ ١٦٨

المحسوسات، وعين البصيرة تدرك المعنويات، وعين الروح تدرك الملكوتيات"[1]

فهذه المعاني هي بعض ما لدى السادة الصوفية من بيان لإشراق "انفتاح البصيرة" نفعنا الله بأسرارهم العلية.

(١) الطبقات الكبرى ١٢٩/١

(١٥) معرفة الحقائق:

إذا كنا قد تعرضنا لانفتاح البصيرة كأحد أنواع الإشراقات التي تحصل لبعض السالكين في الطريق إلى الله؛ فإن من تمام القول بيان ما هو كالأثر والنتيجة لانفتاح البصيرة؛ ألا وهو إشراق «معرفة الحقائق»؛ والمعرفة عند السادة الصوفية هي الغاية من الطريق على نحو ما قال تعالى في كتابه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] قال المفسرون: إن المقصود من العبادة هنا المعرفة (١)

أولًا معنى المعرفة ومراتبها:

وقد بين السادة الصوفية معنى المعرفة ومراتبها، ومن ذلك ما ذكره صاحب «التعرف»: "قال الجنيد المعرفة معرفتان معرفة «تعرُّف» ومعرفة «تعريف» معنى التعرف أن يعرفهم الله عز وجل نفسه ويعرفهم الأشياء به كما قال إبراهيم عليه السلام لا أحب الآفلين ومعنى التعريف أن يريهم آثار قدرته في الآفاق والأنفس ثم يحدث فيهم لطفًا تدلهم الأشياء أن لها صانعًا، وهذه معرفة عامة المؤمنين والأولى معرفة الخواص وكل لم يعرفه في الحقيقة إلا به، وهذا كما قال محمد بن واسع: ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه، وقال غيره ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله"(٢)

وقال الشيخ الأكبر رضي الله عنه في الفتوحات: " والمعرفة عند القوم محجة فكل علم لا يحصل إلا عن عمل وتقوى وسلوك فهو معرفة؛ لأنه عن كشف محقق لا تدخله الشبه، بخلاف العلم الحاصل عن النظر الفكري لا يسلم أبدًا من دخول الشبه عليه والحيرة فيه والقدح في الأمر الموصل إليه"(٣)

ثانيًا تعريف الحقائق عند السادة الصوفية:

---

(١) انظر تفسير البغوي ٤/٢٨٨ ط.إحياء التراث العربي،الأولى ١٤٢٠ هـ

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص٦٤ للكلاباذي

(٣) الفتوحات المكية ٢/٣٣١

- وأما تعريف الحقائق عند السادة الصوفية؛ فقد قال العارف الشيخ ابن عجيبة:
" الحقائق جمع حقيقة وهي إدراك معرفة الأشياء على ما هي عليه بالأصالة"(١)
- ونقل العارف الشعراني عن سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه قال" الحقائق هي المعاني القائمة في القلوب، وما اتضح لها، وانكشف من الغيوب وهي منح من الله تعالى، وكرامات، وبها وصلوا إلى البر، والطاعات؛ ودليلها قوله لحارثة كيف أصبحت؟ قال أصبحت مؤمنًا حقًا (٢).. الحديث"(٣)

تفصيل معنى الحقائق وكيفية ورود الحقائق:

يقول الشيخ ابن عجيبة (٤):" الحقائقُ هي: ما يرد على قلب العارف من تجليات العلوم والحكم والمعارف؛ فتارة تكون علومًا، وتارة تكون حكمًا، ومعارفًا وتارة تكون كشفًا بغيب كان أو سيكون، وحكمة ذلك الروح إذا تخلصت وتصفت من غبش الحس كان غالب ما يتجلى فيها حقًا، ثم إن هذه الحقائق قد رد في حال التجلي مجملة فيقيدها الإنسان كما تجلب ثم يتفكر فيها فيتبين معناها فبعد الوعي وهو الحفظ يكون البيان"(٥)

---

(١) البحر المديد ١/٣٠١

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان حديث رقم [١٠١٠٦] وتمامه: " عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوما فاستقبله شاب من الأنصار يقال له: حارثة بن النعمان، فقال له: كيف أصبحت يا حارثة؟ " قال: أصبحت مؤمنا حقا، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " انظر ما تقول، فإن لكل حق حقيقة إيمانك؟ " قال: فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعادون فيها، فقال: فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " أبصرت فالزم، مرتين، عبد نور الله الإيمان في قلبه"

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/٨

(٤) في أثناء شرحه لقول سيدي ابن عطاء الله السكندري: « الحقائق ترد في حال التجلي مجملة وبعد الوعي يكون البيان فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه»

(٥) إيقاظ الهمم صـ٤٥٩

شرط معرفة الحقائق:

قال العارف الشعراني في الطبقات:" القلوب الغافلة إذا سمعت الحقائق نفرت، ولا يثبت لسماع الحقائق إلا قلب أراد الحق ترقيه، وكان يقول: لا يظهر ولي في الدنيا قط بحقيقته، وإنما يظهر بعلمه لا بعينه، فإذا كان يوم القيامة أظهرهم الله بحقائقهم"[(١)]

القلب المهيأ لمعرفة الحقائق:

ذكر حجة الإسلام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين أن القلب الذي من شأنه أن يدرك الحقائق كالمرآة وكما أن هناك أسبابا تمنع من ظهور الصور في المرآة كذلك هناك عددٌ من الأسباب المانعة من العلم بالحقائق[(٢)] ثم عقب أنه لولا هذه الأسباب لتمكن كل قلب من إدراك هذه الحقائق فقال:" وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق؛ لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف"[(٣)]

أثر معرفة حقيقة النفس معرفة الله جل في علاه:

قال الشيخ ابن عجيبة: " فإنَّ من عرف حقيقة نفسه، وأنها مظهر من مظاهر الحق، وغاب عن حس وجوده الوهم، فقد عرف ربه وشَهِدَه، فاطلب المعرفة في نفسك، ولا تطلبها في غيرك، فليس الأمر عنك خارجًا"[(٤)]

الحقيقة المحمدية حقيقة الحقائق:

قال الشيخ السرهندي الفاروقي في المكتوبات: " إن وصول الفيض إلى السالك بتوسط خير البشر وحيلولته عليه الصلاة والسلام إنما هو قبل أن تنطبق حقيقة السالك المحمدي المشرب على الحقيقة المحمدية، وقبل أن تتحد بها؛ فإذا حصل الاتحاد بين هاتين الحقيقتين في مقامات

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٦٨

(٢) ذكر من هذه الأسباب ان يكون ناقصا في ذاته لا يقدر على تلقي الحقائق والسبب الثاني كدورة المعاصي والثالث عدم توجه القلب إلى الجهة المقصودة انظر الإحياء ٣/١٣ وما بعدها.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٤

(٤) البحر المديد ٥/٤٩٢

العروج بكمال متابعته، بل بمحض الفضل، ارتفع التوسط من البين فإن التوسط إنما هو حين المغايرة، وفي الاتحاد لا متوسط ولا متوسط له، ولا حاجب ولا محجوب، بل المعاملة في مقام الاتحاد بالشركة، ولكن لما كان السالك تابعًا وملحقًا وطفيليًا [1] لزم أن تكون تلك الشركة من قبيل شركة الخادم بالمخدوم.

(وما قلت) من أنه يحصل لحقيقته انطباق على حقيقته صلى الله عليه وسلم وإنها تتحد بها بيانه: أن الحقيقة المحمدية جامعة لجميع الحقائق ويقال لها حقيقة الحقائق وحقائق الآخرين كالأجزاء لها أو كالجزئيات لأن السالك لو كان محمدي المشرب فحقيقته كالجزئي لتلك الكلية ومحمولة عليها [2]"[3]

فهذه بعض ما ذكره السادة الصوفية في إشراق "معرفة الحقائق " نفعنا الله بعلومهم في الدارين

---

(١) الطفيلي أي المتطفل حيث إنه في بدايته في الطريق فهو كأنه متطفل على أهل الطريق، يقال فلان طُفَيْلِيٌّ للذي يدخل الوليمة والمآدبَ ولم يُدْعَ إليها وقد تَطَفَّل انظر لسان العرب ٤/٢٦٨٣

(٢) ومما سمعناه من شيخنا مولانا العلامة علي جمعة رضي الله عنه في خصوص هذا المعنى أن تفسير قوله تعالى: { قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} [الإسراء:٨٤] أن الضمير في شاكلته يعود إلى النبي ﷺ، على نحو ما قال الإمام البوصيري: [وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رَشفًا من الديم] وقيل إنها مكتوبة على القبة الزرقاء أسفل القبة الخضراء التي بنيت على قبره الشريف ﷺ

(٣) المكتوبات ٢/٤٢٣

(١٦) التصريف (استجابة الدعاء):

من أنواع الإشراقات التي ينقلها السادة الصوفية عن بعض الأولياء وأهل الله الصالحين ما يسمى بالتصريف، فيقال: إن هذا الولي من أهل التصريف، فهو إذن من المصطلحات المشتهرة بين السادة الصوفية، وعلى الرغم من شهرته ووضوح معناه بينهم، إلا أن كثيرًا من أعداء التصوف قد شنعوا على الصوفية بسببه، وراحوا يتهمونهم بمخالفة الشريعة بل بالخروج عن مقتضى الاعتقاد الصحيح؛ فنسبوا لهم أنهم يقولون على أولياء الله إنهم شركاء لله في التصريف أو نواب عنه في ذلك [(١)]، كبرت كلمة تخرج من أفواههم؛ فالسادة الصوفية لا يفترون على الله الكذب ولا يقولون ما يخالف الشرع أو الاعتقاد، وإنما أمعن هؤلاء المبغضون للتصوف وأهله في الكذب والافتراء من غير أن يأتوا بدليل واحد على قولهم الكاذب.

الاستدلال على التصريف من كتاب الله:

ومما يشير إلى هذه المرتبة في كتاب الله عزوجل قوله تعالى:﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل:٤٠] فإنه كان عبدًا من عباد الله آتاه الله العلم والولاية فحصلت له منزلة "التصريف" بإذن الله في حضرة سليمان عليه السلام؛ إذ كان تلميذًا ومتبعًا للنبي سليمان عليه السلام.

وممن أشار إلى كون ما وقع من هذا العبد المسمى (آصف بن برخيا) هو نوع من التصرف الشيخُ الأكبر في فصوص الحكم حيث قال: "وأما فضل العالم من الصنف الإنساني على العالم من الجن بأسرار التصريف وخواص الأشياء، فمعلوم بالقدر الزماني: فإن رجوع الطرف إلى الناظر به أسرع من قيام القائم من مجلسه، لأن حركة البصر في الإدراك إلى ما يدركه أسرع من حركة الجسم فيما يتحرك منه، فإن الزمان الذي يتحرك فيه البصر عين الزمان الذي يتعلق بمبصره مع بعد المسافة بين الناظر والمنظور: فإن زمان فتح البصر زمان تعلقه بفلك الكواكب الثابتة، وزمان رجوع طرفه إليه هو عين زمان عدم إدراكه.

---

(١) انظر فتاوي اللجنة الدائمة ٨٩/٢ ط.رئاسة إدارة البحوث والإفتاء الرياض.

والقيام من مقام الإنسان ليس كذلك: أي ليس له هذه السرعة.

فكان آصف ابن برخيا أتم في العمل من الجن، فكان عين قول آصف بن برخيا عين الفعل في الزمن الواحد. فرأى في ذلك الزمان بعينه سليمان عليه السلام عرش بلقيس مستقرا عنده لئلا يتخيل أنه أدركه وهو في مكانه من غير انتقال"(١)

ولمزيد بيان حقيقة التصريف عند السادة الصوفية نذكر المراد منه فيما يلي:

أولًا معنى التصريف لغة واصطلاحًا:

التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة، نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور (٢)

واصطلاحًا:

يمكننا أن نقول بناء على تتبع كلام السادة الصوفية: إن معنى التصريف عندهم هو أن يجعل الله مراد الولي سببًا في انفعال شيء من الأكوان، وبمعنى آخر: أن يجري الله قدره بشيء عند تعلق مراد الولي بحصول ذلك الشيء؛ فهو داخل من جهة في باب الكرامة، وداخل كذلك في باب استجابة الدعاء على الفور.

ثانيًا: كلام الشيخ محمد زكي إبراهيم في معنى التصريف

ولعل أفضل من تكلم عن مفهوم "التصريف" عند السادة الصوفية مفَصِّلًا إياه هو الشيخ الإمام محمد زكي الدين إبراهيم رضي الله حيث قال رحمه الله: " فالقائلون بأن فلانًا من (أهل التصريف) مثلًا: يريدون أنه من أهل الوجاهة عند الله والقبول لديه، وأنه من أهل استجابة الدعاء، سواء كان نطقًا باللسان أو توجهًا بالقلب، أو تحركًا للإرادة. وكنه الهمة في حدود ما جاء في الحديث القدسي الصحيح: «وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ» (٣)

---

(١) فصوص الحكم للشيخ محي الدين بن عربي بشرح القاشاني صـ١٥٥ ط.مكتبة الفجر الجديد

(٢) انظر تفسير الرازي ٣٤٥/٢٠ عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الإسراء:٤١]

(٣) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢

وحديث: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» [1]، أو كما قال صلى الله عليه وسلم: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمْرَيْنِ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ»[2]

وهو معنى قول السادة: إن لله عبادًا إذا أَرَادُوا أَرَادَ، ترجمة لقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] فافهم.

فالمراد بالتصريف هنا هو: تفضل الله تعالى على عبده بإيقاعه تعالى الأمر كما سبق في علمه القديم على مراد عبده الظاهر، بما يجيء في دعائه القولي، أو توجهه القلبي، أو تحرك إرادته الروحية، وذلك تنفيذًا لترتيب الأسباب والمسببات على مقتضى ما في اللوح وأم الكتاب.

التصرف من الله ظاهرًا وباطنًا:

فليس العبد مصرفًا شيئًا مع الله تعالى، ولكن الله تعالى يتفضل فَيُصَرِّف الأشياء كما هي في علمه، على مراد أوليائه وأحبائه ظاهرًا فقط، تنفيذًا لسبق إرادته.

فأهل التصريف يعنون بهم (أهل الفضل الإلهي) الذين يكرمهم الله بتحقيق مرادهم الظاهر، وهو مراد الله الحقيقي الباطن فيما يطلبونه من الكونيات، سواء كان الطلب بالقول أو الفعل أو الهمة.

والهِمَّة يعني بها كثير من الصوفية: تحرك الإرادة الروحية التي يجعلها الله سببًا عاديًا من أسباب انفعال الأكوان بقدرته تعالى؛ ليحقق بها المطلوب لعباده الصالحين في ظاهر الأمر على ما سبق في العلم القديم، فالمراد مراده، والأمر أمره، يجريه كما يشاء على يد من يشاء.

وبمعنى آخر: إن الله تعالى يجعل عبده الصالح نفسه أداة من أدوات تنفيذ المراد الإلهي الأزلي، الذي قد يظهر في صورة مراد العبد البشري، فيما يراه الناس.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب عن عمر بن الخطاب؛ باب إدامة ذكر الله.

(٢) رواه مسلم بلفظ: رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره" كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الضعفاء والخاملين، حديث رقم: ٢٦٢٢

ومثل ذلك: أن عيسى كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحي الموتى -بإذن الله-، وكان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وهو ليس إلا عبد أنعم الله عليه، وليس له من الأمر شيء ككل عبد.

لكن الله جعل إرادة هذا العبد سببًا عاديًا في سابق علمه، وجعل هذا العبد أداة لتنفيذ سابق المراد الإلهي الذي انفعلت به إرادة العبد البشرية على مقتضى العلم القديم، ففاضت به من عالم الغيب إلى عالم الشهود.

ومن الكذب المخزي والبهتان الخرافي، ومن ذرائع الكفر والشرك والزندقة أن يقال: إن وليًا لله، مهما كان شأنه، يتصرف في الكون كما يشاء، أو إن الله فوض الأمر إلى الولي ليفعل ما يشاء، أو إن الله بعد أن خلق الكون سلمه للأولياء ليدبروه كما يشاءون"[١]

إذن كما رأينا حرر الشيخ محمد زكي إبراهيم معنى التصريف عند السادة الصوفية بما يوافق قواطع الشرعَ وأدلته، وراح كذلك يرد على من يدعي على السادة الصوفية اعتقادهم في تفويض تصريف الكون لأحد مهما كانت مكانته أو شأنه.

وعلى هذا الأساس يمكن قراءة وفهم النصوص الواردة في تراجم بعض الأولياء أنهم قد أعطوا كرامة التصريف حيث توافق مراداتُهم أقدارَ الله، وتحصل على إثر دعواتهم أو توجهاتهم إلى الله تصاريفُ الأمور.

---

(١) أصول الوصول للشيخ محمد زكي إبراهيم صـ٢٤٥ ط. العشيرة المحمدية ١٩٩٥م

بعض نصوص السادة الصوفية في نسبة التصرف لبعض الأولياء:

ومما جاء في كلام السادة الصوفية من نسبة التصريف لبعض الأولياء ما يلي:

[التَّصرف في الظالمين]

١-قال الشيخ الشعراني في العهود المحمدية: "سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من لم يعطه الله التصريف في الظَلمة بالعزل والتولية وتحويل النعم وتأثيره في أبدانهم فليس له الإكثار من الدخول عليهم في شفاعة ولا غيرها لا سيما في هذا الزمان الذي قد صار الفقير فيه عند الظلمة من أحقر الناس لا يقبلون له شفاعة إما لعدم مشى الفقير على قواعد الصالحين وإما لعدم استحقاق الناس للشفاعة فيهم.

وقد صحبت أنا جماعة من الولاة على قدم الزهد فيما بأيديهم فلم يردوا إليّ شفاعة إلى أن عزلوا أو ماتوا فأحكم يا أخي مقام الزهد في أموالهم وهداياهم ثم ادخل عليهم ليلا ونهارا في الشفاعات لا يضرك ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد شفع سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه في يوم مائة شفاعة عند السلطان وهو يرد ولا يقبل فلما رجع مرة أخرى بعد المائة عرض عليه السلطان دراهم فردها وأشار إلى مدورات حجارة كانت بين يدي السلطان فصارت ذهبا فاستغفر السلطان من مخالفة الشيخ ورسم بقضاء جميع الحوائج التي يسأل فيها كلها"(١)

[التصريف لجبر خاطر الضعفاء]

٢-وفي الطبقات الكبرى في ترجمة الشيخ الفرغل رضي الله تعالى عنه المدفون في أبي تيج بالصعيد:" كان رضي الله عنه من الرجال المتمكنين أصحاب التصريف، ومن كراماته رضي الله عنه أن امرأة اشتهت الجوز الهندي فلم يجدوه في مصر فقال: للنقيب مخيمر يا مخيمر ادخل هذه الخلوة واقطع لها خمس جوزات من الشجرة التي تجدها في داخل الخلوة، فدخل فوجد

---

(١) العهود المحمدية للشعراني صـ٢٧٧

شجرة جوز فقطع لها منها خمس جوزات ثم دخل بعد ذلك فلم يجد شجرة"[١]

[لا يشترط في التصريف وقوعه من الأقطاب]

٣-وفي الطبقات أيضًا في ترجمة الشيخ علي الخواص: "سئل رضي الله عنه عن طائفة المسلكين كسيدي أحمد الزاهد، وسيدي مدين وأضرابهما رضي الله تعالى عنهم هل كانوا أقطابًا فقال: رضي الله عنه:لا؛ وإنما هم كالحجاب على الملك فلا يدخل عليه أحد من الناس إلا بإذنهم وعلمهم؛ فهم يُعلِّمون الناس الآداب الشرعية، والحقيقية. وما يظهر عليهم من الكرامات، والأحوال إنما هو لصفاء نفوسهم، وإخلاصهم، وكثرة مراقبتهم ومجاهدتهم، وأما القطابة فجل أن يلج مقامها الأحوط غير من اتصف بها.

قال وقد بينها [٢] الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، وقال: إن لها ستة عشر عالماً؛ الدنيا والآخرة عالم واحد من هذه العوالم.

فقيل له[٣] فالتصريف الذي يظهر على أيدي هؤلاء المسلكين هل هو لهم أصالة كالقطب [٤] أم لا؟ فقال رضي الله عنه: ليس هو لهم أصالة، وإنما هو بحكم الإفاضة عليهم من الدوائر التي هي فوقهم إلى القطب، و إيضاح ذلك أن الله تعالى إذا أراد إنزال بلاء شديد مثلا فأول ما يتلقى ذلك القطب فيتلقاه بالقبول، والخوف ثم ينتظر ما يظهره الله تعالى في لوح المحو

---

(١) الطبقات الكبرى ٢/ ٩٢

(٢) الضمير راجع إلى رتبة القطبانية

(٣) أي للشيخ علي الخواص

(٤) من المصطلحات الجارية على لسان السادة الصوفية مصطلح القطب وهو في اللغة له استخدامات من ضمنها السيد يقال: هو قطب بني فلان، أي سيدهم الذي يدور عليه أمرهم، انظر: مختار الصحاح صـ٢٥٦، وأما في الاصطلاح فهو كما قال الجرجاني في التعريفات: "القطب -وقد يسمى غوثا باعتبار التجاء الملهوف إليه- وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان" انظر التعريفات للجرجاني صـ٢٢٧، فهو أتقى أهل زمانه ومحل نظر الله وعنايته في زمنه وقد وردت آثار وكلام لكثير من السلف في تحديد المراد بالقطب والغوث والأبدال والأوتاد جمعها الإمام السيوطي في رسالته الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والأبدال ضمن الحاوي للفتاوي ٢/ ٢٩١

والإثبات الخصيصين بالإطلاق، والسراح فإن ظهر له المحو، والتبديل نفذه، وأمضاه في العالم بواسطة أهل التسليك الذين هم سدنة ذلك فينفذون ذلك، وهم لا يعلمون أن الأمر مفاض عليهم، وإن ظهر له الثبوت دفعه إلى أقرب عدد، ونسبه منه، وهما الإمامان فيتحملان به ثم يدفعانه إن لم يرتفع إلى أقرب نسبة منهما كذلك حتى يتنازل إلى أصحاب دائرته جميعاً فإن لم يرتفع تفرقته الأفراد، وغيرهم من العارفين إلى عموم المؤمنين حتى يرفعه الله عز وجل بتحملهم.

ولو لم يحمل هؤلاء ذلك من العالم لتلاشي في طرفة عين قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١] وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان:١٠] إشارة إلى القطب الذي هو العَمَد المعنوي الممسك للسموات ففيه إشارة إلى خفائه في العالم"(١)

[حكمة عدم تصرف الأولياء لإهلاك الكافرين]

٥-وفي كتاب "الإبريز لأحمد بن المبارك " ما نصه:" سألته رضي الله عنه ذات يوم فقلت: إن أهل التصرف رضي الله عنهم لهم القدرة على إهلاك الكفرة أينما كانوا، فما بالهم تركوهم مع كفرهم وعبادتهم غير الله عز وجل ومن كان بهذه الصفة فهلاكه واجب؟!

فقال رضي الله عنه وقد حول وجهه إلى خلف ثم رده: يقدر الولي في هذه اللحظة على إهلاك هذا البر كله، ومع ذلك فإذا حضر بين معركة من المسلمين والكفار يحرم عليه أن يتصرف في الكفرة بشيء من ذلك السر، وإنما يقاتلهم بما جرت به عادةُ القتال من ضرب بسيف وطعن برمح ونحو ذلك اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

قال رضي الله عنه: ولقد التقت سفينة للمسلمين وكان فيها وليان من أولياء الله عز وجل مع سفينة للكفار، فلما حمى بينهم القتال، قام أحد الوليين وكان صغيرًا فتصرف في السفينة بذلك السر، فانطلقت النار في سفينة الكفرة وهم يرون ولم يصدر منه سبب عادي يستر به تصرفه،

---

(١) الطبقات الكبرى ١٣٩/٢ وما بعدها

وإنما احترقت السفينة بلا سبب، فلما فعل ذلك الولي ما فعل، سلبه الولي الآخر الذي كان معه وكان أكبر منه، عقوبة على ما فعل.

قال رضي الله عنه: وإنما لم يجز التصرف في الكفرة -دمرهم الله -بذلك السر؛ لأن صاحبه في تلك الحالة خارج في الحقيقة عن عالم البشر والتحق بعالم آخر، وكما لا يجوز لعالم الملائكة مثلا أن يتصرفوا فيهم بما تطيقه قوتهم، كذلك لا يجوز لصاحب السر أن يتصرف فيهم بقوته، بل تجري لهم على يديه الأمور التي بها بقاؤهم ودوام عيشتهم، كما أن عليهم حفظة من الملائكة يدبرون أمورهم منذ نشأوا إلى أن ينقرضوا.

وبالجملة فالكفرة -دمرهم الله- من عالم البشر فلا يستعمل معهم في قتالهم وهلاكهم إلا ما هو عادة في عالم البشر لا غير، والله أعلم"[١]

[حكمة عدم جعل التصريف لأهل الجذب]

٦- وفي الإبريز أيضًا: "وسألته رضي الله عنه عن المجاذيب، هل لهم دخل في الديوان؟ أو هل يتصرفون مثل ما يتصرف غير المجاذيب؟

فقال رضي الله عنه: لا دخل لهم في الديوان، ولا بأيديهم التصرف، وإذا بلغ إليهم التصرف هلك الناس.

فقلت: ومتى يبلغ إليهم؟

فقال رضي الله عنه: وقت خروج الدجال لعنه الله، فيقع التصرف بأيديهم، ويكون كبير الديوان منهم وليس معه عقل تمييز، فيقع الخلل في التصرف، ويكون ذلك سببًا في خروج الدجال"[٢]

[التصريف هو بتدبير الله وليس من عند الولي]

---

(١) الإبريز صـ١٧٢

(٢) الإبريز صـ١٦٩، وكل ذلك بتقدير الله حيث تؤول الأمور قبيل قيام الساعة إلى هلاك الدنيا شيئا فشيئا، حتى تقع الواقعة نسال الله السلامة.

٧- وجاء في الإبريز: " فقلت وهل سيدنا الخضر نبي كما ذهب إليه بعض العلماء حتى قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري ينبغي اعتقاد نبوته لئلا يكون غير النبي أعلم من النبي فقال رضي الله عنه: ليس بنبي وإنما هو عبد أكرمه الله بمعرفته وأمده بالتصرف في رعيته، وأعطاه من تمام التصرف وكمال المعرفة ما يعطى للغوث من هذه الأمة المحمدية، وأدرك ذلك الخضر بلا شيخ ولا سلوك بل أمده الله تعالى بذلك ابتداء فهذه درجته، وهي لا تبلغ مبلغ النبوة ولا الرسالة، وليس في علم الخضر بما سبق في تلك الأمور دون موسى ما يوجب أن يكون غير النبي أعلم من النبي، لما سبق أن موسى عليه السلام شغل عن ذلك بمشاهدة الحق التي لا عوض لها ولا مثيل، فلا يحتاج حينئذ إلى اعتقاد نبوته.

فقلت: والذين قالوا بنبوته استدلوا بقوله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[الكهف:٨٢]

فقال رضي الله عنه: وكل غوث وقطب، وغيرهما من أصحاب التصرف لا يفعلون شيئا، ولا يتصرفون في حادث إلَّا بأمر الله، وليس ذلك بنبوة ولا رسالة ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك"[١].

[التصريف بقضاء حوائج الزائرين لأولياء الله]

٨-قال في الإبريز: " سيدي يحيى صاحب الجريد، وكان من الأقطاب أيضًا، وكان شديد الاتِّباع في ظاهره وفي باطنه لشريعة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يتولى التصرف في جميع من يزور الصالحين الموتى، فهو ينظر في حوائجهم ويقضي ما قضاه الله منها.

قال لي رضي الله عنه [٢] هذا لما تكلمت معه في شأن بعض السادات الموتى ممن كثر زيارة الناس له وظهر النفع عليه وشفاء المرضى عند ضريحه، فقال لي رضي الله عنه: إن قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم لها شأن عظيم عند الله، ولو أنها اجتمعت على موضع لم يدفن فيه

---

(١) الإبريز صـ ٢٦٠

(٢) يريد هنا شيخه سيدي عبد العزيز الدباغ

أحد وظنت فيه وليا وجعلت ترغب إلى الله تعالى في ذلك الموضع فإن الله تعالى يسرع لها بالإجابة. وسيدي يحيى اليوم -يعني يوم الحكاية- هو الذي يتولى التصرف في ذلك، وقد يقع هذا أيضًا في الأولياء الأحياء، فقد يكون الرجل مشهورا بالولاية عند الناس وتقضى بالتوسل به إلى الله الحوائج ولا نصيب له بالولاية، إنما قضيت حاجة المتوسل به على يد أهل التصرف، وهم رضي الله عنهم الذين أقاموا ذلك الرجل في صورة الولي ليجتمع عليه أهل الظلام مثله، وهم الذين يتصرفون تبعا للقدر، فهو عندهم بمنزلة الصورة التي يجعلها صاحب الزرع في فدانه ليطرد بها العصافير، فهي تظن الصورة رجلًا فتهرب منه، وذلك في الحقيقة من فعل صاحب الفدان لا من فعل الصورة، فكذلك أهل التصرف رضي الله عنهم يقيمون ذلك الرجل ويجمعون عليه أهل الظلام مثله، والمتصرف فيهم خفي عنهم، ولم يظهر لهم لأنه حق وهم لا يطيقون الحق (١).

[التصرف هو من إكرام الله لنبيه ﷺ في أمته]

٩ – يقول الشيخ عبد العزيز الدباغ: " كل ما أعطيه سليمان في ملكه عليه السلام، وما سخر لداود، وأكرم به عيسى عليه السلام أعطاه الله تعالى وزيادة لأهل التصرف من أمة النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله سخر لهم الجن والإنس والشياطين والريح والملائكة، بل وجميع ما في العوالم بأسرها، ومكنهم من القدرة على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ولكنه أمر غيبي مستور لا يظهر إلى الخلق لئلا ينقطعوا إليهم فينسون ربهم عز وجل، وإنما حصل ذلك لأهل التصرف ببركة النبي صلى الله عليه وسلم، فكل ذلك من معجزاته عليه الصلاة والسلام" (٢)

---

(١) الإبريز صـ ٢١٥

(٢) الإبريز صـ ١٧١

[حكمة جعل التصريف لبعض المريدين دون شيوخهم]

١٠- جاء في الفتوحات المكية ما نصُّه: " (السؤال الثالث والثلاثون ومائة بما نال صاحب سليمان عليه السلام ذلك وطوى عن سليمان عليه السلام؟)

الجواب:

بجمعيته وتلمذته ليعرف الشيخ بما حصل عنده وبسببه وطوى عن سليمان بوجوده في محل التبديد في الوقت فإن الحكم للوقت ووقته أنه رسول فهو صاحب وجود مصروف العين إلى من أرسل إليه وصاحبه في جمعيته على أمر واحد متحقق بها فظهر بما طوى عن سليمان العمل به تعظيما لقدر سليمان عليه السلام عند أهل بلقيس وسائر أصحابه وما طوى عن سليمان العلم به وإنما طوى عنه الأذن في التصرف به تنزيها لمقامه

(السؤال الرابع والثلاثون ومائة ما سبب ذلك؟)

الجواب إعلام الغير بأن التلميذ التابع إذا كان أمره بهذه المثابة فما ظنك بالشيخ فيبقى قدر الشيخ مجهولًا في غاية التعظيم فلو ظهر على سليمان لتوهم إن هذا غايته ولا شك أن مشهد سليمان في ذلك الوقت والله أعلم كان مشهد أدب لا يريد أن يكون عنه شرك في التصرف كما قال أبو السعود [1]:أُعطيت التصرف وتركته تظرفًا، في حكاية طويلة والغرض للنبي إنما هو الدلالة وظهورها على يد صاحبه أتم في حقه إذ كان هذا التابع مصدقا به وقائما في خدمته بين يديه تحت أمره ونهيه فيزيد المطلوب رغبة في هذا الرسول إذا رأى بركته قد عادت على تابعيه فيرجو هذا الداخل أن يكون له بالدخول في أمره ما كان لهذا التابع والنفس مجبولة على الطمع وحب الرئاسة والتقدم"[2]

---

(١)أَبُو السعود بْن الشِّبل العَطَّار الحريمي الزَّاهد. [المتوفى: ٥٨٢ هـ] وكان من أصحاب سيدي عبد القادر الجيلاني انظر ترجمته تاريخ الإسلام للذهبي ٧٥٦/١٢ ط.دار الغرب

(٢) الفتوحات المكية ١٣٤/٢

[درجات الأولياء وحصول التصريف لبعضهم دون بعض]

١١- قال الشيخ محيي الدين بن عربي في الفتوحات: " ولأصحاب هذا المقام التصريف والتصرف في العالم فالطبقة الأولى من هؤلاء تركت التصرف لله في خلقه مع التمكن وتولية الحق لهم إياه تمكنا لا أمرًا لكن عرضًا فلبسوا الستر ودخلوا في سرادقات الغيب واستتر وبحجب العوائد ولزموا العبودة والافتقار وهم الفتيان الظرفاء الملامتية الأخفياء الأبرياء وكان أبو السعود منهم [١] كان رحمه الله ممن امتثل أمر الله في قوله تعالى ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:٩]

فالوكيل له التصرف فلو أمر امتثل الأمر هذا من شأنهم وأما عبد القادر فالظاهر من حاله إنه كان مأمورًا بالتصرف فلهذا ظهر عليه هذا هو الظن بأمثاله، وأما محمد الأوانيّ [٢] فكان يذكر إن الله أعطاه التصرف فقبله؛ فكان يتصرف ولم يكن مأمورا فابتلي فنقصه من المعرفة القدر الذي علا أبو السعود به عليه؛ فنطق أبو السعود بلسان الطبقة الأولى من طائفة الركبان وسميناهم أقطابًا لثبوتهم؛ ولأن هذا المقام أعني مقام العبودة يدور عليهم، لم أرد بقطبيتهم أن لهم جماعة تحت أمرهم يكونون رؤساء عليهم وأقطابا لهم هم أجل من ذلك وأعلى فلا رياسة أصلا لهم في نفوسهم لتحققهم بعبوديتهم"[٣]

فظهر بهذه النقول أن مقام التصريف هو من الإشراقات التي يمن الله بها على بعض أولياءه وهو من تصرفات القدرة الإلهية ويقع وفق الإرادة الربانية، وليس فيه وقوعه من بعض الأولياء دون بعضهم أفضلية لهم دون غيرهم، فالأمر لله من قبل ومن بعد.

---

(١) مرت ترجمته في النقل السابق

(٢)محمد بن أبي المعالي بن قايد، أبو عبد الله الأوانيّ، الصوفي، الصالح. [المتوفى: ٥٨٤ هـ] كان في زمن الشيخ عبد القادر انظر ترجمته تاريخ الإسلام ١٢/ ٧٩٠

(٣) الفتوحات المكية صـ٢٢٥

(١٧) اللغات:

من أنواع الإشراقات التي يتجلى بها الله على بعض أولياءه أن يلهمهم معرفة بعض اللغات الملكوتية التي يكون لها دلالات خاصة على معان معينة، فيعرفها بعض عباد الله دون بعضهم، ويدركون بهذه اللغات بعض أسرار الله في الخلق.

وهذه اللغات ليست من اللغات السائدة التي يتعارف عليها الناس وإنما هي لغة خاصة ترد على خاطرهم وتحصل في وجدانهم بفتح الله عليهم.

وقد ذكر السادة الصوفية أن من جملة ما يفتح به على أولياءه من العلوم والمعارف معرفة اللغات المختلفة؛ سواء كانت هذه اللغات من لغات البشر أو غيرهم أو لغات الملأ الأعلى وغيرها من اللغات الخاصة ومن تلك النصوص ما يلي:

١-قال العارف بالله سيدي أبي العباس المرسي:" إذا كمل الرجل نطق بجميع اللغات، وعرف جميع الألسن إلهامًا من الله عز وجل "[١]

٢-وقريبٌ من ذلك ما نقله العارف ابن عجيبة في تفسيره؛ فقال: " ما بعث الله وليًا داعيًا إلا بلسان قومه، وقد يخرق له العادة، فيطلعه على جميع اللغات، كما قال المرسى رضي الله عنه: من بلغ هذا المقام لا يخفى عليه شيء. وذلك من باب الكرامة كما كان صلى الله عليه وسلم يخاطب كل قوم بلغتهم معجزة له صلى الله عليه وسلم فقد اتسع علمه- عليه الصلاة والسلام- فأحاط بحقائق الأشياء وأسمائها ومفهوماتها، وأصول اللغة وفروعها، فعلم ما علمه سيدنا آدم عليه السلام، أو أكثر، وإلى ذلك أشار القطب ابن مشيش في تصليته [٢] المشهورة بقوله: «وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق». وقال البوصيري في همزيته:

لَـــكَ ذَاتُ العُلـــوم مِـــنْ عـــالِمِ الغَيْـــ ـــــبِ ومنهـــا لآدم الأســـماء[٣]

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١٣

(٢) يقصد الصلاة المشيشية

(٣) البحر المديد ٣/ ٤٣

أما اللغة التي يحصل العلم بها وهي ليست من جنس سائر اللغات التي يعرفها البشر وهي تعد لغة خاصة يعرفها الأولياء والأقطاب، وبعض العلماء يطلق عليها اسم"السريانية" وهي ليست اللغة المعروفة عند علماء اللغات التي تنتمي إلى مجموعة اللغات السامية والتي منها العربية والعبرية والآرامية؛ فإن هناك اختلافات بين قواعد السريانية المعروفة ودلالاتها وهذه اللغة المنقولة عن هؤلاء الأولياء والأقطاب.

٣- وممن أشار لهذه اللغة الإمام عبد الوهاب الشعراني فقال رحمه الله تعالى في بيان العلوم التي يفتح الله بها على بعض الأولياء:" ومنها علمُ الأسماء التي أبهمت على الخلق لا على الخاصة من الأولياء بما نالها صاحبُ سليمان عليه السلام، وما سبب طي علم ذلك عن سليمان عليه السلام، وعلى ماذا اطلع من الأسماء على حروفها أو على معناها وأين باب هذه الأسماء التي خفيت عن الخلق دون الخاصة، وما كسوتها وما حروفها وأين الحروف؟(١)

٤- وقال الشعراني أيضًا: " مما تنتجه الخلوة المباركة من علوم سورة مريم عليها السلام: علم أسماء التكوين ومنها علوم حروف التكوين"(٢)

- **نصوص من الإبريز:**

من أكثر من فصل وتكلم عن هذه اللغة من السادة الصوفية العارف بالله سيدي عبد العزيز الدباغ كما في كتاب الإبريز بما لا مزيد عليه حيث قال:

٥- " إن اللغة السريانية هي لغة الأرواح، وبها يتخاطب الأولياء من أهل الديوان فيما بينهم لاختصارها وحملها المعاني الكثيرة التي لا يمكن أداؤها بمثل ألفاظها في لغة أخرى. فقلت: وهل تبلغها في ذلك لغة العرب؟ فقال رضي الله عنه: لا يبلغها في ذلك إلا ما في القرآن العزيز، فإن لغة العرب إذا جمعت المعاني التي في السريانية وكانت بلفظ العرب كانت أعذب وأحسن من السريانية، والله أعلم.

---

(١) إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء والعاملين للشعراني صـ٥٠،ط.دار الكرز للنشر والتوزيع.

(٢)الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من العلوم للشعراني صـ١١٣ ط.جوامع الكلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن اللغات كلها مطنبة بالنسبة للسريانية، لأن الكلام في كل لغة غير السريانية يتركب من الكلمات لا من الحروف الهجائية، وفي السريانية يتركب من الحروف الهجائية، فكل حرف هجائي في السريانية يدل على معنى مفيد، فإذا جمع إلى حرف آخر حصلت منهما فائدة الكلام، ومن عرف لأي معنى وضع كل حرف هان عليه فهم السريانية وصار يتكلم بها كيف يحب وارتقى بذلك إلى معرفة أسرار الحروف، وفي ذلك علم عظيم حجبه الله عن العقول رحمة بالناس لئلا يطلعوا على الحكمة مع الظلام الذي في ذواتهم فيهلكوا، نسأل الله السلامة، والله أعلم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: إن اللغة السريانية سارية في جميع اللغات سريان الماء في العود؛ لأن حروف الهجاء في كل كلمة من كل لغة قد فسرت في السريانية ووضعت فيها لمعانيها الخاصة التي سبقت إليها الإشارة. مثاله أحمد يدل في لغة العرب إذا كان علما على الذات المسماة به، وفي لغة السريانية تدل الهمزة المفتوحة التي في أوله على معنى، والحاء المسكنة على معنى، والميم المفتوحة على معنى، والدال إن كانت مضمومة على معنى، وإن كانت مفتوحة على معنى آخر. وهكذا محمد، يدل في لغة العرب على الذات المسماة به، وفي السريانية تدل الميم على معنى، والحاء المفتوحة على معنى، والميم المشددة على معنى، والدال التي في آخره على معنى. وهكذا زيد وعمرو ورجل وامرأة، وغير ذلك مما لا ينحصر في اللغة العربية. فكل حروفها الهجائية لها معان خاصة في اللغة السريانية، وكذا حكم كل لغة، فالبارقليط وضع في لغة العبرانية علما على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي السريانية الهمزة التي في أوله تدل على معنى، واللام المسكنة تدل على معنى، والباء على معنى، وهكذا إلى آخر حروفه.

فالسريانية هي أصل اللغات بأسرها واللغات طارئة عليها، وسبب طروها عليها الجهل الذي عم بني آدم، وذلك لأن مبنى وضع السريانية وأصل التخاطب بها المعرفة الصافية التي لا جهل معها حتى تكون المعاني عند المتكلمين بها معروفة قبل التكلم فتكفي إشارة ما في إخطارها في ذهن السامع، فاتفقوا على أن أشاروا إلى المعاني بالحروف الهجائية تقريبا وقصدا

إلى الاختصار لأن غرضهم الخوض في المعاني لا فيما يدل عليها، حتى إنه لو أمكنهم إحضارها بلا تلك الحروف ما وضعوها أصلا، ولهذا لا يقدر على التكلم بها إلا أهل الكشف الكبير ومن في معناهم من الأرواح التي خلقت عرافة دراكة، والملائكة الذين جبلوا على المعرفة، فإذا رأيتهم يتكلمون بها رأيتهم يشيرون بحرف أو بحرفين، أو بكلمة أو بكلمتين إلى ما يشير إليه غيرهم بكراسة أو كراستين"(١)

٦- وقال في موضع آخر: " وسألته رضي الله عنه عن سؤال القبر هل يكون بالسريانية أم بغيرها، وقد قال الحافظ السيوطي في منظومته:

ومن غريب ما ترى العينان   أن سؤال القبر بالسرياني

قال شارحها: قال الناظم يعني في شرح الصدور بأحوال الموتى والقبور: وقع في فتاوى شيخ الإسلام علم الدين البلقيني أن الميت يجيب السؤال بالسرياني، قال الناظم: ولم أقف له على سند.

وقد سئل الحافظ ابن حجر عن ذلك فقال: ظاهر الحديث أنه باللسان العربي، ويحتمل مع ذلك أن يكون خطاب كل واحد بلسانه، وهو متجه انتهى.

فقال رضي الله عنه: نعم سؤال القبر بالسريانية، لأنها لغة الملائكة والأرواح، ومن جملة الملائكة ملائكة السؤال، وإنما يجيب الميت عن سؤالهما روحه وهي تتكلم بالسريانية كسائر الأرواح، لأن الروح إذا زال عنها حجاب الذات عادت إلى الميت حالتها الأولى.

قال رضي الله عنه: والولي المفتوح عليه فتحا كبيرا يتكلم بها من غير تعلم أصلا، لأن الحكم لروحه فما ظنك بالميت فلا صعوبة عليه في التكلم بها."(٢)

٧- و قال أيضًا: " من عرف السريانية وأسرارَ الحروف أعانه ذلك على فهم باطن القرآن عونًا كثيرا، وعلم ما في عالم الأرواح، وما في هذه الدار وما في الدار الآخرة، وما في السموات

---

(١) الإبريز ص١٠٦، ١٠٧

(٢) الإبريز ص١٠٨ – ١٠٩

وما في الأرضين وما في العرش وغير ذلك، وعلم أن معاني القرآن العزيز التي يشير إليها لا نهاية لها، فعلم معنى قوله تعالى:﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:٣٨]، والله تعالى أعلم."[١]

وهكذا مضى الشيخ يذكر من خصائص هذه اللغة التي هي لغة الأرواح بحسب ما قاله، بل إنه تطرق كذلك إلى تفسير ما ورد عن بعض الأولياء من عبارات لا تفهم على قواعد العربية وهي من جنس هذه اللغة؛ كما فعل في شرحه لكلام الإمام الدسوقي رضي الله عنه؛فقال تلميذه أحمد بن المبارك :" قدم علينا بعض أصحابنا من أخيار تلمسان، فأخبرني أنه سمع بعض من حج بيت الله الحرام يقول إنه زار قبر سيدي إبراهيم الدسوقي نفعنا الله به، فوقف عليه الشيخ سيدي إبراهيم الدسوقي نفعنا الله به وعلمه دعاء، وهو هذا: «بسم الإله الخالق الأكبر، وهو حرز مانع مما أخاف منه وأحذر، لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، يلجمه بلجام قدرته، أحَمَى حَميثا أطمى طَميثا، وكان الله قويًا عزيزًا، حم عسق حمايتنا كهيعص كفايتنا، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»

فقال له سيدي إبراهيم: ادع بهذا الدعاء ولا تخف من شيء.

فقال لي صاحبنا التلمساني، وهو الحاج الأبر، التاجر الأطهر، سيدي عبد الرحمن بن إبراهيم، من أولاد ابن إبراهيم القاطنين بتلمسان، إن أخي الحاج محمد بن إبراهيم لما لم يعرف معنى هاتين الكلمتين وهما «أحمى حميثا وأطمى طميثا» امتنع من هذا الدعاء وقال لا أدري ما معناهما، ولعل أن يكون فيهما ما أكره، فسألني عن معنى الكلمتين، فسألت شيخنا رضي الله عنه عن معناهما، فقال رضي الله عنه بديهة: لا يتكلم أحد اليوم على وجه الأرض بهاتين الكلمتين، فمن أين لك بهما؟.

فحكيت الحكاية، فقال رضي الله عنه: نعم سيدي إبراهيم الدسوقي من أكابر الصالحين، ومن أهل الفتح الكبير، وهو وأمثاله الذين يتكلمون بهاتين الكلمتين.

---

(١) الإبريز صـ ١١١

ثم قال رضي الله عنه: هما كلمتان بلغة السريانية؛ أما «أحمى»: فمعناه يا مالك، وفي سره يا مالك الملك العظيم الأعظم الحي القيوم، و«حمَيثا» إشارة إلى مملكته، فهو بمنزلة من يقول: يا مالك الأسرار، يا مالك الأنوار، يا مالك الليل والنهار، يا مالك السحاب المدرار، يا مالك الشموس والأقمار، يا مالك العطاء والمنع، يا مالك الخفض والرفع، يا مالك كل حي، يا مالك كل شيء، وفي هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم ولا العبارة تبليغه أبدا.

وأما قوله «أطمى»: فهو بمنزلة من يصفه تعالى بالعظمة والكبرياء والقهر والغلبة والعز والانفراد في ذلك كله، وكأنه يقول: يا عالم كل شيء، يا قادرا على كل شيء، يا مريد كل شيء، ويا مدبر كل شيء، ويا قاهر كل شيء، و يا من لا يتطرق إليه عجز ولا يتوهم في تطرقه نقص، و«طَميثا» إشارة إلى الأشياء التي يتصرف فيها وإلى الممكنات التي يفعل فيها ما يشاء ويحكم ما يريد سبحانه لا إله إلا هو، وفي هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم تبليغه أبدا، والله أعلم"[١]

- ومن كلام الأولياء أيضًا ما جاء في بعض أحزاب القطب الشاذلي أبي الحسن رضي الله عنه؛ مثل قوله في حزب اللطف: " أحونٌ قاف أَدُمَّ حاءٌ هاءٌ آمين"، وقوله في حزب الدائرة: "طَهَوُرٌ"، "بَدْعَقٌ" "مَحْبَبَهٌ" " سَقَفَاطِيسٌ " و " سَقَاطِيمٌ".، ومثل ذلك من كلامه في أحزابه رضي الله عنه.

وقد قام بعض العلماء بالكشف عن أصل هذه الكلمات التي اختارها الإمام الشاذلي للدعاء والمناجاة وهو الشيخ ابن عباد المحلي الشافعي وهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري حيث قال في كتابه (المفاخر العلية في المآثر الشاذلية): " اعلم أن هذه الاسماء هي من أسماء الله تعالى ليست بلسان من ألسنة عالم الملك ولا عالم الملكوت ولا بلغة من لغات العالمين، وإنما هي أسماء جبروتية [٢]، فمن ادعى القطبية الفردية فليبين لنا عن هذه اللغة، وعن أهلها..."[١]

---

(١) الإبريز صـ١٠٦

(٢) الجبروت: ما يدرك بالبصيرة والمعرفة، وهو يقابل كلا من عالم الملك الذي يدرك بالحس، وعالم الملكوت

وقد فسر بعضها رضي الله عنه فقال: " " «طَهَوُرٌ»: الكامل في ذاته المنور لصفاته. «بَدْعَقٌ»: بمعنى باقي الذي كل شيء به باق. «مُحْبَبَهٌ»: مبين الحكم وملقن المنن. «صُورَهٌ»: الذي لهيبته يأتي كل جبار خاضع. «مُحْبَبَهٌ»: هو اسم العزة. «سَقَفَاطِيسٌ»: وهو المعروف بمفتاح الغيب. «سَقَاطِيمٌ»: وهو اسم الجلالة الموصل إلى مفتاح الكنوز ولرتبة الكمال. أما الاسم: «أَحَوُنٌ قَافٌ أَدُمَّ حَمَّ هَاءٌ آمِينٌ»: فقد اختلفت الرواية فيه عن الشيخ ففي رواية أنها شعبة من الاسم الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سئل به أعطى، وقيل أنه الاسم الأعظم كما ورد عن الإمام الشاذلي"(٢)

وهكذا ظهر من خلال بيان هذه النوع من الإشراقات إمكانية اطلاع بعض الأولياء والصالحين على بعض اللغات الخاصة من عالم الملكوت التي تحمل بعض أسرار الخلق أوكيفية معاملة الخالق جل في علاه.

الذي يدرك بالعلم والفهم:انظر إيقاظ الهمم صـ٢٨٩

(١)انظر المفاخر العلية في المآثر الشاذلية لابن عباد الشافعي صـ٢١٢، ط.دار الحسين الإسلامية

(٢) انظر المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ٢١١ ملخصا

(١٨) الطَّرح الروحي:

مسألة الروح في العقيدة الإسلامية هي أحد المسائل التي يعتني بدراستها مبحث السمعيات، وقد سلك علماء أهل السنة في بيان حقيقتها مسلكين اثنين أشار لهما الإمامُ اللقاني في قوله في جهورة التوحيد:

ولا نَخُـــضْ في الـــرُّوْحِ إذْ مـــا وَرَدَا نَـــصٌّ عَـــنِ الشَّـــارِعِ لَكِـــنْ وُجِـــدَا

لمالـــكٍ هِـــيْ صُـــورَةٌ كالجســـدِ فَحَسْـــبُكَ الـــنَّصُّ بهـــذا السَّـــنَدِ

قال الشيخ عبد السلام اللقاني في شرحه لجوهرة التوحيد:" (ولا نخض) نحن معاشر جمهور المحققين (في) بيان حقيقة (الروح) بجنس وفصل مميزين لها لتعذر الوقوف عليهما لعدم ورود السمع بهما ولا يتلقيان إلا منه، وأشار إلى علة النهي عن الخوض فيها على هذه الطريقة بأنه خلاف الأدب مع الشارع حيث لم يبينها لنبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: (إذا ما وردا) أي عدم خوضنا في بيانها على سبيل الندب، فالخوض في بيان حقيقتها مكروه لعدم التوقيف في ذلك إذ هي من المغيبات التي لا تعرف إلا من قبل الشارع ولم يرد (نص) أي دليل (عن الشارع) وهو الله تعالى ببيانها لأن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يبلغنا ذلك عنه وكل ما هو كذلك فالأولى الكف عن الخوض فيه، ولذا قال الجنيد: الروح شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [الإسراء: ٨٥] أي مما استأثر الله بعلمه إظهارا لعجز المرء حيث لم يعلم حقيقة نفسه التي بين جنبيه مع القطع بوجوده فيرد العلم إليه سبحانه مع الإقرار بالعجز عن إدراك ما لم يطلعه الله عليه وعلى هذه الطريقة ابن عباس وأكثر السلف ويجري عليها الوقف عن الجزم بمحل مخصوص له من البدن، ولم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم من الدنيا حتى أطلعه الله على جميع ما أبهمه عنه لكنه أمر بكتم البعض والإعلام بالبعض الآخر.

والفرقة الثانية تكلمت فيها وبحثت عن حقيقتها، قال النووي: وأصح ما قيل فيها على هذه الطريقة ما قاله إمام الحرمين إنها جسم لطيف شفاف حي لذاته مشتبك بالأجسام الكثيفة

اشتباك الماء بالعود الأخضر واحتجوا لهذا بوصفها بالهبوط والعروج والتردد في البرزخ، وهذه الطريقة المرجوحة التي حكاها بقوله: (لكن وجدا، لمالك) أي لأهل مذهبه ممن خاض في بيان حقيقتها (هي) يعني روح كل جسد (صورة) أي جسم ذو صورة (كالجسد) أي كصورته في الشكل والهيئة لا في الظلمة والكثافة والرقة واللطافة وتخصيص أهل مذهب مالك بالذكر لأنهم أنفى أرباب المذاهب للشبهات، وأشدهم محافظة على النصوص الشرعية"(١)

إذن فبعض أهل السنة يرون أن الروح من الأمور الإلهية التي لا ينبغي أن نخوض فيها، ومنهم من يرى جواز ذلك وأن البحث عن ماهيتها وأحوالها ليس ممنوعًا شرعًا.

وعلى الرأي الثاني مضى عدد من أئمة الصوفية وغيرهم؛ فراحوا يصفون أحوال الروح وما يحصل لبعض الخلق بشأنها، وما يكون أثناء الحياة وحال النوم وبعد الوفاة والانتقال عن هذه الدنيا.

وقد ذكروا أن لهذه الأرواح أحوالًا وإشراقاتٍ وفيما يلي ننقل بعض نصوص هؤلاء الأئمة التي تبين أحوال الروح وبعض إشراقاتها:

١- **قال الشيخ ابن القيم في كتاب (الروح):**" ينبغي أن يعلم أن ما ذكرنا من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر فللروح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها وأنت ترى أحكام الأرواح في الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت بحسب تفارق الأرواح في كيفياتها وقواها وإبطائها وإسراعها والمعاونة لها، فللروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه، فإذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها فكيف إذا تجردت وفارقته واجتمعت فيها قواها وكانت في أصل شأنها روحًا علية زكية كبيرة ذات همة عالية ؟! فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر.

(١) إتحاف المريد بشرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام بن الشيخ إبراهيم اللقاني ص٢٦٦ ط.دار الكتب العلمية

وقد تواترت الرؤيا في أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك وكم قد رؤي النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر في النوم قد هَزمت أرواحُهم عساكرَ الكفر والظلم؛ فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وعددهم وضعف المؤمنين وقلتهم

ومن العجب أن أرواح المؤمنين المتحابين المتعارفين تتلاقى وبينها أعظم مسافة وأبعدها فتتشامَّ [١] وتتعارف فيعرف بعضها بعضا كأنه جليسه وعشيره؛ فإذا رآه طابق ذلك ما كان عرفته روحُه قبل رؤيته؛ قال عبد الله بن عمرو إن أرواحَ المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدُهما صاحبَه قط، ورفعه [٢] بعضهم إلى النبي ﷺ "[٣]

فهذا الكلام من ابن القيم يشير إلى أحوال الروح وشؤنها سواء في الدنيا أو بعد الموت.

٢- وقال الإمام الآلوسي في تفسيره: " الأرواح وإن اختلف مستقرها بمعنى محلها الذي أعطيته بفضل الله تعالى جزاء عملها لكن لها جولانا في ملك الله تعالى حيث شاء جل جلاله ولا يكون إلا بعد الأذن وهي متفاوتة في ذلك حسب تفاوتها في القرب والزلفى من الله تعالى حتى إن بعض الأرواح الطاهرة لتظهر فيراها من شاء الله تعالى من الأحياء يقظة وأن أرواح الموتى تتلاقى وتتزاور وتتذاكر وقد تتلاقى أرواح الأموات والأحياء مناما ولا ينكر ذلك إلا من يجعل الرؤيا خيالات لا أصل لها وذلك لا يلتفت إليه لكن لا ينبغي أن يبنى على ذلك حكم شرعي لاحتمال عدم الصحة وإن قامت قرينة عليها" [٤]

---

(١) التشامّ: التقارب والتعارف

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده مرفوعا عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) الروح لابن قيم الجوزية صـ٣١١ ط.عالم الفوائد، قد يتعجب بعض الناس لصدور هذا الكلام عن ابن القيم مع كون كثير ممن يدعون اتباعه ينكرونها ويكفرون قائلها، لكن ثبوت ذلك الكلام عن ابن القيم رحمه الله وغفر الله له إن لم يكن دافعا لمثل هؤلاء إلى الرجوع إلى ما عليه جماهير الأمة فينبغي أن يكون سببا لسكوتهم عن تكفير عموم الأمة!

(٤) تفسير الآلوسي ١٥٥/٨

ماهية الطَّرح الروحي:

ومن الإشراقات التي تحدث لبعض الأرواح ما يطلق عليه "الطرح الروحي"

ويقصد بالطرح: الترك والمغادرة والبعد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف:٩] أي: أبعدوه (١)

فالروح قد تترك البدن تركًا كليًا؛ كما في حالة الموت، وقد تتركه تركًا جزئيا كما في حالة النوم، أو إذا حصلت للروح بعض الإشراقات كما في الطرح الروحي (٢)

بيت منسوب للإمام الرفاعي يشير إلى إشراق الطرح الروحي

وقد ورد حصول هذا النوع من الإشراقات منسوبًا لبعض الأولياء والعارفين، ويمكن الإشارة له ببيت منسوب للقطب الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنه أنه لما حج وقف تجاه الحجرة النبوية الشريفة ثم أنشد:

في حالة البعد روحي كنتُ أرسلُها تقبلُ الأرضَ عني فهي نائبتي

وهذه نوبة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي (٣)

فهذا البيت يشير إلى حصول هذا الإشراق لبعض الأولياء بأن تنتقل الروح انتقالًا مغايرًا لحالتي الموت والنوم، فترى بعض الأماكن أو تلتقي بعض الأشخاص.

الإمام الشعراني حصل له الطرح الروحي:

وممن حصل لهم هذا النوع من الإشراقات كذلك الشيخ عبد الوهاب الشعراني ونقل عنه حصوله له مرارًا فقال: " اعمل يا أخي على جلاء مرآة قلبك من الصدأ أو الغبار إن أردت العمل بهذا الخلق، فإنك تطوف أقاليم الأرض كلها في مقدار ساعة. ومما وقع لي

---

(١) انظر تفسير ابن عطية ٢٢٢/٣ ط.دار الكتب العلمية

(٢) انظر في تعريف الطرح الروحي وبعض انواعه: كتاب الإنسان بين الجسم النجمي والهالة د.علي محمد عبد الله صـ٣٦ ط.وكالة الصحافة العربية ٢٠١٧م

(٣) تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك للسيوطي ضمن كتاب الحاوي للفتاوي ٣١٤/٢ ط.دار الفكر

أن شخصا من بلاد الحبشة أسلم عندنا في مصر، فسألته عن بلده، وعن الكنيسة الكبيرة التي في آخر زقاق داره، وعن شجرة النبق التي في دار جاره، فصدقني على ذلك، ثم قال للحاضرين هذا صالح، لاطلاعي على بلده ودار جاره، مع أني ما رحت إليها قط بجسمي، وإنما نظرت إليها بقلبي"(١)

ويفصل الشعراني أكثر في ذلك فيقول: " ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على: مساعدتي لأصحاب النوبة في سائر أقطار الأرض في حفظ إدراكهم من براري وقفار ومدائن وبحار وقرى وجبال، فأطوف بقلبي على جميع أقطار الأرض في نحو ثلاثة درج.. وصورة طوافي كل ليلة على مصر وجميع أقاليم الأرض: إنني أشير بأصبعي إلى أزقه جميع المدائن والقرى والبراري والبحار وأنا أقول الله الله الله، فأبدأ بمصر العتيقة، ثم بالقاهرة، ثم بقراها حتى أصل إلى مدينة غزة، ثُم إلى القدس، ثم إلى الشام، ثم إلى حلب، ثم إلى بلاد العجم، ثم إلى بلاد التركية، ثم إلى بلاد الروم، ثم أعدى من البحر المحيط إلى بلاد المغرب، فأطوف عليها بلداً بلداً حتى أجيء إلى إسكندرية، ثم أعطف منها إلى دمياط، ثم منها إلى أقصى الصعيد، ثم إلى أقصى بلاد العبيد، ثم إلى بلاد الرجراج، وهى أقطاع جدي الخامس، ثم أعطف إلى بلاد التكرور وبلاد السكوت، ومنها إلى بلاد النجاشي، ثم إلى أقصى بلاد الحبشة، وهو سفر عشر سنين، ثم منها إلى بلاد الهند، ثم إلى بلاد السند، ثم إلى بلاد الصين، ثم أرجع إلى بلاد اليمن، ثم إلى مكة، ثم أخرج من باب المعلة، إلى الدرب الحجازي إلى بدر، ثم إلى الصفراء، ثم إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فأستأذنه عن باب السور، ثم أدخل حتى أقف بين يديه صلى الله عليه وسلم، فأصلى وأسلم عليه وعلى صاحبيه، وأزور من في البقيع.."(٢)

(١) لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعم الله على الإطلاق للشعراني ص١٧٦ ط.دار الفكر
(٢) جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٢/٢٢٧ ط.دار الكتب العلمية

فالشيخ الشعراني رضي الله عنه كان يصف هذه الحالة التي تشرق فيها روحه فتطوي مسافات طويلة في وقت قصير قليل؛ فتحصل له معرفة من شأنها أن تجعله أكثر امتنانا وشكرًا لربه، وأكثر إقبالًا واعترافًا بفضله.

حصول الطرح الروحي لسيدنا أويس القرني:

وقد أشار لهذا النوع من الإشراقات كذلك قبل من نقلنا عنهم الإمام أبو نعيم في الحِلية فنقل ذلك عن سيدنا أويس القرني وهو من أئمة التابعين فقال:

"عن هرم بن حيان العبدي، قال: قدمت فلم يكن لي هم إلا أويسًا أسأل عنه فدفعت إليه بشاطئ الفرات يتوضأ ويغسل ثوبه فعرفته بالنعت فإذا رجل آدم محلوق الرأس كث اللحية مهيب المنظر فسلمت عليه ومددت إليه يدي لأصافحه فأبى أن يصافحني فخنقتني العبرة لما رأيت من حاله فقلت: السلام عليك يا أويس كيف أنت يا أخي؟ قال: " وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان من دلك علي؟ قلت: الله عز وجل قال: " { سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} [الإسراء: ١٠٨] " قلت: يرحمك الله من أين عرفت اسمي واسم أبي؟ فوالله ما رأيتك قط ولا رأيتني، قال: «عرفت روحي روحك حيث كلمت نفسي؛ لأن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد وإن المؤمنين يتعارفون بروح الله عز وجل وإن نأت بهم الدار"[١]

ويشرح مثل هذه الحالة التي أشار لها الحديث الشريف الذي نقلناه من قبل مرفوعًا عن تلاقي الأرواح الحكيمُ الترمذي؛ كما في نوادر الأصول فيقول:"الأرواح شأنها عجيب وهي خفيفة سماوية وإنما ثقلت إذا اشتملت النفس عليها بظلمة شهواتها وإذا ريضت النفس وتخلص الروح منها وصفا من كدورتها عادت إلى خفتها وطهارتها وكان لها شأن لا يؤمن به إلا كل مؤمن قلبه بالله مطمئن...ثم يقول: " وقوله صلى الله عليه وسلم إن أرواح المؤمنين لتتلاقى أراد بذلك المؤمن المستكمل لحقائقه الذي قد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ليس الموحد الذي أقبل على شهواته وتشاغل عن عبودته حتى خلط على نفسه الأمور

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٨٤

قلبه مأسور وروحه مشغول ونفسه مفتونة فكيف يبصر أو يعقل"[1]

إذن هذه الحالة هي حالة نورانية تشرق فيها الروح بأمر ربها فتطلع على من يشابهها حالا ومآلا وهو ما يشير إليه كذلك حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"[2]

---

(١) نوادر الأصول للحكيم الترمذي ١١٦/٢

(٢) متفق عليه

الإمام السيوطي ينقل بعض أخبار من حصل لهم الطرح الروحي:

وللإمام السيوطي رسالة موسعة بعنوان "المنجلي في تطور الولي" تكلم فيها عما سماه تطور الولي وهو بيان لبعض ما يكرم الله به بعض أولياءه ومنه ما يحصل لأرواحهم من أحوال وقد رد رحمه الله على ما قد يثيره بعضهم من إشكالات حول وقوع مثل ذلك فقال: "الولي إذا تحقق في ولايته، مكن من التصور في صور عديدة، وتظهر على روحانيته في حين واحد، في جهات متعددة، فإنه يعطي التطور في الأطوار، والتلبس في الصور على حكم إرادته، فالصورة التي ظهرت لمن رآها بعرفة حق، وصورته التي رآها الآخر لم تفارق دمامين [١] حق، وصدق كل منهما في يمينه، فقال الشيخ: هذا هو الصحيح انتهى، وقد ساق ذلك اليافعي في كفاية المعتقد، وقال فإن قلت: هذا مشكل، ولا سبيل إلى أن يسلم الفقيه ذلك، ولا يسوغ في عقله أبدا، ولا يصح الحكم عنده بعدم حنث الاثنين أبدا؛ إذ وجود شخص واحد في مكانين في وقت واحد محال في العقل.

فالجواب عن هذا: ما أجاب به الشيخ صفي الدين المذكور، وليس ذلك محالا؛ لأنه إثبات تعدد الصور الروحانية، وليس ذلك بصورة واحدة، حتى يلزم منه المحال، قال: فإن قيل: الإشكال باق في تعدد الصور من شخص واحد، فالجواب: أن ذلك قد وقع وشوهد، ولا يمكن جحده، وإن تحير فيه العقل، من ذلك ما اشتهر عن كثير من الفقهاء وغيرهم: أن الكعبة المعظمة شوهدت تطوف بجماعة من الأولياء في أوقات في غير مكانها، ومعلوم أنها في مكانها، لم تفارقه في تلك الأوقات، ومن ذلك قصة قضيب البان، وروينا عن بعض الأكابر أنه قال: ما الشأن في الطيران إنما الشأن في اثنين أحدهما بالمشرق، والآخر بالمغرب يشتاق كل

---

(١) دَمامِين: بفتح أوله، وبعد الألف ميم أخرى: قرية كبيرة بالصعيد شرقي النيل على شاطئه فوق قوص، وعليها بساتين ونخل كثير) اهـ. انظر:معجم البلدان لياقوت الحموي ٤٦٢/٢ ط.دار صادر، والمقصود هنا حسب السياق أن الشخص المرئي رؤيت صورته في مكان(عرفة) وهو لم يفارق بلدته بالصعيد وهي قرية دمامين.

منهما إلى زيارة الآخر، فيجتمعان ويتحدثان، ويعود كل واحد منهما إلى مكانه، والناس يشاهدون كل واحد منهما في مكانه لم يبرح عنه...

ثم قال: "وقال الشيخ خليل المالكي - صاحب المختصر المشهور - في كتابه الذي ألفه في مناقب شيخه - الشيخ عبد الله المنوفي - ما نصه: الباب السادس في طي الأرض له، مع عدم تحركه، من ذلك أن رجلا جاء من الحجاز، وسأل عن الشيخ، وذكر أنه رآه واقفا بعرفة، فقال له الناس: الشيخ لم يزل من مكانه، فحلف على ذلك، فطلع الشيخ، وأراد أن يتكلم، فأشار إليه بالسكوت، وذكر وقائع أخرى وقعت له من هذا النوع، ثم قال: فإن قلت: كيف يمكن وجود الشخص الواحد بمكانين، قلت: الولي إذا تحقق في ولايته تمكن من التصور في روحانيته، ويعطى من القدرة التصوير في صور عديدة، وليس ذلك بمحال؛ لأن المتعدد هو الصورة الروحانية، وقد اشتهر ذلك عند العارفين بالله، كما حكى عن قضيب البان، أنكر عليه بعض الفقهاء عدم الصلاة في جماعة، ثم اجتمع ذلك الفقيه به، فصلى بحضرته ثمان ركعات في أربع صور، ثم قال له: أي صورة لم تصل معكم؟ فقبل يد الشيخ وتاب.

وكما حكي عن الشيخ أبي عباس المرسي أنه طلبه إنسان لأمر عنده يوم الجمعة بعد الصلاة، فأنعم له، ثم جاء له أربعة، كل منهم طلب منه مثل ذلك، فأنعم للجميع، ثم صلى الشيخ مع الجماعة، وجاء فقعد بين الفقهاء، ولم يذهب لأحد منهم، وإذا بكل من الخمسة جاء يشكر الشيخ على حضوره عنده، وقد حكى جماعة أن الكعبة رئيت تطوف ببعض الأولياء - هذا كلام الشيخ خليل وناهيك به إمامة وجلالة، ورأيت في مناقب الشيخ تاج الدين بن عطاء الله لبعض تلاميذه أن رجلا من جماعة الشيخ حج، قال: فرأيت الشيخ في المطاف، وخلف المقام، وفي المسعى، وفي عرفة، فلما رجعت سألت عن الشيخ، فقيل: هو طيب، فقلت: هل سافر أو خرج من البلد؟ فقيل: لا، فجئت إليه، وسلمت عليه، فقال لي: من رأيت في سفرتك هذه من الرجال؟ قلت: يا سيدي، رأيتك، فتبسم، وقال: الرجل الكبير يملأ الكون!"(١)

(١) المنجلي في تطور الولي ضمن كتاب الحاوي للفتاوي للسيوطي ١/ ٢٥٧

إذن هذا النوع من الإشراقات ثابت عن عدد من الأولياء والصالحين وقد أثبته هؤلاء من باب بيان ما يكرم الله به أولياءه وأن ذلك غير مستبعد على قدرة الله عزوجل، وأنه مهما حصل لإنسان فإنه لا يكون معيارا للولاية والتقدم على الخلق؛ وإنما هو أمر من عند الله تعالى لا ينبغي أن تلتفت له النفس؛ لأن مقصدها بداية ونهاية هو الله عزوجل.

(١٩)، (٢٠) التوفيق والتوافق:

مما يقع لكثير من السالكين والسائرين في طريق الله ما يطلق عليه التوفيق والتوافق؛ وهما كسائر الإشراقات من النعم التي ينعم الله على بعض عباده، حيث تحصل هذه الإشراقات تثبيتًا للسائرين، و مظهرًا من مظاهر عناية الله بالسالكين.

وأحدهما وهو التوفيق سبب في الآخر وهو التوافق؛ لذا كان المناسب التعرض لهما معًا.

تعريف التوفيق، والتوافق:

وقد عرف العلماء "التوفيق" بأنه: «خلق قدرة الطاعة والداعية إليها في العبد»

وعكسه "الخذلان" وهو:« خلق المعصية في العبد والداعية إليها»[١]

أما "التوافق"؛ فهو مفاعلة بين اثنين؛ من: الموافقة، والتوافق: الاتفاق والتظاهر، ووافقت فلانا على أمر كذا أي اتفقنا عليه معًا [٢]

بيان كونهما من الإشراقات:

أما كونهما من الإشراقات فإنهما كسائر الإشراقات يحصلان بسبب السير في الطريق أو هو أثر من آثاره؛ وبيان ذلك أن الله جل في علاه إذا علم صدق عبده في طلب الوصول إليه، خلق في قلبه الرغبة في طلب الشيخ والمرشد في الطريق؛ فيسير هائمًا باحثًا عمن يأخذ بيده إلى الله ويدله على طريق رضاه، وهنا يتجلى إشراق "التوفيق" حيث يوفقه الله بعد ظهور صدقه للقاء الشيخ الذي يأخذ بيده ليقول له: ها أنت وربك!

فإذا التقى شيخه أكرمه الله بعد ذلك بحصول إشراق "التوافق" حيث يجد السالك والمريد عند شيخه ما يجيب على أسئلته من قبل أن يتكلم في كثير من الأحيان، فيبدد حيرته ويزيل همومه وييسر فؤاده!

---

(١) حاشية الأمير على إتحاف المريد على جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقاني صـ١٩٠، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للباجوري ١٧١ ط.دار السلام

(٢) انظر: لسان العرب لا بن منظور مادة "و ف ق" ١٠/٣٨٢

وحتى يمكن عد تلك الأمور من قبيل "التوافق" أن ذلك لا يكون مرة واحدة أو مرتين؛ إذ ربما يحصل ذلك مرة على سبيل المصادفة، لكن المعتد به في مثل هذا الشأن أن يحصل ذلك بين المريد وشيخه مرارًا وتكرارًا.

أمثلة على إشراقي «التوفيق والتوافق»:

ومما ننقله عن خصوص هذين الإشراقين مما حصل للأكابر من سادات الصوفية ما يلي:

١ – قصة الشيخ الإمام أبي الحسن الشاذلي مع القطب ابن مشيش:

روي عن سيدي أبي الحسن الشاذلي أنه كان يبحث عن القطب ليأخذ عنه، ومما حكي عنه في ذلك أنه قال: " لما دخلت العراق واجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي فما رأيت بالعراق مثله وهو من أجل أصحاب سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه وكان بالعراق شيوخ كثيرة وكنت أطلب على القطب فقال لي الشيخ أبو الفتح تطلب على القطب بالعراق وهو في بلادك، ارجع إلى بلادك تجده فرجعت إلى بلاد المغرب إلى أن اجتمعت بأستاذي الشيخ الولي العارف الصديق القطب الغوث أبي محمد عبد السلام بن بشيش الشريف الحسني، وقال رضي الله عنه لما قدمت عليه وهو ساكن مغارة برباطه في رأس الجبل اغتسلت في عين في أسفل الجبل وخرجت عن علمي و عملي وطلعت عليه فقيرا وإذا به هابط علي فلما رآني قال مرحبا بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار..وذكر نسبي إلى رسول الله ﷺ، ثم قال يا علي طلعت إلينا فقيرا عن علمك وعملك أخذت منا غنى الدنيا والآخرة؛ فأخذني منه الدَهَش، فأقمت عنده أيامًا إلى أن فتح الله علي بصيرتي وكان إذ ذاك قطب الزمان.."(١)

ففي هذه القصة إشارة إلى إشراقي التوفيق والتوافق؛ حيث علم الله صدق توجه سيدنا أبي الحسن الشاذلي فوفقه للقاء القطب والأخذ عنه، وفي نفس الوقت وجد لدى القطب ابن مشيش ما أدهشه من الأسرار والمعارف مما وافق حاجته وحاله في الطريق.

---

(١) روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين لأحمد بن محمد الوتري البغدادي ص٤٤ وما بعدها ط.الخيرية

وهذا الأمر كما أشرنا لم يحصل بين سيدي أبي الحسن وشيخه القطب ابن مشيش مرة بل حصل مرارًا؛ ومنه قوله: "كنت يوما بين يدي الأستاذ –يقصد ابن مشيش–، فقلت في نفسي: ليت شعري هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم؟ فقال ولد الشيخ وهو في آخر المكان الذي أنا فيه: يا أبا الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم، الشأن من يكون هو عين الاسم.

فقال الشيخ –ابن مشيش– من صدر المكان: أصاب وتفرس فيك ولدي"(١)

٢- قصة الإمام القشيري مع شيخه أبي علي الدقاق:

يقول القشيري: « ولم أدخل أنا على أستاذ أبي علي في وقت بدايتي إلا صائما وكنت أغتسل قبله وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاما منه أن أدخل عليه فإذا تجاسرت مرة ودخلت المدرسة كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبني شبه خدر حتى لو غرز في إبرة مثلا لعلي كنت لا أحس بها ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لي لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة، فكلما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتي وغير مرة رأيت منه هذا عيانًا "(٢)

فهنا كذلك يشير القشيري إلى ما تكرر بينه وبين شيخه الدقاق من توافق حتى أنه ليخبره بما يخطر له وما يعرض له من أحوال قبل أن يخبره هو بها!

فكل ذلك لا محالة مما يثبت المريد في الطريق ويطمئن قلبه ويقوي داعيته.

٣- قصة الشيخ ابن عطاء الله السكندري مع شيخه أبي العباس المرسي:

قال الشيخ ابن عطاء الله وهو يحكي عن أول حاله مع الشيخ المرسي: "وكنت أنا لأمره من المنكرين وعليه من المعترضين لا لشيء سمعته منه ولا لشيء صح نقله عنه حتى جرت مقاولة بيني وبين بعض أصحابه وذلك قبل صحبتي إياه وقلت لذلك الرجل ليس إلا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظاماً وظاهر الشرع يأباها فقال لي ذلك الرجل بعد أن صحبت الشيخ تدري ما قال لي الشيخ يومًا تخاصمنا قلت لا قال: دخلت عليه فأول ما قال لي

---

(١) لطائف المنن صـ٦٣

(٢) الرسالة القشيرية ٢/ ٤٦٠

هؤلاء كالحجر، ما أخطأك منه خير مما أصابك فعلمت أن الشيخ كوشف بنا قال ولعمري لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عامًا فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم من الذي كان ينقله عنه من يقصد الأذى.

وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل دعني أذهب فأرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارة لا يخفي شأنها فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها فقال الأول إسلام والثاني إيمان والثالث إحسان وإن شئت قلت الأول عبادة والثاني عبودة وإن شئت قلت الأول شريعة والثاني حقيقة الثالث تحقق أو نحو هذا فما زال يقول وإن شئت قلت وإن شئت قلت إلى أن أبهر عقلي وعلمت أن الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلهي ومدد رباني فأذهب الله ما كان عندي،، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد في شيئا يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي ووجدت معنى غريبا، لا أدري ما هو؟ فانفردت في مكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها، وما خلق فيها من عجائب قدرته حملني ذلك على العود إليه مرة أخرى، فأتيت إليه فاستؤذن عليه، فلما دخلت عليه قام قائما وتلقني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلا واستصغرت نفسي أن أكون أهلا لذلك"(١)

فهذا الذي تم مع الشيخ ابن عطاء الله هو من قبيل التوفيق حيث علم الله صدقه فحول حاله من الإنكار إلى الإقبال ثم أنطق الله الشيخ بما رغبه في طريقه والسير على منهجه.

- وقال ابن عطاء الله كذلك:" دخلت أنا عليه وفي نفسي ترك الأسباب والتجرد وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلا إن الوصول إلى الله لا يكون على هذه الحالة، فقال لي من غير أن أبدي له شيئا، صحبني بقوص إنسان يقال له ابن ناشي، وكان مدرسًا بها ونائب الحكم، فذاق من هذا الطريق شيئًا على يدينا، فقال: يا سيدي، أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله، وما قسم لك على أيدينا هو إليك واصل». ثم قال: «هكذا شأن الصديقين، لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق هو الذي يتولى

---

(١) لطائف المنن صـ٨٣

إخراجهم»، فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي، وكأنها ثوبٌ نزعته، ورضيت عن الله فيما أقامني فيه" (١)

فهذا كذلك من علامات التوفيق والتوافق أن يجد المريد شيخًا يدله على ما يجعله مستقيمًا على قواعد الطريق، وكلما عنّ للمريد شيءٌ من عوارض الطريق تلقاه شيخه بالإرشاد إلى ما يوافق حاله ويضبط سلوكه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) لطائف المنن ص ٧٨

قائمة المراجع

١. الإبريز في تلخيص كلام سيدي عبد العزيز لأحمد بن المبارك ط.الميمنية ١٣٠٠هـ

٢. إتحاف السادة المتقين ط.مؤسسة التاريخ العربي بيروت -١٤١٤هـ

٣. إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ط.المعرفة بيروت

٤. إرشاد الطبين إلى مراتب العلماء والعاملين للشعراني ط.دار الكرز للنشر والتوزيع.

٥. الإصابة في تمييز الصحابة ط.دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٥هـ

٦. أصول الوصول للشيخ محمد زكي إبراهيم ط. العشيرة المحمدية ١٩٩٥م

٧. الاعتقاد للإمام البيهقي ط.دار الآفاق الجديدة

٨. الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني ط.دار جوامع الكلم ١٩٨٧ م

٩. إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني ط.الفجر الجديد

١٠. إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة ط.الفجر الجديد، ٢٠١٨ م

١١. الباقيات الصالحات في تعريب الرشحات ط.دار صادر(نسخة مصورة عن طبعة المطبعة الأميرية بمكة المكرمة ١٣٠٧هـ)؛ نقله من الفارسية للعربية: الشيخ محمد مراد بن عبد الله القزاني

١٢. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة طبع بإشراف الدكتور حسن عباس زكي،١٤١٩هـ

١٣. البداية والنهاية ط.دار الفكر

١٤. بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما له وما عليها للإمام أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي ط مصورة.المكتبة العلمية (الأولى ١٤٢٥هـ)

١٥. تاج العروس شرح جواهر القاموس للمرتضى الزبيدي ط.دار الهداية

١٦. تاريخ دمشق لابن عساكر، ط.دار الفكر

١٧. تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للباجوري، ت:أ.د علي جمعة ط.دار السلام

١٨. تشنيف المسامع شرح الجوامع للإمام الزركشي ط.قرطبة، الأولى ١٩٩٨م

١٩. التصوف الثورة الروحية في الإسلام للدكتور أبو العلا عفيفي ط.الهيئة العامة للكتاب.

٢٠. التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر الكلاباذي ط.دار الكتب العلمية

٢١. التعريفات للجرجاني ط.دار الكتب العلمية

٢٢. تفسير ابن كثير ط.دار طيبة

٢٣. التفسير الإشاري للقرآن الكريم لـمحي الدين حسين يوسف الإسنوي ط.العشيرة المحمدية
٢٤. تفسير البغوي ط.إحياء التراث العربي،الأولى ١٤٢٠ هـ
٢٥. تفسير البغوي ط.إحياء التراث العربي،الأولى ١٤٢٠ هـ
٢٦. تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط.الدار التونسية للنشر: ١٩٨٤ م
٢٧. تفسير الطبري= جامع البيان في تأويل أي القرآن للإمام الطبري ط.هجر
٢٨. تفسير روح البيان لإسماعيل حقي ط.دار الفكر -بيروت
٢٩. تفسير روح المعاني (تفسير الآلوسي) ط.دار الكتب العلمية ١٤١٥ هـ
٣٠. تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك للسيوطي ضمن كتاب الحاوي للفتاوي ط.دار الفكر
٣١. جامع الأصول في الأولياء للشيح الكمشخانوي النقشبندي ط.مكتبة الكليات الأزهرية
٣٢. جامع كرامات الأولياء للنبهاني ط.دار صادر - بيروت دون تاريخ
٣٣. الجمع بين الصحيحين للحميدي ط.دار ابن حزم لبنان الثانية
٣٤. الجواهر المضية في طبقات الحنفية ط.مير محمد كتب خانه -كراتشي
٣٥. الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من العلوم للشعراني ط.جوامع الكلم.
٣٦. حاشية الأمير على إتحاف المريد على جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقاني
٣٧. حاشية الأمير على شرح جوهرة التوحيد ،ط.العلمية، ٢٠٠١م
٣٨. حاشية الصبان على شرح الأشموني ط.العلمية
٣٩. حاشية العطار على شرح جمع الجوامع ط.دار الكتب العلمية
٤٠. حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ط.دار الكتاب العربي
٤١. الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية للغبريني ط.دار الآفاق
٤٢. درة الأسرار في مناقب وأقوال الإمام أبي الحسن الشاذلي ط.مركز جامعة مصر للعلم والتكنولوجيا،ت: أ.د أنس الفقي
٤٣. دلائل النبوة للإمام البيهقي ط.دار الكتب العلمية.
٤٤. دلائل النبوة للحافظ أبي نعيم ط.دار النفائس.
٤٥. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ط.دار المعرفة
٤٦. ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ط.العبيكان
٤٧. الرسالة القشيرية ط.دار المعارف

٤٨. رسالة في الأسماء العظيمة لسيدي عبد القادر الجيلاني ،ت: محمد غسان، ط.دار السنابل، الثانية
٤٩. روح البيان للشيخ إسماعيل الحقي الخلوتي ط.دار الفكر –بيروت
٥٠. الروح لابن قيم الجوزية ط.عالم الفوائد
٥١. روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين لأحمد بن محمد الوتري البغدادي ط.الخيرية
٥٢. رياضة النفس للحكيم الترمذي ط.دار الكتب العلمية.
٥٣. السنن الكبرى للبيهقي ط.دار الفكر
٥٤. سير أعلام النبلاء ط.الرسالة، الثالثة.
٥٥. شجرة النور الزكية ط.دار الكتب العلمية لبنان، الأولى
٥٦. شرح ابن بطال على صحيح البخاري ط.الرشد
٥٧. شرح الإمام النووي على صحيح مسلم ط.دار إحياء التراث –بيروت، الثانية ١٣٩٢ هـ
٥٨. شرح الخريدة البهية للعلامة أبي البركات أحمد الدردير ط.كشيدة بتحقيق أ.د.جمال فاروق
٥٩. شرح الشيخ الصاوي على جوهرة التوحيد ط.دار ابن كثير
٦٠. شرح الشيخ زكريا الأنصاري على الرسالة القشيرية المسمى إحكام الدلالة على تحرير الرسالة وبهامشه نتائج الأفكار القدسية للشيخ العروسي الناشر عبد الوكيل الدروبي –دمشق
٦١. شرح الشيخ عبد الله الشرقاوي على الحكم ط.كشيدة، الأولى
٦٢. شرح الصلاة المشيشية لابن عجيبة جمع العمراني الخالدي ط.دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء المغرب ١٩٩٤ م.
٦٣. شرح المقاصد للسعد التفتازاني ط.دار المعارف النعمانية
٦٤. طبقات الأولياء لابن الملقن ط.الخانجي
٦٥. طبقات الشاذلية الكبرى لأبي علي الحسن بن محمد الفاسي المغربي ط.المكتبة العلمية
٦٦. طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ط.هجر، الثانية ١٤١٣ هـ
٦٧. الطبقات الكبرى لابن سعد ط.دار صادر
٦٨. فتح الباري بشرح صحيح البخاريلابن حجر العسقلاني ط.دار المعرفة
٦٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب الحنبلي ط.دار الحرمين
٧٠. الفتوحات المكية لسيدي محي الدين بن عربي ط.بولاق
٧١. فصوص الحكم للشيخ محي الدين بن عربي بشرح القاشاني ط.مكتبة الفجر الجديد

٧٢. فضائح الباطنية للإمام الغزالي مؤسسة دار الكتب الثقافية -الكويت
٧٣. فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل،ط.مؤسسة الرسالة بيروت.
٧٤. قاموس: (فارسي-عربي) شاكر كسرائي ط.الدار العربية للموسوعات بيروت، الأولى ٢٠١٤م
٧٥. قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي ط.دار الكتب العلمية، الثانية ٢٠٠٥ م
٧٦. الكامل في التاريخ لابن الأثير ط.دار الكتاب العربي بيروت الأولى:١٩٩٧ م
٧٧. كتاب الإنسان بين الجسم النجمي والهالة د.علي محمد عبد الله ط.وكالة الصحافة العربية ٢٠١٧م
٧٨. لطائف الإشارات للإمام القشيري ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب (الثالثة)
٧٩. لطائف المنن ط.الفجر الجديد
٨٠. لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعم الله على الإطلاق للشعراني ط.دار الفكر
٨١. اللمع للسراج الطوسي ط.دار الكتب الحديثة بمصر
٨٢. لواقح الأنوار القدسية في العهود المحمدية للعارف عبد الوهاب الشعراني ط.دار اقرأ، الأولى ٢٠٠٤م
٨٣. لواقح الأنوار القدسية في معرفة طبقات الصوفية؛ المسمى بالطبقات الكبرى للشعراني ط.المليجي ١٣١٥هـ
٨٤. اللواقح القدسية شرح الوظيفة الزروقية للإمام العارف ابن عجيبة الحسني؛ ضمن مجموع: الجواهر العجيبة من تآليف سيدي أحمد بن عجيبة ط.دار الكتب العلمية
٨٥. مجمع الأمثال للميداني ط.دار المعرفة
٨٦. مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي ط.العصرية بيروت، الخامسة
٨٧. المداوي لعلل المناوي،ورد على كل من توهم كونه من الموضوعات للشيخ أحمد بن الصديق الغماري ط.دار الكتبي
٨٨. مدى حجية الرؤيا عند الأصوليين أ.د علي جمعة ،ط.دار الرسالة – القاهرة
٨٩. المصباح المنير للفيومي ط. المكتبة العلمية
٩٠. المطالب الإلهية من العلم الإلهي للإمام الفخر الرازي ، الأولى ١٩٨٧ م
٩١. معجم البلدان لياقوت الحموي ط.دار صادر
٩٢. المعجم الوسيط ط.مجمع اللغة العربية
٩٣. معجم علم النفس والتحليل النفسي لمجموعة من أساتذة علم النفس ط.دار النهضة العربية-

بيروت، الأولى

٩٤. معجم مقاييس اللغة لابن فارس ط.دار الفكر، ١٩٧٩م

٩٥. مفاتيح الغيب للفخر الرازي ط.دار إحياء التراث العربي

٩٦. المفاخر العلية في المآثر الشاذلية أحمد بن عباد المحلي ط.المكتبة الأزهرية للتراث

٩٧. المفتاح في الصرف للجرجاني صـ ٥٠ ط.مؤسسة الرسالة، الأولى

٩٨. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ط.دار القلم دمشق، الأولى

٩٩. مقالات الكوثري ط.التوفيقية

١٠٠. مقاييس اللغة لابن فارس ط.دار الفكر

١٠١. المكتوبات الربانية للإمام أحمد الفاروقي السرهندي بتعريب محمد مراد القزاني ط.مكتبة النيل القاهرة مصر

١٠٢. مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ط.عيسى الحلبي.

١٠٣. المنجلي في تطور الولي ضمن كتاب الحاوي للفتاوي للسيوطي

١٠٤. المنقذ من الضلال للإمام الغزالي ط.دار الكتب الحديثة

١٠٥. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ط.العلمية

١٠٦. الموطأ للإمام مالك بن أنس ط.دار إحياء التراث العربي ت:محمد فؤاد عبد الباقي

١٠٧. النهاية في غريب الحديث و الأثر ط.المكتبة العلية، بيروت

١٠٨. نوادر الأصول ط.دار الجيل بيروت،ت:عبد الرحمن عميرة

١٠٩. هواتف الجنان للحافظ ابن أبي الدنيا.المكتب الإسلامي الطبعة الأولى

فهرس الموضوعات